موفق محادين

دورة الدين اليهودي





دورة الدين اليهودي

موفق محادين

دورة الدين اليهودي



دورة الدين اليهودي
موفق محادين
الطبعة الاولى ايار ١٩٩٧

دار الكنوز الادبية - بيروت - لبنان
ص. ب/ ٧٢٢٦ - ١١ هـ ٦٥٣٥١٤

الإهـــداء

الى شجرة الدار، ومداراتها الوارفه... التي تحاملت

على نفسها حتى أظل واقفاً...

الى والدتي، وإخواني، وإخوتي، وكتابي الأول: فراس

كان (متىّ) يقول: كل ما يؤخذ بالسيف، بالسيف يهلك.

وكان البيتار ينشدون (بالدم قامت يهوذا، بالدم سقطت وبالدم ستبعث من جديد). فكان السؤال (لم لا تزول ثانية، فكل ما ينبعث ـ حسب غوته ـ جدير بالزوال).

والتاريخ حسب هيغل ماركس يعيد نفسه مرتين:

الاولى: كملهاة (اسرائيل المكابيه) والثانية كمسخرة (اسرائيل الغربية). كوسيدير مكان دانتون، الماباي والليكود مكان داود، وكريات اربع مكان مسعدة. وفي التاريخ ايضا كان اليونان في عيد الثأر "جيليا" يلقون بمواطن فقير بعد أن يزين بملابس وأغصان مقدسة من على صخرة كتعويذة وقربان بشري ضد المرض او القحط. أليست اسرائيل كذلك؟

لقد أصبحت اسرائيل فرناً نازياً لليهود، جيتو جديد، فاوست الذي باع روحه للشيطان، هولة البحر وليست سفينة نوح. عجل السامري الذي أقاموه هذه المرة من الدماء كدرك عالمي وليس من اقراط نسائهم، فأصبحت اسرائيل أكثر فأكثر صورة عن مسخ كافكا، عن سامسا الذي أصبح معزولاً فمسخاً.

المقدمة

بالرغم من صدور مئات وربما آلاف الكتب والدراسات حول الصهيونية واليهودية إلا أن ثمة ميلاً عاماً لا يخرج عن التصورات التقليدية السائدة التي ترد استمرار اليهود الى اليهودية نفسها. وليس الى التاريخ، فتتقاطع مع الاوهام والرغبة الصهيونية في رؤية وتقديم اليهودية كمسوغ عرقي مطلق، يبدأ وينتهي في الارض الموعودة! !.

هذه الدراسة تحاول اعادة انتاج قراءة ماركس ـ ابراهام ليون حول اليهودية بإضاءات جديدة تحاول توظيف ما كتب حول اليهودية والصهيونية وخاصة كتابات سيد القمني وشفيق مقار ومارسيا الياد وفرويد، والمسيري وهابرماس، ومن ثم متابعة الدورة اليهودية المغلقة بوصفها دورة أبعد عن الارض، اقرب الى الشتات والتجوال الابدي، وبالتالي أبعد عن الارض الموعودة، أقرب الى صرات الذهب الربوية ثم الى درع المحارب في خدمة الغرب.

ان الدورة الصهيونية التي تبدأ بالراعي الشرقي ثم التاجر ـ المرابي، ثم المحارب الغربي لا تتوقف لحظة تاريخية واحدة فوق الارض، أية ارض.

فبالرغم من ايديولوجيا الارض الموعودة وترميم المستنقعات للاستيطان، فقد انهارت كل مشاريع الاستقرار اليهودي في كيان يهودي خاص، سرعان ما يصطدم بالقانون التاريخي لاستمرار اليهود كيهود داخل التاريخ.

ولعل الوضع الراهن لاسرائيل الغربية الحالية أبرز مثال على ذلك، حيث يبدو العكس تماماً.

فما ان استقر اليهود في دولة شرق المتوسط بدعم الغرب ولخدمته، حتى اكتشفوا انهم امام خيارين لا ثالث لهما: الاستمرار كجغرافيا شرقية محاصرة داخل تاريخ الغرب وإما التخلي عن دولة الجغرافيا والاندماج في تاريخ الشرق كجماعة اثنية.

الفصل الاول ...

الوظيفة الربوية التاريخية

(١) يهوه واليهويه الرعوية

... الجذر الرعوي للمرابي المتجول

حسب القمني كان الطبيب الفرنسي جاك اوستراك (١٦٨٤–١٧٦٦) أول من كشف عن إحتواء سفر التكوين على روايتين مختلفتين، وأوضح حقيقة وجود اسمين مختلفين للاله في ذلك السفر والقسم في سفر الخروج، هما (إلوهيم= الآلهة) و(يهوه). وقد ربط (اوستراك) بين ذلك وبين روايات التوراة فاكتشف ان الاجزاء التي تستخدم اسم الوهيم تروي رواية مختلفة عن تلك التي تستخدم اسم يهوه.[١]

وتدلل مدرسة (فلهاوزن Wiljawsen) على ذلك بأدلة أهمها وأخطرها أن اسم الاله يختلف في هذه الاسفار ما بين سفر وآخر، إضافة الى تكرار القصص فيها، مما يشير الى عدد من الكتاب لم يلتقوا لتصفية الامر بينهم، مع فروق واضحة وجوهرية وعميقة في اللغة وفي الاسلوب بين هذه الاسفار.[٢]

ويضيف القمني: "ثم، وحتى ندعم فرضنا أكثر، سنضطر الى تسجيل أمر هام لاحظناه، وهو التلبس الواضح للإله (يهوه) بالإله الكنعاني (بعل مولوخ) منذ مراحله المبكرة" (والبعل مولوخ) ينطق أيضاً ويكتب (بعل مولوك والبعل الملك).

ملاحظتنا عن تلبس (يهوه) بالإله (بعل مولوك)، تبدأ من شغف (يهـوه) بدوره بدماء البشر، امـا النبي (إرميـا) فيعلنهـا صريحـة ويقـرر ان اليهـود كـانوا يقدمون أطفالهم مذبوحين محروقين على مذبح البعل الملك (ارميا-٩) .[٣]

اما أبرز المصادر التي عكست التأثر اليهودي الثقافي بالمجتمعات الفلاحية الشرقية، فهي :

١- المصدر المصري الاخناتوني التوحيدي ورمزه الاله "رع" إله الشمس المرتبط بالفلاحة.

فالاله اليهودي "يسمو على العالمين والبشر" وأحيانـا يحـل في الطبيعـة والتاريخ ويتسم بصفات بشرية، ويأخذ تجليات مختلفة كما في كتب القبالاه.

٢- التعـاليم الايلوهيميـة (البابليـة، الكنعانيـة) والـتي يرمـز لهـا اختصـاراً بالرمز (E) نسبة الى الاسم الالهـي الغـالب في ذلـك المصـدر وهـو (إيـل El)، واللوهيم اي الآلهة، ويرجع زمن تأليفه الى حوالي ٧٧٠ق.م ويرجح أنه قـد تم تأليفه في المملكة الشمالية، اسرائيل. ثم تم بعد ذلك إدماج المصدرين اليهودي (J) والالوهيمي (E) في مجموعة واحدة يرمز اليها بالرمز (EJ) وذلـك حـوالي عام ٦٥٠ق.م. وقد عـني هـذا المصـدر باستكمال النقـص الـذ ي حـدث في المصدرين اليهودي والكهنوتي.[٤]

ومن المعروف ان الايلوهيم هو جمع للاسم ايل الاله السامي.

وقد استخدم ايل في سفر التكوين اكثر من يهوه، ومن ذلـك تسـميات اسرائيل، واسماعيل.

وهنـاك مـا يشـير الى ان اليهـود عبـدوا الالهـة الفلاحيـة الـتي ترمـز الى الخصب والشمس.

فقد عبدوا تموز إله الخصب الرافدي ومارسـوا طقـوس النـدب والبكـاء عليه باعتباره إلهاً شهيداً، كما ظلوا على عبادة الشمس فـترة طويلـة وهـو مـا يفهم مـن روايـة النبي حزقيـال، عندمـا ذهـب الى الهيكـل "واذا هنـاك نسـوة جالسات يبكين على تموز.. واذا عند باب الهيكل، وبين الرواق والمذبـح نحـو

خمسة وعشرين رجلا، ظهورهم نحو هيكل الرب، ووجوهم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس". (حزقيال ٨ - ١٤: ١٦).

بل ان بعض كبار ملوكهم مثل سليمان، عبد مثل هذه الالهة صراحة وهو ما نراه في النص التوراتي "حينئذ بني سليمان مرتفعة لكموش رجس الموابيين، على الجبل الذي تجاه اورشليم، ولمولك رجس بني عمون" (ملوك اول ١١-٧) وبالمناسبة: هل كموش غير جموش او بالعربية جموس او جاموس؟ لفتة نشير بها الى انه بدوره كان إلها للخصب.[٥]

بعد ذلك وفي ضوء ذلك، هل صحيح استدلال البعض من تنوع المصادر الاجتماعية لأفكار العهد القديم والتلمود وكتب القبالاه على ان اليهود عاشوا حياة متنوعة ايضاً وخاصة حياة الفلاحة؟

ان متابعة تطور الوضع الاجتماعي لليهود خلال التاريخ يكشف عدم دقة هذه الاستنتاجات ويؤكد ان اليهود لم يخرجوا عن وظيفتهم التاريخية غير الانتاجية وان تنوع هذه المصادر ظل دائماً في الاطار الثقافي بتأثير المجتمعات الفلاحية التي عاصرها او عاش اليهود بينها (مصر، بابل، كنعان) .

- فأولا: ظلت الوظيفة الاجتماعية اليهودية، تملي على الحاخامات اعادة إنتاج تفاسير العهد القديم بما يخدم هذه الوظيفة، وخاصة الرموز الفلاحية الدينية.

ولذلك "أمر حلقيا الكاهن العظيم،وكهنة الفرقة الثانية، وحراس الباب ان يخرجوا من هيكل الرب جميع الانية المصنوعة للبعل وللسارية، ولكل اجناد السماء، وأحرقها خارج اورشليم، في حقول قدرون، وحمل رمادها الى بيت ايل.. وذبح جميع كهنة المرتفعات... وكذلك السحرة والعرافين والترافيم والاصنام، وجميع الرجاسات"[٦] (ملوك ثاني ٢٣-٤: ٢٤).

ومن ثم جاز ليهوه بعد ذلك أن يزهو بذاته الوحيدة، فيقول على لسان اشعيا :

انا الرب وليس آخر، لا اله سواي

انا الرب وليس اخر، مصدر النور وخالق

الظلمة، صانع السلام (اشعيا ٤٥).
انا الاول وانا الآخر، ولا إله غيري
وكل شيء انا أعلم به .. أنا الرب صانع
كل شيء، ناشر السماء وحدي، وباسط
الارض، من معي؟ (اشعيا ٤٤)
هو الله الجالس على كرة الارض، الذي
ينشر السماوات كسرادق، ويبسطها كخيمة
للسكن، الذي يجعل العظماء لا شيئاً (اهل
بابل)، ويصير قضاة الارض كالباطل،
فبمن تشبهون الله فيساويه ؟

(اشعيا ٤٠-٢٢ :٢٥)

وسبق ذلك عدة محاولات سريعة لتخليص (يهوه) من ارتباطه بمولك (الثور) ومن السرافيم (الحيات) والكروبيم (الثيران الطائرة)، فقام عدد من الانبياء بهذه المهمة بجرأة شديدة ليعلنوا كفرهم بالاله الثور، والتنديد به والتطاول عليه، فهذا يجهر قائلاً: زنخ عجلك يا سامرة (هوشع ٨ ـ٥) وذاك حزقيال الذي أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوار، وسحق حية النحاس التي عملها موسى، لأن بني اسرائيل كانوا الى تلك الايام يوقدون لها، (ملوك ثاني ١٨-٤).

كما نقرأ في ارميا (٣: ٦) و (١٧: ١و٢) وفي حزقيال (٢٠: ٢٨ و٢١) وفي سفر الملوك الثاني (٢٣ :٤ ـ٢٠) ان الاماكن المرتفعة وتقديسها هي طقوس وثنية لا تليق بالشعب المختار.

ولعل ترميم سفر التثنية وتخليصه من الرموز والطقوس الفلاحية الوثنية اهم مؤشر مبكر على العداء اليهودي للفلاحين. فسفر التثنية الذي تم تأليفه خلال القرن السابع ق.م. يعد القانون الثاني وتزعم الرواية التوراتية انه كان مخفياً في مكان او فجوة بجدران المعبد، وتم الكشف عنه عام ٦٢٢ ق.م اثناء

حكم الملك اليهودي (يوشيا) (Josias) عند ترميم معبد اورشليم (ملوك ثاني ٢٢ :٣ ـ ١٠) و (٢٢: ٣ ـ ٢٥)، حيث عثر المرممون بوجود كبير الكهنة (حلقيا) على كتاب الشريعة واحضروه للملك، فترك فيه اثراً عظيماً، حتى قام بموجبه يحرم كل الطقوس المختلفة عن الوثنية، وقصر العبادة على معبد يهوه في اورشليم وحده. لكن الملاحظ هو تعرض ذلك المصدر لكثير من الحشو والإضافات من عناصر ثقافية لا علاقة لها بالبيئة الصحرواية البدوية، وواضح أن كاتبها ينتمي لثقافة دولة متماسكة يحكمها ملك، ويعني هذا السفر بالاضافة للشريعة، بوضع تشاريع الحرب وما جاء من اوامر إلهية بشأنها.

ـ ثانياً: الانحياز لهابيل الراعي ضد قايين المزارع وليعقوب ضد عيسو، كما ظلت التوراة تربط بين الاغيار والفلاحين على اطلاقهم وتعتبرهم ادنى درجة من اليهود، شعب الله المختار حتى من الناحية البيولوجية.

كما ظلت الشعوب الفلاحية بالنسبة لليهودي تساوي قايين الملعون في التوراة ومصدر كل خطيئة، بما هو فلاح.

ان الخروج من مصر، قديماً ، ومن اوروبا الشرقية حديثاً والتيه في الصحراء ثم الشرق الاوسط ليس الا تكفيراً عن خطيئة العيش مع الشعوب الفلاحية في مصر واوروبا الشرقية.

وليست قصيدة الشاعر اليهودي بياليك عن والده الذي يبيع الفودكا للفلاحين السكارى سوى صورة حديثة عن العهد القديم.[٧]

ـ ثالثاً: رغم الحديث التوراتي عن الارض الموعودة للشعب المختار، الا ان الارض لم تحتل سوى قيمة ثانوية جداً في الفكر الصهيوني كما في الواقع اليهودي نفسه.

ومن ذلك ما تذكره التوراة نفسها عن ابراهيم الذي اشترى ارضاً من عفرون الحثي ليدفن زوجته سارة مع انه كان مقيماً في الارض المدعوة للشعب المختار!!.

وفي العصر الحديث وفي عام ١٩٠٢ اقترح هرتزل على وزير المستعمرات البريطانية جوزيف تشمبرلين منح اليهود قبرص او شبه جزيرة سيناء حتى العريش لاقامة دولة يهودية فيها، فيما اقترحت احدى الهيئات اليهودية في المؤتمر الصهيوني السابع ١٩٠٢ اقامة الدولة اليهودية في اوغندا.

ـ رابعاً: يذكر شاحاك ان سمات المجتمع اليهودي ظلت سمات غير فلاحية، إبتداءً من القرون الوسطى وحتى القرن العشرين.

ولاحظ ليون ان الاراضي التي كانت ملكاً لليهود كانت تتشكل اساساً من عمليات مضاربة ذات طبيعة ربائية او تجارية.(٨)

و لم يكن المزارعون اليهود فلاحين عاديين بل كانوا يتخصصون في انتاج الخمر والحليب والبقول والاثمار، وهي اشكال زراعية مرتبطة بالاقتصاد المدني وتتطلب استثمارات مهمة في الرأسمال وتتوجه نحو التبادل.

وحسب الاحصاء الروسي لعام ١٨١٨ كانت نسبة اليهود المزارعين الى عموم اليهود على النحو التالي: ٢٪ في اوكرانيا و ٤٪ في لتيوانيا وروسيا البيضاء .(٩)

ـ خامساً: يعتبر الاله اليهودي يهوه إلهاً رعوياً بامتياز ومصدراً ايديولوجياً حاضراً في كل مسوغات التجوال الشتات التي ارتبطت بدورها بالوظيفة اليهودية التاريخية.

وحتى عندما خالطت التوراة والتلمود ثقافات زراعية فإنها ظلت ثقافات متجاورة وليس متفاعلة مع اله يهوه الذي ظل بعيداً عن تأثيراتها.

وبالاضافة الى القصة التوراتية المعروفة عن انحياز يهوه لهابيل الراعي ضد قايين الفلاح وليعقوب ضد عيسو، فإن الرموز التوراتية الاساسية لا تخرج عن الطابع الرعوي ليهوه واليهودية، وخاصة ما ترمز اليه العصا كإسقاط مقدس لوظيفتها بالنسبة لأي راعي.

فالعصا المقدسة عند موسى رمز للنجاة في بلاط العزيز، ورمز لشق البحر، وللافعى النحاسية التي التهمت بقية الحيات.

اما يهوه نفسه، فهو إله رعوي، من حيث:

١ـ ارتباطه بالقمر، وبعكس الفلاحة التي ترتبط بالشمس.

يقول المؤرخون الثقات ان الاله "يهوى بالاصل هو إله القمر عند العرب في شمال الجزيرة العربية. ومقره كان خيمة، وطقوسه تشمل بعض الاعياد والتضحيات من بين القطيع."[١٠]

وقد تعرف عليه موسى عند كاهن مديان، وظهر لموسى في جبل حوريب وسط عليقة لا تحترق (خروج ٣ـ١: ١٠) .

ومن مؤشرات ذلك ان تجليات يهوه لا تظهر الا ليلاً . وان يوم السبت المقدس والاعياد الاسبوعية اليهودية ترتبط بأيام المحاق الثلاثة وترتبط كل شهرين بمواقع القمر.

وكذلك العودة الى الثور دائماً، وهو رمز القمر للتشابه بين الهلال والقرنين وكذلك الكروبيم. ومنه تحريف جبل حوريب الى جبل الطور الذي يقترب من كلمة الثور.

وقد ألمح الباحثون الى ارتباط يهوه بالبراكين، وعدّوه إلهاً بركانياً، فإذا ربطنا بين ظهور القمر بجاذبيته التي تسبب ظاهرة المد، كما تسبب أيضاً فوران البراكين النشطة، فإن ذلك يؤدي الى ارتباط القمر با لبراكين في اذهان الاقدمين، ولو طبقنا ذلك على يهوه كقمر سنجده مرتبطاً بالبراكين ارتباطاً مثياً، حيث نجد صفات (يهوه) في التوراة صفات بركانية دون لبس، فهو قد ظهر ـ أولاً لموسى في هيئة نار في عليقة، كم كان يتمثل لموسى واتباعه إبان رحلة الخروج "نهارا في عمود سحاب.. وليلاً في عمود نار" (خروج ١٣ـ ٢٠ ,٢١) وهو المشهد الذي تتجلى به البراكين، فهي إبان النهار يطغى ضوء الشمس على اشعاع لهيبها المختفي في الفوهة، فلا يرى منها غير دخانها، اما ليلا فيتضح مشهد النيران واللهب.[١١]

٢ـ ارتباطه بالديونيزيه الرعوية، بعكس الاورفيوسيه، المرتبطة بالزراعة والاستقرار.

وحسب فريزر،[١٢] فإن الرمز الاساسي للديونيزيه هو الفطر المقدس الذي يرمزالى مصدر الخصب وقريباً من ذلك فإن اياهو هو أصل الاسم الايوناني إياخوس (IACHUS) وكان اياهو لقبا لدايونيسوس اللوسيوسي. وهناك بينة اثارية على التماهي بين يهوه ودايونيسوس، هي قطعة نقدية فضية من القرن الخامس عشر ق.م عثر عليها قرب غزة، على أحد وجهيها صورة رأس ملتح لنموذج دايونيسوس، وعلى الوجه الاخر صورة انسان ملتح ايضا في عربة مجنحة عليها الحروف العبرية: ي هـ و ه.

وفي النصوص المسمارية والالواح المتكشفة في رأس الشمرا (اوغاريت القديمة) في سوريا (حوالي ١٣٠٠ــ١٥٠٠ق.م) وردت مقاطع مثل (.Yam Yau. Yo. Ya أو Yawe) في كلمات مركبة تشتمل على اسماء علم، وفي بعض الاحيان مع اسماء الهة، وفي النصوص المعينية من جنوب الجزيرة العربية، ترقى الى القرن الخامس عشر ق.م. ويظن ان المقصود بها (Yaj) وقد يصعب اعطاء رأي قاطع حول معنى هذه الالفاظ ودلالاتها، فلعل من المرجح ان إلهاً يدعى (Yahweh) او صيغة مقاربة لهذه اللفظة عرف قبل موسى بين القبائل البدوية المتنقلة في الجزيرة العربية والمنطقة المتاخمة لها من سوريا الى بابل.

وقد ورد اسم (يا) او (يلوه) في الواح إيبلا المكتشفة حديثاً في سوريا، وترقى الى القرن الرابع او الخامس والعشرين قبل الميلاد.

٣ـ لم يرتبط إله شرقي بالعنف كما ارتبط يهوه الرعوي الذي جسد حرب قطاع الطرق والقبائل اليهودية الوحشية البدائية بتسويغ إبادة الاخرين وخاصة القبائل الفلاحية، بوصفها ادنى درجة من شعب الله المختار، كما يصف الابن الاكبر ليهوه اعداء اسرائيل.

جاء في الاصحاح ٢٠ من سفر التثنية "اذا تقدمت الى مدينة لتقاتلها، فادعها أولاً الى السلم، فإذا فتحت لك، فجميع الشعوب الذين فيها يكونون لك تحت الجزية ويتعبدون لك وان لم تسالمك بل حاربتك واسلمها حرب الهك الى يدك، فاضرب كل ذكر بالسيف."

وجاء في سفر يشوع الاصحاح السادس ٢١:"وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف".

وفي السفر نفسه ٢٢ الاصحاح الثامن: "وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت واما ملك علي فامسكوا به حياً وتقدموا به الى يشوع وكان لما انتهي اسرائيل من قتل جميع سكان علي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعا بحد السيف."

(٢) سر اليهودي في وظيفته كمرابي متجول وليس سر الوظيفة في دينه:

يذهب رودنسون الى ان تصورات ليون حول الاختصاص الوظيفي لا تكفي لصياغة نظرية حولها، ويرى ان اليهود زاولوا عدة اعمال و لم يهتموا بالتجارة بشكل خاص فقد كانوا ملاكين ومتسولين وسحرة وباعة متجولين وحرفيين ومزارعين وعمال وبحارة.(١٣)

ليون، يرى غير ذلك تماما، ويربط بين الوظيفة والشتات من خلال الطابع التجاري ـ الربوي ـ الذي ميز اليهود، ولكن في ضوء الاستدراكات التالية:-

ان هذه النظرية تتعلق بقانون ميلي يسمح بالاستثناءات، وهو قانون التجسيد المرئي للاقتصاد النقدي في مجتمع يرتكز أساساً على القيم الاستعمالية.(١٤)

اما الادعاء بأن اليهود قد تعاطوا الربا نظراً لمؤهلاتهم العرقية فهو قلب الموضوع رأساً على عقب، ولا يمكن تفسير الوضع الاقتصادي لجماعة اجتماعية معينة بامكاناتها "الغريزية" أو بإديولوجيتها، بل بالعكس ان وضعها الاقتصادي يفسر بسبب مؤهلات كل من هاتين الطبقتين وامكاناتها، تدريجيا، بفعل اوضاعها الاقتصادية.

كذلك الامر بالنسبة لليهود، فمؤهلاتهم "الغريزية" للتجارة لا تفسر وضعهم الاقتصادي، بل ان وضعهم الاقتصادي هو الذي يفسر مؤهلاتهم التجارية.

بهذه الاعتبارات الاولية نرى مدى خطأ التصور العام المسيطر في ميدان التاريخ اليهودي، فاليهود يشكلون في التاريخ، قبل اي شيء اخر، مجموعة اجتماعية لها دور اقتصادي محدد: انهم طبقة او على الاصح شعب ـ طبقة.(١٥)

وهذا هو جوهر نظرية ليون حول الاختصاص الوظيفي في مظاهرها التجارية والربوية وفي هذا المجال يقول سيسيل روت: "لا يمكن ان نتصور القضية اليهودية على هذا الشكل، وهو ان الاسباط (الجيتوات) اليهودية في اوروبا قد ظهرت كنتيجة للحرب وحسب، فالتجارة في هذه القضية عامل أهم بكثير من الحرب، هذا بالرغم من انها، وهذا محتمل، أقل لفتاً للنظر".

ويكتب ماركس في (المسألة اليهودية):"لا نجد جوهر اليهودي المعاصر في التوراة، بل نجده في المجتمع المسيحي المعاصر وهو ليس بمثابة حدود يهودية للمجتمع الحالي".

ويضيف: "لا ينبغي ان نبحث عن سر اليهودي في دينه، بل يجب ان نبحث عن سر الدين اليهودي في اليهودي الواقعي".

فاليهودية لم تكن الا التعبير الايديولوجي للسمات الاجتماعية التي ميزت اليهود على امتداد تاريخهم، وكانت نتاج ظروفهم الاجتماعية، من جهة، والوسط الجغرافي، السياسي من جهة ثانية.

"وبينما عبرت الكاثولوليكية عن مصالح النبلاء العقاريين والاقطاعيين وعبرت (الطهرانية) او (البوريتانية) عن مصالح البرجوازية او الرأسمالية، عبرت اليهودية عن مصالح طبقة تجارية في عهد ما قبل الرأسمالية".

ولا تفسر محافظة اليهود على دينهم، المعبر الصادق عن مصالحهم الاجتماعية، كمجموعة متميزة نتيجة لاخلاصهم الديني، بل بالعكس، فإن محافظتهم كمجموعة اجتماعية متميزة هي التي تفسر تعلقهم بالايمان)(١٦).
وعلى حد تعبير كاوتسكي: " فإن الله اصبح عند يهود فلسطين مصدراً هاماً لتأمين رزقهم. وهو ما يفسر ايضا دور الحاخامات في تكريس العزلة الاجتماعية وبالتالي الوظيفة التاريخية."(١٧)

ويذكر شاحاك[١٨] انه قبل حلول القرن التاسع عشر كانت السلطات الحاخامية في اوروبا الشرقية تمنع أية دراسة خارج التوراة والتلمود، ولم يكن بمقدور اليهودي ان يشرب كأس ماء في بيت غير يهودي.

ولعل ابرز مثالين على دور الايديولوجيا في تكريس العزلة كمناخ للوظيفة الربوية ـ التجارية ـ اليهودية، مثال موقف الحاخامات من سبينوزا الذي اعتبره الحاخامات مارقاً واتهموه بالالحاد بسبب كتابه رسالة اللاهوت والسياسة الذي كان من شأنه تصفية هذه الايديولوجيا وبالتالي كسر جدار العزلة، فالشروط التاريخية للوظيفة. ومثال داكوستا وكتابه اختبار التقاليد الفريسية ومقارنتها بالشريعة المكتوبة ١٦٢٤، والذي اعتبر فيه الشفهية من ابتداع الحاخامات الفريسيين، فأصدر الحاخامات قراراً بطرده ودبروا مؤامرة لاعتقاله واحراق كتبه ثم نفيه الى هامبورغ.

ومن المعروف أيضاً أن داكوستا عندما عاد الى امستردام واعتبر نفسه قرداً من القرود المعزولة داخل الطائفة اليهودية، لم يسلم أبداً من ملاحقة الحاخامات كلما أثار موضوع العزلة اليهودية، الى أن دبر الحاخامات مؤامرة جديدة ضده، إنتهت بجلده واهانته ثم انتحاره.

(٣) بسبب الشتات وليس رغماً عنه

يكتب ليون: "لم يشتت اليهود اطلاقاً منذ سقوط اورشليم، اذ ان الغالبية العظمى من اليهود كانت قد تبعثرت في انحاء العالم، قبل هذا الحدث بعدة قرون."[١٩]

وما يمكن ان نؤكده ان أكثر من ثلاثة ارباع اليهود كانوا يسكنون خارج فلسطين قبل سقوط القدس بمدة طويلة. ولم يكن لجماهير اليهود المبعثرة في الامبراطورية الرومانية الا اهتمام ثانوي جداً بالمملكة اليهودية في فلسطين.

ويضيف ان مصالح قسم محدود من الطبقات الحاكمة في فلسطين قد تضررت بتدابير ملك بابل، ولم يبرح اغلبية اليهود القاطنين في فلسطين مكانهم.

وهو ما يؤكد ان استمرار اليهود لم يكن رغماً عن الشتات بل بسببه ودوره في اضفاء طابع تجاري ربوي على الاهتمامات اليهودية، فلا يمكن القول اذن بأن اليهود قد استمروا برغم تشتتهم، بل بالضبط بسببه ولو ظلوا في فلسطين، فلا داعي للاعتقاد بأن مصيرهم كان سيختلف عن مصير سائر الامم القديمة الاخرى، بل لاختلط اليهود، كالرومان والاغريق، والمصريين. بالامم المختلفة ولاعتنقوا دينها وعاداتها. وحتى لو استمر سكان فلسطين الحاليين بحمل اسم اليهود لكان الشبه بينهم وبين العبرانيين القدماء، كالشبه بين سكان مصر وسوريا واليونان مع اسلافهم القدامى، فانهيار الامبراطورية الرومانية ادى الى انحلال جميع الشعوب. اما اليهود،، فقد تمكنوا من البقاء، لانهم استمروا – في العالم الذي خلف روما - في حمل آثار التطور التجاري الذي ميز العالم القديم، وبعدما تفتت عالم حوض المتوسط، واصل اليهود ربط اجزائه المبعثرة.

لم يكن الشتات اذن وليد الصدفة او وليد العنف، لذا يتوجب علينا ان نبحث عن السبب الرئيسي للهجرة اليهودية، في الوضع الجغرافي لفلسطين: "وصل يهود فلسطين الى وقت لم تعد فيه بلادهم الجبلية تؤمن لهم حياة ممكنة الاحتمال كحياة جيرانهم. ان شعباً كهذا مجبر على الاختيار بين النهب والهجرة. فالاسكتلنديون مثلا، اختاروا على التوالي كلا من الطريقين. اما اليهود، فقد اتخذوا بعد عدة صراعات مع جيرانهم، الطريق الثاني. ان شعباً يعيش في مثل تلك الظروف لا يهاجر ليعمل في الزراعة، بل يذهب، كمرتزقة، كالاركاديين في قديم الزمان والسويسريين في العصور الوسطى، والالبانيين في عصرنا، او من اجل التجارة، كاليهود والاسكتلنديين والارمن. اننا نرى اذن ان وسطاً متشابها ينمي عند شعوب مختلفة الاعراق، خصائص متشابهة".

ومما لا شك فيه ان الغالبية الساحقة من يهود الشتات كانت تتعاطى التجارة، ومنذ أمد بعيد اصلاً، شكلت فلسطين طريقاً تعبر فيها البضائع، وجسراً بين وادي النيل ووادي الفرات. "كان من الحتمي ان تكون سوريا هدفاً للغزاة، وطريقاً تمر فيها البضائع، وتعبر فيها الافكار، لهذا نفهم انه منذ

زمن طويل، تمركز في تلك الظروف الجغرافية لفلسطين اذن، وفي آن واحد. قيام الهجرة وطابعها التجاري، ومن ناحية ثانية يتكون التجار في بداية تطور الامم من الغرباء. " يمتاز الاقتصاد الطبيعي، بأن كل مقاطعة تنتج كل ما تستهلك، وتستهلك كل ما تنتج، ولا دافع اذن لابتياع حاجات او خدمات من الغير. وفي اقتصاد ينتج المرء فيه كل ما يستهلكه، نرى لدى جميع الشعوب ان التجار الاوائل هم من الاجانب.".

يعدد فيلون (Philon) المدن الكثيرة التي استقر فيها اليهود كتجار، فيقول: انهم "كانوا يسكنون في عدد لا يحصى من مدن اوروبا وآسيا وليبيا، في القارات والجزر، قرب الشواطيء وفي المناطق الداخلية." فاليهود الذين سكنوا في الجزر والاقاليم الهيلينية وفي الغرب استقروا من أجل أهداف تجارية. "ونجد اليهود، كالسوريين، منتشرين او بالاحرى مجتمعين في كل المدن، "كانوا بحارة وسماسرة وصيارفة، وكان تأثيرهم فعالاً في الحياة الاقتصادية كتأثير الشرق في ميدان الفن والافكار الدينية."

ان الوسط الجغرافي الذي كانوا يتحركون فيه ومن خلاله، كرس هذا الدور وأضفى عليه طابعاً تاريخياً، بسبب من أهمية هذا الوسط داخل العالم القديم، وهو ما يفسر ويذكر أيضاً بالظروف التي دفعت مملكة حمير اليمنية وامبراطورية الخزر (بين البحر الاسود وبحر قزوين) على التهود جراء انسجام اليهودية مع التقاليد التجارية لهذه القبائل البدوية المحاربة في ظروف انتعاش اهميتها الجغرافية داخل شبكة طرق والقوافل والتجارة في عصريهما، وبالنتائج التي ترتبت على انهيارهما وتشتتهما بموروثهم التجاري المميز، الاولى داخل الجزيرة العربية والثانية داخل اوروبا.

لقد اصبح الشتات، كما يقول ابرهام ليون [٢٠]: أهم شروط التجارة اليهودية، و لم تكن التجارة سبباً للشتات. فالفترة المكابية، ازدهرت، اثناء الصراع بين البطالسة والسلوقيين، ليس لأسباب دينية بل لحاجة الطرفين المتحاربين الى الدور التجاري لليهود.

وخلال الفترة البابلية، يقول جورج ماكاي[٢١] "هناك اسباب للقول بأن التجار والمرابين كانوا في الاسباط اليهودية الفئة الأكثر نفوذاً اقتصادياً، فالنصوص المكتوبة، بالحروف المسمارية المكتشفة تشهد على أن النازحين اليهود قد اشتركوا اشتراكاً نشيطاً في الحياة التجارية ومارسوا عملية التسليف بالربا، شأن بقية التجار في بابل، مما يفسر التجاوب المحدود مع دعوة الملك الفارسي كورش لهم بالعودة الى القد س، بعد سقوط بابل تحت سيطرته."

وخلال الحقبة الرومانية تمتع اليهود بفضل مركزهم الاجتماعي، بالحكم الذاتي الواسع، الذي منحهم اياه الاباطرة الرومان، فسمح لهم من دون غيرهم بتشكيل دولة ضمن دولة، وتمتعوا باستقلال نسبي، بينما كان باقي الغرباء يخضعون لسلطات المدينة وادارتها ومنح القيصر مصالح اليهود في الاسكندرية وروما امتيازات ونعماً خاصة، وحمى عبادتهم تجاه الكهنة الاغريق والرومان."

ويضيف، ايفانوف[٢٢] عن فترة القرون الوسطى، انه حتى هذه المرحلة، انتشرت الاسباط اليهودية في اعمال التجارة.

وفي الواقع كان الاعتقاد المسيحي خلال القرون العشرة الاولى من عصرنا، فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية "انه من الصعب ان يرضى ا لله عن التاجر لأن أية تجارة تحتوي قسطاً لابأس به من الغش." وكانت حياة اليهود بالنسبة للقديس امبرواز (Ambroise)، الذي عاش في القرن الرابع، غريبة جداً، وكان يحتقر ثروات اليهود كثيراً ويعتقد بأن مصيرهم الاكيد هو الهلاك الابدي. فلا يوجد اية غرابة اذن في عداء اليهود الوحشي للكثلكة.[٢٣]

وعندما اصبحت المسيحية ديانة الملاكين الكبار، وعندما انحصرت معاداتها للبلوتقراطية في معادة التجارة والربا، لم تفقد معارضة الطبقات اليهودية المرفهة، بالطبع، شيئاً من حدتها، بل بالعكس، فقد راحت اليهودية تعي اكثر فأكثر دورها الخاص، فبالرغم من انهيار الامبراطورية، لم تقترب التجارة من نهايتها، اذ كانت الطبقات المسيطرة بحاجة دائمة للكماليات الشرقية، وان لعب

اليهود دوراً تجارياً هاماً، في العهـود السـابقة، فقـد أصبحـوا تدريجيـاً، الوسـطاء الوحيدين بين الشرق والغرب. وأصبح اليهودي أكثر فأكثر مرادفا للتاجر.

لقد مكّن انتصـار الاقتصـاد الطبيعـي وانتصـار المسـيحية اذن مـن اتمـام مسيرة الانتقاء التي حولت اليهود الى طبقة تجارية.

ولم يكف وضع اليهود عن التحسن، منذ افـول الامبراطوريـة الرومانيـة بعد الانتصار الكامل للمسيحية، حتى القرن الثاني عشـر، وبانهيـار الاوضـاع الاقتصادية ازدادت اهمية الدور التجاري لليهود، حتى انهم شكلوا في القـرن العاشر، الرباط الاقتصادي الوحيد بين اوروبا وآسيا.

ولعب اليهود، خلال قرون طويلة، دور الوسطاء التجاريين الوحيديـن بـين الشـرق والغـرب، وتوطـد مركـز الحيـاة اليهوديـة تدريجيـاً في اسـبانيا وفرنسـا، ويتحدث ابن خرداذبه (القرن التاسع)، وهو صاحب البريد العربي، في كتابه عـن مسالك اليهود الرضـاميين قـائلاً: بـأنهم "يتكلمـون الفارسـية والرومانيـة والعربيـة ولغات فرنكية واسبانية وسلافية وانهم ينتقلون من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب، تارة برا واخرى بحراً، يجلبـون مـن الغـرب النسـاء والعبيـد والصبيـان والحرير والفراء والسيوف، ومن بلاد الفرنك ـ الفرنجة ـ يبحرون في البحر الغربي نحو الفرما، قاصدين السند والهند والصين. وعند عودتهم، يحملون المسـك وعـود الند والكافور والقرفة، ومواد اخرى من البقاع الشرقية، فالبعض منهـم يقلـع نحـو القسطنطينية لبيع البضائع، والبعض الاخر يتجه نحو بلاد الفرنك."

وكان اليهود في العهد الكارولنجي اهم الوسطاء بين الشـرق والغـرب، وقـد هيـأهم لهـذا الـدور وضعهـم المتفـوق في التجـارة، منـذ عهـد انحطـاط الامبراطورية الرومانية، وكانوا يعاملون بالتساوي مع المواطنين الرومان.

وفي الفلاندر، حيث كـان يقطـن اليهـود منـذ غـزوات النورمـان حتـى الحملة الصليبية الاولى كانت التجارة بين ايديهم.

وفي اسبانيا "كانوا يسيطرون كلية علي التجارة الخارجية. وتشمل هذه التجارة جميع غلال البلاد، ومنها النبيذ والزيت والمعادن: كما كانت تصلهم الأقمشة والتوابل من الشرق. وكان الامر كذلك في بلاد الغال".

وكان يهود بولونيا وروسيا الصغرى يقصدون اوروبا الغربية لبيع الرقيق والفراء والملح ولشراء جميع انواع الاقمشة. وورد في مصدر عبراني، من القرن الثاني عشر، ان اليهود كانوا يتاعون كميات كبيرة من اقمشة الفلاندر من الاسواق الرينانية ليقايضوها بالفراء في روسيا. وكانت التجارة اليهودية بين ماينس (Mayence) وكييف "اهم مركز تجاري في السهل الجنوبي" مزدهرة جداً.

ويشهد الرحالة العربي ابراهيم الطرطوشي، ايضا، باتساع التجارة اليهودية بين اوروبا والشرق، وكتب عام ١٩٧٣، عند زيارة له لمدينة ماينس: "انه لرائع ان نجد كميات كبيرة من التوابل المستوردة من الشرق الأقصى، في اقصى الغرب."(٢٤)

وقد استمر هذا الوضع طيلة القرون التالية، وخاصة في اوروبا الشرقية، وحسب الاحصاء الروسي لعام ١٨١٨ كان تقسيمهم الاجتماعي في اوكرانيا ٨٦٪ تجار و١٢٪ حرفيين و٢٪ مزارعين وفي ليتوانيا وروسيا البيضاء ٨٦٪ تجار و١٠٪ حرفيين و١٤٪ مزارعين.(٢٥)

(٤) غياب دولة الارض المركزية.. حضور اليهود المرابي

كان وضع اليهود أفضل دائماً، خاصة بظل انظمة قوية تحافظ على السمة الاقطاعية، ولم يتبلور فيها بعد الوعي القومي حتى بدرجة بدائية، ولعله كان أفضل بكثير في بلدان مثل بولندا ما قبل العام ١٧٩٥، او في الممالك الايبيرية قبل النصف الثاني من القرن الخامس عشر، ولكن في البلدان التي يقضى فيها على الفوضى الاقطاعية، حيث تدخل طبقة النبلاء في شركة مع الملك (ومع شريحة من البرجوازية على الاقل) لحكم الدولة، التي تتخذ مظهرا قومياً، او شكلاً قومياً بدائياً، يتدهور وضع اليهود.(٢٦)

ويضيف شاحاك: "بما ان الفترة الاولى لاقامة اليهود في انجلترا كانت قصيرة، وترافقت مع تطور الملكية الاقطاعية القومية الانجليزية، يصلح هذا البلد كأفضل نموذج للتصور السابق، لقد احضر اليهود الى انجلترا بواسطة ويليام الفاتح، كجزء من طبقة النورمان الحاكمة المتحدثة بالفرنسية، ولأداء واجب اساسي هو تقديم القروض للأسياد الروحيين والزمنيين الذين يعجزون دونها عن سداد ديونهم (التي كانت ثقيلة بصفة خاصة في انجلترا وقتئذ كما كانت تنتزع بطريقة اقصى مما يوجد في اي مملكة اوروبية اخرى)، كان هنري الثاني اكبر حماتهم الملكيين، ورسمت (الماغنا كارتا) بداية انحدارهم، الذي استمر خلال صراع البارونات مع هنري الثالث. وقد ترافق الحل المؤقت لهذا الصراع على يد ادوارد الثاني بتشكيل البرلمان ووضع نظام "عادي" وثابت للضرائب مع طرد اليهود. وبالقدر نفسه، كما ازدهرت وضعية اليهود في فرنسا خلال فترة تكون المقاطعات الاقطاعية ـ القرية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وهبط هبوطاً مريعاً في عهد فيليب الرابع، الوسيم، الذي دعا لأول اجتماع للطبقات العامة لكل فرنسا للحصول على دعمها لمواجهة البابا. ويرتبط الطرد النهائي لليهود من كل فرنسا ارتباطاً وثيقاً مع انشاء النظام الملكي لجباية الضرائب وظهور السمة القومية للنظام الملكي.

يمكن تقديم امثلة مشابهة من بلدان اوروبية اخرى حيث كان اليهود يعيشون في تلك الفترة، ومع الاحتفاظ بوضع اسبانيا المسيحية وبولندا، من أجل مزيد من المعالجة التفصيلية. ونلاحظ اننا نستطيع في ايطاليا، حيث كانت لعديد من دول المدن سلطة جمهورية، ادراك نفس الوضع المذكور. فقد ازدهر اليهود بصفة خاصة في الدول البابوية، وفي مملكتي صقلية ونابولي الاقطاعيتين (حتى تم طردهم بأوامر اسبانية عام ١٥٠٠) وفي الجيوب الاقطاعية في بيدمونت. ولكن في المدن التجارية الكبرى المستقلة مثل فلورنسا كان عددهم ضئيلا ودورهم الاجتماعي هامشياً.[٢٧]

اما على الصعيد الاسلامي، فإن اسبانيا المسلمة تعد افضل الامثلة على ذلك حيث بدأ العصر الذهبي اليهودي الحقيقي هناك (في الشعر العبري، والنحو، والفلسفة.. الخ) مع سقوط الخلافة الاموية هناك، عام ١٠٠٢، وقيام دول الطوائف.

لكن وضع اليهود تدهور نوعاً ما مع قيام نظام المرابطين (١٠٨٦ -١٠٩٠) واصبح محفوفاً بالمخاطر إبّان نظام الموحدين الشعبي القوي (بعد ١١٤٧) عندما نزح اليهود الى الممالك الاسبانية المسيحية، حيث كانت قوة الملوك ما تزال ضعيفة.

وكما حدث في بلدان اوروبية غربية اخرى، ترافق الصعود التدريجي للوعي القوي الملتف حول الملكية، والذي بدأ تحت حكم اسرة تراستمارا، وبعد مسيرة متعثرة بلغ ذروته تحت حكم الملكين الكاثوليكيين فرديناند وايزابيلا، في البداية مع انحدار في وضع اليهود، ثم مع ظهور حركات شعبية وضغوط ضدهم، مما ادى في النهاية الى طردهم.[٢٨]

(٥) ظهور الدولة الحديثة

انحطاط الوظيفة ـ تحرر اليهود

يذكر شاحاك [٢٩]: بمجرد ظهور الدولة الحديثة للوجود فقدت الطائفة اليهودية سلطة معاقبة او تدجين اليهودي الفرد، وتقطعت أواصر أحد أكثر "المجمعات المغلقة" إغلاقاً، وأحد أكثر المجتمعات استبدادا في التاريخ البشري برمته. جاء فعل التحرير هذا، بقسطه الاعظم، من الخارج، بيد ان بعض اليهود قدموا له يد العون من الداخل، وأولئك كانوا في البداية قلة قليلة.

كانت النتائج الاجتماعية لعملية التحرير تعني قدرة اليهودي، للمرة الاولى منذ القرن الثاني للميلاد، أن يفعل ما يشاء في حدود القانون المدني لبلده، دون الاضطرار لدفع ثمن هذه الحرية باعتناق ديانة اخرى. فقد أتيحت

لليهود حرية معرفة وقراءة الكتب باللغات الحديثة، حرية القراءة والكتابة بعبرية لم تحظ بموافقة مسبقة من الحاخامات (كما كان الحال بالنسبة لأي كتاب بالعبرية او البيديشية من قبل)، حرية تناول طعام غير كوشي، وحتى حرية التفكير، لأن "الافكار المحظورة" كانت من بين أبشع المعاصي.

أتيحت كل تلك الحريات ليهود اوروبا (وبالتالي ليهود البلدان الاخرى) من جانب الانظمة الاوروبية الحديثة، وحتى الاستبدادية، رغم ان الاخيرة كانت في نفس الوقت قمعية ومعادية للسامية.

كان نيقولا الاول، قيصر روسيا، لاسامياً ذائع الصيت، وقد اصدر الكثير من القوانين المعادية لليهود، لكنه عزز ايضا عناصر "الامن والنظام" في روسيا، ليس من خلال الشرطة السرية وحسب، ولكن من خلال الشرطة النظامية والحرس الوطني ايضاً، حتى اصبح قتل اليهود بأمر من حاخاماتهم امراً صعباً، بينما كان من السهل القيام بذلك في بولندا ما قبل العام ١٨٩٠، ان التاريخ "الرسمي" اليهودي يدين نيقولا الاول بسبب لاساميته وتعزيزه للنظام. حدث، مثلاً، في اواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر أن أمر "حاخام مقدس" (تساديك) في بلدة يهودية صغيرة بأوكرانيا بقتل يهودي مهرطق، وذلك بإلقائه في الماء المغلي لحمامات البلدة، وبهذا الصدد تبدى المصادر اليهودية المعاصرة ذعراً ودهشة بالغة ليس لأن الرشوة "لم تعد مؤثرة" وحسب، بل لأن الفاعلين وكذلك الرجل المقدس عوقبوا بقسوة ايضاً. كما كان نظام ميترنيخ في النمسا ما قبل العا م ١٨٤٨ رجعياً سيء السمعة، ولا يكّن أدنى مشاعر ودية لليهود لكنه لم يسمح بقتل الناس بالسم، بما في ذلك حاخامات يهود ليبراليين. وخلال عام (١٨٤٨) عندما وهنت قوة النظام مؤقتاً، كان أول ما فعله زعماء الطائفة ا ليهودية في مدينة لمبرغ الغاليسية (تدعي الآن لفوف) بحريتهم المكتسبة حديثاً قتل حاخام المدينة الليبرالي بالسم، ذلك الحاخام الذي استوردته مجموعة صغيرة من اليهود غير الارثوذكس من ألمانيا ليشرف على شؤونها الدينية، وبالمناسبة كانت إحدى أخطر هرطقاته إجراء احتفال الميتسفاه، المبتدع حديثاً في ذلك الوقت.

النموذج البولندي

بعد الهجرة اليهودية الى اوروبا الشرقية أصبحت بولونيا الملجأ الرئيسي لهذه الهجرة حتى سميت بالمملكة اليهودية.

فمع تدهور النظام الملكي في القرن السادس عشر ـ خاصة في عهد سيغموند الاول، العجوز (١٥٠٦-١٥٤٨) وابنه اغسطس (١٥٤٨ـ١٥٧٢) حقق اليهود في بولندا مكانة اجتماعية وسياسية مرموقة، ومصحوبة، كالعادة، بدرجة أكبر من الاستقلال في ادارة شؤونهم الذاتية، في ذلك الوقت بالذات نال اليهود اهم امتيازاتهم التي بلغت ذروتها مع تأسيس "لجنة المقاطعات الاربع" وهي هيئة يهودية للإدارة الذاتية فعالة جدا للحكم والتشريع بالنسبة لجميع اليهود في المقاطعات البولندية الاربع، وقد كانت احدى وظائفها الهامة جمع الضرائب من اليهود، مع الاحتفاظ بجزء منها لمائدتها والطوائف اليهودية المحلية، وتقديم الباقي لخزينة الدولة.

عمل كثير من اليهود خارج المدن، خاصة في المناطق الشرقية كمراقبين مباشرين ومضطهدين للفلاحين الذين تحولوا الى اقنان ـ نظار عزب (في ايديهم سلطة صاحب الاراض القسرية) ومستأجرين لاحتكارات اقطاعية معينة مثل مطاحن الحبوب، ومعامل تقطير المشروبات الكحولية والحانات (ولديهم حق التفتيش بقوة السلاح في بيوت الفلاحين بحثاً عن المعادين للاقطاعية).

باختصار، كان اليهود في بولندا الشرقية في عهد النبلاء (والكنيسة التابعة للاقطاع والمكونة كلياً من النبلاء) بمثابة المستغلين المباشرين للفلاحين، كما كانوا يمثلون الغالبية العظمى من سكان المدن. فعلى إثر تدهور السلطة الملكية، استولى النبلاء بسرعة على دور الملك المعتاد في العلاقة مع اليهود، مما اسفر عن نتائج دائمة ومأساوية لليهود انفسهم والناس العاديين في بولندا. لقد استخدم النبلاء اليهود بطول بولندا وعرضها وكلاء لهم من اجل زعزعة السلطة المالية للمدن الملكية، التي كانت ضعيفة بأي حال من الاحوال، ومن بين جميع دول المسيحية الغربية، في بولندا فقط، كانت أملاك النبيل ـ داخل المدن الملكية ـ

معفاة من قوانين المدنية وقوانين النقابات الصناعية والتجارية، وفي اغلب الاحيان، نصب النبلاء وكلائهم اليهود للاشراف على أملاكهم، مما تسبب بصراع دائم، كان اليهودي يخرج "منتصراً" دائماً، بمعنى ان المدينة لا تستطيع اخضاعه لقوانينها او طرده منها، ولكن في الاضطرابات الشعبية كانوا يفتشون عن مغانم - وكوكلاء تجاريين للنبلاء - للاعفاء من معظم المكوس والتعريفات البولندية، على حساب خسارة البرجوازية المحلية.[٣٠]

(٦) استنتاج، التواطؤ اليهودي - الاقطاعي

اتسمت مرحلة المركزين في فلسطين وبلاد الرافدين، منذ "العودة الاولى من بابل" (٥٣٧ ق.م.) حتى حوالي "٥٠٠م" بوجود مركزين يهوديين يتمتعان بإدارة ذاتية، ويقوم كلاهما على الوظيفة التقليدية، وعلى هذين المركزين فرضت "الديانة اليهودية" التي فصلت بعناية بالغة في اوساط الكهنة والكتاب من قبل، وتم فرضها بقوة وسلطة الامبراطورية الفارسية.

ان سفر عزرا في العهد القديم يحتوي على عرض لنشاطات عزرا الكاهن "الكاتب الماهر في شريعة موسى" الذي اعطاه ارتحشستا الاول ملك فارس، سلطة "وضع حكام وقضاة" على اليهود في فلسطين "وكل من لا يعمل شريعة ا لهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلاً إما بالموت، او بالنفي، او بغرامة المال، اوبالحبس."

وفي سفر نحميا - ساقي الملك ارتحشستا الذي عين حاكماً فارسياً على يهودا بسلطات اكبر من سلطات عزرا - نكتشف الى أي حد كان الإكراه الاجنبي (سنقول بتعبيرات هذه الايام "الامبريالي" مفيدا في فرض الديانة اليهودية، مما اسفر عن نتائج لا تزول.

استمر الحكم الذاتي اليهودي في كل المركزين خلال معظم الفترة المذكورة، قمعت جميع الانحرافات عن الارثوذكسية الدينية، وقد وقعت استثناءات لهذه القاعدة عندما أصيبت الارستقراطية الدينية نفسها "بعدوى"

الافكار الهيلينية (من ٣٠٠ حتى ١٦٦ ق.م ومرة اخرى تحت حكم هيرود الاكبر وورثته من ٥٠ حتى ٧٠م) او عندما تعرضت للانشقاق كردة فعل لتطورات جديدة (على سبيل المثال، الانقسام بين الحزبين الكبيرين الفريسيين والصدوقيين، الذي وقع حوالي ١٤٠ ق.م).

رغم ذلك، بمجرد أن تمكن احد الفريقين من النجاح، استخدم آلية الاكراه الكامنة في مجتمع الحكم الذاتي اليهودي لفرض أفكاره الدينية على كافة اليهود في المركزين.(٣١)

وخلال معظم ذلك الوقت، خاصة بعد انهيار الامبراطورية الفارسية، وحتى حوالي ٢٠٠ م كان اليهود خارج المركزين بمنجاة من سلطة الاكراه الدينية اليهودية. ومن بين اوراق البردى المحفوظة في الفترتين (في مصر العليا) هناك رسالة يرجع تاريخها الى٤١٩ ق.م تحتوي على مرسوم من الملك داريوس الثاني الفارسي، يأمر يهود مصر بضرورة احترام عيد الفصح. لكن الممالك الهيلينية والجمهورية الرومانية، والامبراطورية الرومانية المبكرة لم تكلف نفسها عناء الاهتمام بمثل هذه الامور.

اما الوضع اليهودي في الامبراطورية الرومانية فقد كان على النحو التالي:(٣٢) بطريرك يهودي وراثي (يقيم في طبريا بفلسطين) معترف به كأحد الاعيان الكبار في سلم الوظائف الرسمية للامبراطورية، وكمسؤول أعلى لكافة اليهود في الامبراطورية. أما من ناحية منصبه كموظف روماني، فقد كان البطريرك في الواقع منتمياً لنفس الطبقة الرسمية العليا التي تضم القناصل، وكبار القادة العسكريين للامبراطورية، وكبار المحيطين بالعرش (المجمع المقدس) ولا تعلوه من حيث الاهمية سوى الاسرة الامبراطورية.

كان البطريرك اللامع (كما كان يجري وصفه دائماً في المراسم الامبراطورية) أعلى رتبة، في الواقع، من حاكم مقاطعة فلسطين، وقد أُعدم الامبراطور ثيودوسيوس الاكبر، وهو مسيحي ارثوذكسي شديد التقوى، حاكم فلسطين لأنه أهان البطريرك.

في نفس الوقت، كان جميع الحاخامات ـ الذين يعينهم البطريرك بنفسه ـ لا يدفعون معظم الضرائب الرومانية الباهظة، ويحظون بالكثير من الامتيازات الرسمية كالاعفاء من الخدمة في مجالس المدن (من أوائل الامتيازات التي منحت لرجال الدين المسيحيين في وقت لاحق) علاوة على ذلك، كانت للبطريرك سلطة فرض الضرائب على اليهود، وحفظ الامن بينهم بفرض الغرامات والجلد، واشكال اخرى من العقاب، وقد استخدم البطريرك هذه السلطة لقمع الهراطقة اليهود، وكما نعرف من التلمود لمعاقبة الوعاظ اليهود الذين يتهمونه بفرض الضرائب على اليهود الفقراء لفائدته الشخصية.

وكان للطوائف اليهودية منذ عهد الامبراطورية الرومانية المتأخرة سلطة قضائية كبرى على افرادها، سلطة لا تستمد من خلال تعبئة الضغط الاجتماعي الطوعي وحسب (علي سبيل المثال: رفض التعامل بأي شكل من الأشكال مع يهودي محروم دينياً او حتى دفن جثته) بل ومن القمع السافر ايضاً" سلطة تجلد، وتسجن،وتطرد. وقد كان من الممكن ايقاع كل تلك العقوبات، بصفة شرعية تماماً، بحق اليهودي الفرد، من جانب المحاكم الحاخا مية المختصة بكل أنواع الجنايات. وفي بلدان كثيرة (اسبانيا وبولندا مثلان بارزان) كان من الممكن الحكم حتى بعقوبة الاعدام، وقد صدر الحكم بها، أحياناً، باستخدام طرق وحشية مثل الجلد حتى الموت.

لم يسمح بكل تلك الممارسات وحسب، بل لقيت المباركة ايضا من جانب سلطات الدولة في البلدان المسيحية والاسلامية، التي الى جانب حرصها علي حفظ الامن "الامن والنظام" كانت لها في بعض الاحيان مصالح مالية مباشرة ايضاً.

في اسبانيا تشير المحفوظات الاسبانية العائد تاريخها الي القرنين الثالث عشر والرابع عشر من الاوامر الصادة عن ملوك قشتالة واراغون الكاثوليك الورعين تعلم موظفهم الذين لا يقلون عنهم ورعا، بالتعاون مع الحاخامات في مراعاة احترام السبت من جانب اليهود.لماذا؟ لأن الحاخامات عندما

يغرمون يهودياً انتهك حرمة السبت، عليهم تسليم تسعة اعشار الغرامة للملك، فهذه اتفاقية مريحة جدا وشديدة الفعالية .

كان وضع اليهود في الممالك المسيحية الاسبانية اعلى مما بلغوه في اي بلد آخر (ما عدا بعض دول الطوائف وتحت حكم الفاطميين) قبل القرن التاسع عشر وقد عمل عديد منهم بصفة رسمية وزراء للمال لدى ملوك قشتالة وجباة عامين واقليميين للضرائب، وديلوماسيين للمال لدى الملوك الاجانب المسيحيين والمسلمين حتى خارج اسبانيا) واعضاء في الحاشية ومستشارين للحكام وكبار النبلاء، و لم تحظ الطائفة اليهودية في أي بلد آخر ما عدا بولندا، بسلطات هائلة على اليهود، تستخدمها علانية وعلى نطاق واسع، بما في ذلك سلطة الحكم بالاعدام، كما كان الشأن في اسبانيا. ومنذ القرن الحادي عشر، كان اضطهاد القرائين (فرقة يهودية مهرطقة) وجلدهم حتى الموت، اذا لم يتوبوا، ممارسة شائعة في قشتالة، كما كانت تجدع أنوف النسوة اليهوديات اللاتي يمارسن الجنس مع رجال من الاغيار على يد حاخامات يفسرون انه "بهذه الطريقة تفقد المرأة جمالها مما يرغم عشيقها غير اليهودي على كراهيتها". وكذلك تقطع أيدي اليهود الذين تبلغ بهم الوقاحة حد مهاجمة قاض يهودي وكان الزناة يسجنون بعد التشهير بهم في الحي اليهودي، وفي النزاعات الدينية كانت تقطع ألسنة الذين يعتقد بأنهم من المهرطقين.

اما في الاطار الاسلامي التاريخي فيقول شاحاك: "من المؤكد ان شخصية صلاح الدين، في سياق الفترة التي عاش فيها، تستوجب الاحترام العميق، ومع هذا الاحترام لا انسى من جانبي ان الإمتيازات التي منحها للطائفة اليهودية في مصر، واختياره لابن ميمون رئيساً لها (نفيد) قد أدى على الفور لاضطهادات دينية حادة للعصاة اليهود على يد الحاخامات . فعلى سبيل المثال، على اليهود (الذين يفترض بأنهم ينحدرون من أصلاب الكهنة القدامى الذين خدموا الهيكل) بسبب ليس فقط الزواج من العاهرات، بل ومن المطلقات أيضاً. وقد انتهك هذا الحظر الاخير، الذي طالما سبب المشاكل

خلال فترة الفوضى في عهد اواخر الحكـام الفـاطميين (حوالي ١١٣٠–١١٨٠) من جانب اولئك "الكهنة" الذين خلافاً للشريعة الدينية اليهودية تزوجوا من مطلقات يهوديات على يد قضاة في محاكم اسلامية (وهي مخولة اسميا لتزويج غير المسلمين) وقد أتاح التسامح الكبير، الذي أبداه صلاح الدين تجاه "اليهود" عند توليه الحكم، لابن ميمون اصدار أوامر للمحاكم الحاخامية في مصر لالقاء القبض على جميع اليهود، الذين تزوجوا زيجات محظورة كهذه، وجلدهم حتى "الموافقة" على تطليق زوجاتهم.

بالقدر نفسه، كانت سلطة المحاكم الحاخامية في الامبراطورية العثمانية قوية جدا، وبالتالي بالغة القسرة.

حقيقة الموقف الفلاحي الشعبي من اليهود وأسبابه

كلما أصبح الربا موضع اهتمام اليهود الرئيسي، توترت علاقاتهم باطراد مع الجماهير الشعبية، وكانت تلك العلاقات تتأزم باستمرار. ولم تكن حاجات الرفاهية لتدفع الفلاح او الحرفي للاستقراض من المرابي اليهودي، بل كان البؤس المدقع، فكان الفلاحون يرهنون ادوات العمل الضرورية، من اجل تأمين رزقهم. هكذا يمكننا تفهم الحقد الذي أبداه الانسان العادي تجاه اليهود، اذ كان يرى فيهم سبب افقاره المباشر؛ هذا بدون رؤية الامبراطور أو الامير او البرجوازي الغني ممن كانوا يثرون بفضل الربا اليهودي. وفي المانيا، اتخذ الربا اليهودي شكله الاكثر "شعبية" ولا سيما في القرنين الرابع والخامس عشر، مما ادى الى ظهور الحقد ضد اليهود والى المجازر والى "حرائق" اليهود.و"علينا ان نعتبر الاضطهادات ضد اليهود، خلال العصور الوسطى، والتي كانت ترمي، بشكل رئيسي، الى ابادة الخونة، اشكالاً بدائية لما نسميه الان بالثورة الاجتماعية."[٣٣]

وهو ما يفسر اسباب التعرض الشعبي الفلاحي لليهود في كل مرة يثور فيها الفلاحون ضد اسيادهم .

يقول شاحاك:[٣٤] "ان الثقل الكامل للشـرائع اليهودية الدينية المعادية للأغيار كان يقع، ما عدا فترات الهبات الفلاحية، على كواهل الفلاحين. وكانت تلك الشرائع تعلق او تتعرض للتخفيف في الحالات التي يخشى منها اثارة عداء ضد اليهود، ولكن كان بالامكان دائما تجاهل عداء الفلاحين طالما كان اليهودي ينعم "بسلام" سيد كبير.

وبسبب هذه الامتيازات التي كان اليهود يحظون بها بسبب رشوة النخب الاجتماعية الحاكمة كان الفلاحون يوجهون انتقاداتهم ونقمتهم ضد اصحاب هذه الامتيازات وليس ضد اليهود كيهود.

وقد حصلت اولى الفتن المهمة ضد اليهود بين اعوام ١٣٣٦و ١٣٣٨ بقيادة الخمار سيمبرلن "ملك الفقراء" فامتدت من الالزاس الى بافاريا والنمسا وبوهيميا، لكن خلال سنوات "الموت الاسود". اي ما بين اعوام ١٣٤٨ و١٣٥٠، أحدث التعب المقرون بالحقد، أضراراً رهيبة. "ففي ستراسبورغ بشرت الجمعيات الحرفية بافناء اليهود، لكن مجلس المدينة المؤلف، في غالبيته من الطبقات العليا التي كانت تجني فوائد مرتفعة من الربا، رفض الموافقة على ذلك. وخطب بعض البرجوازيين لصالح اليهود؛ لكن الجمعيات الحرفية لم تتخل عن المطالب الموجهة ضد اليهود. وفي نهاية الامر، أرجئت القضية الى مؤتمر سينعقد عام ١٣٤٣، يشترك فيه مندوبون عن الكنيسة والنبلاء والمدن، "أما الكنيسة والفرسان، فقد ايدوا مطالب الجمعيات الحرفية، رغبة منهم في التخلص من الديون." مما أدى الى الاعلان بأن اليهود خارجون على القانون "واشتعلت حرائق اليهود في انحاء الالزاس."[٣٥]

ومثل ذلك ما حدث خلال موجة الغزوات الصليبية الاولى حين تحرش الفلاحون والعوام بقيادة بطرس الناسك، باليهود وسط التزام الجيوش النظامية بالحياد وأحيانا الدفاع عن اليهود.[٣٦]

كما ان مذبحة اليهود الكبرى خلال ثورة خميلينكي في اوكرانيا عام ١٦٤٨ بدأت كتمرد للضباط القوزاق انضم اليه الاقنان المسحوقين ضد

سادتهم الكاثوليك البولنديين ووكلائهم اليهود.وبالتالي فإنها لم تستهدف اليهود بحد ذاتهم بل دورهم الاجتماعي التجاري ـ الربوي.

وفي كل المرات التي تعرض فيها اليهود للاضطهاد، كانت النخب اليهودية في مأمن من ذلك بتحالفها مع الانظمة الحاكمة.

هوامش الفصل الاول:

١ ـ سيد القمني، اسرائيل ـ التوراة ـ التاريخ، مؤسسة عيبال، نيقوسيا، ط١، ١٩٩٤، ص٢١.
٢ ـ سيد القمني، قصة الخلق، دار كنعان، دمشق، ١٩٩٤، ص ٩٨.
٣ ـ المصدر السابق، ص ١٢٤.
٤ ـ المصدر السابق، ص ٢٨.
٥ ـ المصدر السابق، ص ١٢٨.
٦ ـ المصدر السابق، ص ١٣٥/ ١٣٦.
٧ ـ اسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٩٠/٩٨.
٨ ـ المصدر السابق، ص ٨٨/٨٩.
٩ ـ ابراهام ليون، المفهوم المادي للمسألة اليهودية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٧٧/١٧٩/١٩١.
١٠ ـ الاب فوتيوس خليل، رسائل حضارية في مواجهة اليهودية، دار العربي للنشر، دمشق، ١٩٩١، ص٤٥.
١١ ـ القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص ١٢٦.
١٢ ـ على الشوك، جولة في اقاليم اللغة والاسطورة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٤، ص ٣٦.
١٣ ـ ليون، مصدر سابق، ص ١٥٤/١٥٦.
١٤ ـ المصدر السابق، ص ١٧٥.
١٥ ـ المصدر السابق، ٢١/٥٩.
١٦ ـ المصدر السابق، ٢٠/٢٢.
١٧ ـ فرويد، موسى والتوحيد، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٦٠.
١٨ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص ٢٧.
١٩ ـ ليون، مصدر سابق، ص ١٨/١٩/٣٢/٤٩.
٢٠ ـ ليون، مصدر سابق، ص ١٨١.

٢١ ـ جورج ماكاي، اسرائيل والصهيونية، ص ١٠.
٢٢ ـ يوري ايفانوف، احذروا الصهيونية، دار التقدم، موسكو، ١٩٩١، ص ١٨/١٩.
٢٣ ـ ليون، مصدر سابق، ص ٢٠/٤٨/٢١.
٢٤ ـ ليون، مصدر سابق، ص ٥٠.
٢٥ ـ ليون، مصدر سابق، ص ٩١.
٢٦ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص ٩٥/٦٥.
٢٧ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص ١٧.
٢٨ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص ٩٨/١٠٤.
٢٩ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص ١٨/٢٠/٢١.
٣٠ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص ١٠٦/١٠٧.
٣١ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص ٨٤/٨٥.
٣٢ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص ٩٢/١٦/١٧/١٠٢/١٠٣.
٣٣ ـ ليون، مصدر سابق، ص٧٧.
٣٤ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص ١٠٩.
٣٥ ـ ليون، مصدر سابق، ص ٧٧.
٣٦ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص ١١٣.

الفصل الثاني

ظهور المسألة اليهودية للمرة الأولى...

١ ـ الرأسمالية تدحر الوظيفة

دحض نظرية سومبارت

يرد ابراهام ليون ظهور المسألة اليهودية للمرة الأولى في أوروبا الغربية لانبثاق الرأسمالية هناك وتحول التاجر اليهود إلى مرابي واستكمال الوظيفة اليهودية التاريخية لنفسها إبتداءا من القرن الثاني عشر.[١]

كما يرد ايفانوف وضع اليهود في أوروبا خلال هذه الفترة نقلا عن كتاب (تاريخ القرون الوسطى) الصادر عن جامعة كمبردج إلى حرمان الكنيسة المسيحية تسليف المال بالربا، فلم يكن بوسع القوانين التي صدرت ضد الربا، الا أن تساعد على انتقال هذه الحرفة إلى أيدي أولئك الذين لم يمنعهم الدين من مثل هذا النوع من النشاط، أي إلى أيدي اليهود.[٢]

وهو الوضع الذي تكرس خلال الفترة الثانية من تاريخ العصور الوسطى الأوروبية فقد شهدت تحول اقتصاد العصور الوسطى إلى اقتصاد تبادلي وبداية ظهور البرجوازية المحلية في بلدان أوروبا ومن ثم إلى سحق المراكز اليهودية في التجارة وإحلال تجار مسيحيين محل التجار اليهود. واصطدمت هذه الطبقة التجارية المحلية بعنف باليهود القابضين على المراكز الاقتصادية.[٣]

ونظراً لأن قادة الجماعات اليهودية لم يتمكنوا من الدخول في عضوية نقابات التجار المسيحية ذات النظام الأبوي، ولكونهم فقدوا وضعهم

الاحتكاري في التجارة، فقد تحولوا إلى مرابين يقدمون القروض للأرستقراطية والطبقة الحاكمة في المقام الأول.

فقد كانت اجراءات التمييز تصيب حتى اولئك اليهود الذين اعتنقوا المسيحية بهدف حماية مواقعهم الاقتصادية في نهاية المطاف، وهكذا أرغم يهود اسبانيا على ممارسة الربا الذي كان يعتبر عملا ثانويا، واضطروا في الاماكن التي حرم بها الربا على العيش من خلال تجارة المتجول وجمع الخرق والاشياء العتيقة.(٤)

هكذا، ومع تطور الاقتصاد التبادلي في أوروبا ومع نمو المدن الصناعية البرجوازية ذات الطابع القومي، أقصي اليهود تدريجياً عن المراكز الاقتصادية التي كانوا يشغلونها، ورافق هذا الاقصاء صراع وحشي قامت به طبقة التجار المحلية ضد اليهود، وفتحت الحروب الصليبية التي عبرت عن ارادة المدن التجارية في شق طريقها نحو الشرق الفرصة لهذه المدن للقيام باضطهادات عنيفة ومذابح ضد اليهود ابتداء باجراء ات العزل التي اتخذت ضدهم مثل الشارة الصفراء وغطاء الرأس المخروطي، مسبغة صفة الديمومة على سيطرة الكنيس الروحية المطلقة على اعضاء الجماعة، مرورا بعمليات الطرد الجماعي كما فعل الملك ادوارد الأول في بريطانيا، وانتهاء بهجرة اليهود أنفسهم من أوروبا الغربية من أجل إعادة انتاج وظيفتهم الاقتصادية في المجتمعات الاقطاعية التي لا ينافسهم فيها أحد، وهو يفسر عدم ذهابهم إلى فلسطين والمناطق الإسلامية التي كانت مفتوحة لهم، وتوجههم إلى أوروبا الشرقية وخاصة ليتوانيا وشرقي بولونيا، حيث أصبح اليهود قوة لا يستغنى عنها في التجارة والصناعة اليدوية وسط ظروف الاقتصاد الاقطاعي وهو مايؤكد أيضاً هشاشة نظرية سومبارت عن دور اليهود في تطوير الرأسمالية، فيما يعيد ليون التناقض بين التجارة المسيحية والتجارة اليهودية إلى تعارض بين نظامين، هما نظام الاقتصاد الطبيعي والاقتصاد التبادلي.(٥)

فهناك فرق أساسي بين المرابي والمصرفي، فالمرابي مثّل عنصر الاقراض في العهد الاقطاعي الذي كان يتلاشى، والمصرفي مثّل عنصر الاقراض في عهد

الاقتصاد التبادلي الذي يتقدم كما (تختلف "الرأسمالية" اليهودية عن الرأسمالية بمعناها العلمي، أي أنها ـ أي الرأسمالية "اليهودية" ـ لاتنطوي على اسلوب انتاج جديد، فللرأسمال التجاري ـ كما يقول ماركس في رأس المال ـ وجود مميز ومنفصل بوضوح عن فروع الانتاج، التي يعمل كوسيط لها"، و"كانت الشعوب التي مارست التجارة في العصر القديم كآلهة ابيقور في احشاء الأرض، أو بالاحرى كاليهود في مسام المجتمع البولوني"، و"يستخدم الربا والتجارة اسلوباً معيناً من الانتاج. لا يخلقانه بل يبقيان غريبين عنه."

(فلم تتراكم النقود بين أيدي اليهود بفضل اسلوب انتاجي معين، أي من الانتاج الرأسمالي، وتأتي فائض القيمة (أو فائض الانتاج) من الاستغلال الاقطاعي، وكان الأسياد مجبرين على التخلي عن جزء من فائض القيمة هذه لليهود. من هنا نشأ الخلاف بين اليهود والاقطاع، وللسبب نفسه وجد الرباط العضوي بينهما. ومثّل الاقطاع بالنسبة لليهودي. كما للسيد، مصدراً إنتاجياً مهماً، وكان السيد بحاجة لليهودي، ولم يكن هذا الاخير بغنى عن السيد. فبسبب ذلك الوضع الاجتماعي، لم يتمكن اليهودي من الوصول إلى مصاف الطبقة المسيطرة. ولا يمكن ان تلعب الطبقة التجارية، في الاقتصاد الاقطاعي، الا دوراً تابعاً.[٦]

وهكذا، وكما كان الربا جزءاً من آلية المجتمع الاقطاعي، كان الربا في الوقت نفسه يزعزع النظام الاقطاعي شيئاً فشيئاً ويفلس كافة طبقات الشعب، وبدون ان يُدخل اقتصاداً جديداً، عوضاً عن القديم. وهو يتميز عن الرأسمال بكونه محافظاً. "للربا والتجارة نمط انتاجي معين، لا يولدانه، بل يبقيان خارجه، ويحاول الربا الابقاء على ذلك الوضع، حتى يتسنى له الاستمرار في الاستغلال... ويكدس الربا الاموال، حيثما تكون وسائل الانتاج مبعثرة. إنه لا يغير نمط الانتاج، لكنه يتعلق به كطفيلي "إنه ينهكه ويضايقه ويجعل ظروف الانتاج أكثر بؤساً ... إن الربا يستغل. لكنه لا ينتج كرأسمال"، وبالرغم من هذا المفعول المدمر، يبقى الربا ضرورياً في الانظمة الاقتصادية المتخلفة، لكنه يؤدي إلى الجمود الاقتصادي، وهذا ما نلاحظه في عدة بلدان آسيوية.

وتعود صعوبة احتمال الربا في أوروبا الغربية إلى كونه يتنافى مع الاشكال الاقتصادية الجديدة. فقد دخل الاقتصاد التبادلي الحياة الريفية، وأدى النمو الصناعي والتجاري، في المدن، إلى تراجع الاسلوب الاقطاعي القديم في الارياف وانفتاح سوق فسيحة امام المنتجات الزراعية، مما أدى إلى تراجع ملموس في اشكال القنانة وفي الضرائب والمستندة إلى الاقتصاد الطبيعي. فكان الاحتكار التجاري اليهودي من اكبر الحواجز التي اعترضت البرجوازية الناشئة. وكان شرط تطورها يكمن في تهديم التسلط التجاري اليهودي.

ولا يتعلق الامر بصراع بين مجموعتين قوميتين أو دينيتين من أجل السيطرة التجارية، بل بصراع بين طبقتين، تمثل كل منهما نظاماً اقتصادياً مختلفاً. وليست المنافسة هنا ـ التي يقال عنها قومية ـ الا انعكاساً للمرحلة الانتقالية من الاقتصاد الاقطاعي إلى الاقتصاد التبادلي. كان اليهود يسيطرون على التجارة في العهد "الذي كان فيه الملاكون الكبار يبتاعون المصنوعات الدقيقة والمواد الكمالية بسعر مرتفع. مقابل كميات كبيرة من المواد الخام المنتجة في أراضيهم." ووضع التطور الصناعي في أوروبا الغربية حداً لاحتكاراتهم. وانتصب التجار المحليون، في صراعهم ضد اليهود، ضد وظيفة اقتصادية بالية، كانت تظهر اكثر فأكثر كاستغلال أجنبي لايطاق.(٧)

٢ـ الايديولوجيا تستضمر الوظيفة

تميزت الايديولوجيا "اليهودية" هذه المرحلة، بنمط جديد من العزلة، ليس العزلة في إطار جيتو داخل الاخر، بل بالبحث عن عزلة جديدة خارجه تماما ... وكانت أوروبا الشرقية الاقطاعية حاضرة كبديل عن أوروبا الرأسمالية.

وعبرت هذا الايديولوجا عن نفسها بالاعلان عن صعوبة العيش والاندماج مع الاخرين واستحضار مذابحهم ضد اليهود، وكان سفر أيوب أكثر النصوص توارتية ملائمة لهذه الايديولوجيا. وهو السفر الذي يعود، بدوره إلى نصين بابليين، ترافقا في حينه مع هزيمة قوى اجتماعية محدودة، وجدت تعبيرها في نصين

يحملان الآخر مسؤولية هذه الهزيمة، باعتباره ناكراً وجاحداً، وغير حرى بالخدمة والاندماج في صفوفه. في النص الأول، يواسي المعذب الفاضل نفسه بالفكرة ذاتها التي كانت تعتبر ركناً أساسياً في العقيدة الدينية البابلية، بل والرافدية عموماً، وخلاصتها أنه من المستحيل إدراك المغزي الحقيقي للأفعال الإلهية:(٨)

"ومايبدو للمرء جديراً بالثناء، حقير امام الآلهة،

وما لا يروق لقلب المرء، يروق لربه.

أنىّ لإنسان أن يدرك فكر الآلهة في أعماق السماء"

هذا الموقف اللا أدري تجاه الغايات الإلهية، يدفع بصاحبه نحو توجيه كامل اللوم إلى البشر الذين:

"إذا جاعوا فهم كالجثث

وإذا شبعوا نافسوا الآلهة

وإذا إعتدلت أمورهم ثرثروا بالصعود إلى السماء

وإذا إضطربت، تفكروا بالنزول إلى الجحيم."

أما النص الثاني فإنه يواجهنا بميل واضح نحو الإحتجاج، وهذا النص هو الآخر عبارة عن قصيدة تعرف بـ "الإلهيات البابلية" أو "حوار بين صديقين".

تعتمد هذه القصيدة أسلوب الحوار بين الشخص المتألم وصديقه، ومن خلال هذا الحوار يبث الأول شكواه إلى صديقه، ويقدم وجهة نظره حول العديد من المسائل، في حين أن الثاني يقدم من جانبه النصائح إلى صديقه المتألم، ويطلب منه ان يتخلى عن رؤيته السوداوية إلى الأمور، إلا أن متابعة الحوار بين الصديقين تبين أن موقف المتألم هو الأقوى.

تبدأ القصيدة بالحديث الذي يوجهه الشخص المتألم إلى صديقه، ويعبر من خلاله عن تقديره لحكمته:

١- "أيها الحكيم تعال دعني اخبرك

٥- أين الشخص الحكيم الذي هو من نوعيتك؟

٦- أين هو الأستاذ الذي يتنافس وإياك؟

٧ـ أين هو المستشار الذي أفضي له بحزني."

ثم يتشعب الحوار بين الصديقين، فيسأل المتألم عن إمكانية إستمرارية الحياة السعيدة:

٢٩ ـ "قوتي أضعفت، رفاهيتي إنتهت

٣٠ ـ الأنين والأسى سوّدا قسماتي

٣١ ـ أما ذرة حقولي فإنها بعيدة من إرضائي.

٣٢ ـ وأما نبيذي، الذي هو حياة البشر، فإنه قليل جداً من أجل الشبع

٣٣ ـ هل يمكن ضمان حياة رافهة؟ بودي لوعرفت سبيلها."

ويبدو أن الصديق يدعو المتألم من أجل ذلك إلى التمسك بإطاعة الآلهة، لكن هذا الرأي لاتقابله إستجابة تامة من قبل المتألم فيرد على صديقه قائلا:

٤٥ ـ "أنا أنحني إليك يارفيقي، أنا أستوعب حكمتك

٥٠ ـ الأسد المتوحش الذي نهش أحسن لحم مختار

٥١ ـ هل جاء بنذره من الطحين حتى يهدئ من غضب الآلهة؟

٥٢ "..." مستحدث النعمة الذي ضاعف ثروته

٥٣ ـ هل هو يوزن ذهبا ثمينا من أجل الإلهة "مامي Mami "

٥٤ ـ "هل أنني" عطلت نذوراً؟ أنني كنت قد صليت إلهي.

٥٥ ـ "لقد" لفظت التبريك على الأضحيات الإعتيادية للألهة...."

ويجيبه صديقه قائلاً:

٥٦ ـ "أيها النخلة، شجرة الثراء، أخي الثمين

٥٧ ـ الذي أسبغ عليه بجميع الحكمة، جوهرة من "الذهب"

٥٨ ـ أنك مكين كالأرض، لكن خطة الآلهة بعيدة."

وهو بقوله هذا يبغي إقناع المتألم بأن الآلهة تدرك مالايدركه البشر، وأن المفارقات التي قد يجدها هنا وهناك، إنما يكون باعثها حكمة إلهية لاتدرك ماهيتها؛ غير أن المتألم يظهر لصديقه عدم إقتناعه بما ينصحه به، ويعبر لـه عن شكه في جدوى عبادة الآلهة:

"٦٧ ـ إن دماغك هو ريح الشمال، النسيم العليل

٦٨ ـ أيها الصديق المختار، إن نصيحتك جميلة

٧٩ ـ أريد أن أضع أمامك كلمة واحدة فقط

٧٠ ـ أولئك الذين يهملون الإله يسيرون في طريق الرفاهية

٧١ ـ بينما أولئك الذين يصلون فإنهم يصبحون فقراء ويجردون من أملاكهم."

ولا يكتفي المتألم بذلك فحسب، بل يعلن بوضوح عن نيته في التخلي عن إلهه:

١٣٥ ـ "إنني سوف أتجاهل قوانين إلهي وسوف أدوس على شعائره."

ويستمر الحوار الصريح بين الصديقين، ليصل إلى الموضع الذي يتحدث فيه المتألم بجلاء عن الظلم الإجتماعي، وأهمية القوة في تعزيز موقع الشخص بين الناس:

٢٦٥ـ "إنتبه ياصديقي وأفهم أفكاري

٢٦٦ـ التفت إلى صفوة العبارة من كلماتي

٢٦٧ ـ "فالناس يمجدون كلام الشخص القوي الذي تمرس في القتل،

٢٦٨ـ ولكنهم يهينون "يبخسون" الشخص الضعيف الذي لم يرتكب أي خطأ

٢٦٩ـ وهم يؤيدون الشرير الذي جريمته هي، "......."

٢٧٠ـ ومع ذلك فهم يضيقون على الشخص الشريف الذي يرعى إرادة الإلهة .

٢٧١ ـ إنهم يملؤون "مخازن" الظالم بالذهب.

أما آلية هذا الانبعاث، الذي يبدو كانبعاث من خارج التاريخ فيتم تسويغها، صهيونياً، بالعودة إلى شيلنغ وبرجسون وكيركغارد وماهو رجعي في "الشيء ذاته" عند كنط.

فمع برجسون تتكرس الواحدية الروحية، ومع كنط يـأخذ الانسـان وعـي أسطرته ذاته وبصورة مضادة للثورة الكوبرنيكية كما يقول صـادق العظـم "دورة الإنسان كمعادل للشمس حول الظواهر كمعادل للأرض وليس العكس."(٩)

ومع شيلنغ، اصبح نظام تسلسل الافكار مماثلاً لـلروح، فيمـا عـبر عنـه كيركغارد برد هذا التماثل إلي ما أسماه الجدل الكيفي، وعبرت عنه الداروينيـة الاجتماعية برد التماثل إلى قانون الطبيعة. يقول شيلنغ: "إن قدرة الطبيعة على الخلق، والتي لا تعيها الطبيعة، تبلغ في الإنسـان حالـة وعـي الـذات الجـذري. بمعنى ان المعرفة الفلسـفية للعـالم، حـين تكـون مطابقـة لموضوعهـا، تعـبر عنـه بشكل صحيـح بـالضبط لانهـا ليسـت سـوى الارتفـاع إلى وعـي مـا انتجتـه السيرورات الطبيعية" والموضوعية بصورة غـير واعيـة، لأن وعـي الـذات هـذا ليس هو نفسه سوى النتاج الاعلى لهذه السيرورات الطبيعية."(١٠)

ويرى كيركغادر بشكل ينسجم مع فلسفته أنه " لا يبقـى حقـل لعمـل السماء في تاريخ كوني متصور سيرورة متلاحمة تحكمها قوانين خاصة."(١١)

وهو اذ يزيـل مـن فلسـفته كـل جـدل ويحول المنطـق الجـدلي الى منطـق صوري يصل الى ازالة كل فاعلية انسانية من فلسفته للتاريخ، وتتخذ موضوعيـة التاريخ تحت قلمه طابع جبرية خالصة تفسر تجاوزه لفكرة السيرورة.

امـا كيفيـة تعـين تمـاثل الـذات والموضـوع والجـدل الكيفـي عنـد شـيلنغ وكيركغارد فتنطلق من "الشيء في ذاته عند كنط حيث يقام تعارض بين العقـل الخطابي الذي يوازي الفهـم، وبـين العقـل الحدسـي الـذي يعـادل الذهـني عنـد شيلنغ، وليس كتعارض نسبي بين الفكر في درجتين بل كتعارض مطلق، فيصبح الحدس في مواجهة العقل، وتتشكل الفكرة ليس من العام الى الخاص الى الفردي محمولة بالمفاهيم بل عن طريق الحدس الذهني، حيث يعارض شيلنغ بالحدس كل علم مفهومي.

يقول: "العلم يجب أن يكون علماً حراً بشكل مطلق، بالضبط لأن كل علم غير حر، اي بمفردات اخرى، علماً لا يبلغ ببراهين، باستنتاجات، ولا على العموم بتوسط مفهومي، اذا في الحاصل حدسا ."

فبالعكس، من هيغل، يقرر شيلنغ بين الفهم والعقل تعارضاً صارماً ومطلقاً، فلا انتقالات جدلية ولا وساطات حيث الانتقال وثبة او طفرة تشترط إبادة مقولات الفهم، وحيث الحدس الذهني يقينا لا يمس.

انه محض افتراض أول خالص وبسيط، سابق لكل اشتراط بل ولا يمكن من هذه الحيثية ان يوصف بأنه مسلمة او مصادرة للفلسفة... لذا ليس كذلك موضوع تعليم "فمن الواضح انه ليس شيئاً ما يمكن تعلمه، كل محاولة لتعليمه هي اذا، في فلسفة علمية، بلا جدوى على الاطلاق، ولا يمكن السعي الى إعداد غير الفيلسوف، الامر الذي يفترض دخولاً الى الفلسفة سابقا للفلسفة، عروضا تمهيدية مطبوعة بخاتم مؤقت."(١٢)

ويعلن شيلنغ في اعقاب هذه الانماءات بصدد التعارض بين الحدس والفهم "اننا لا نرى كذلك لماذا يكون من الواجب على الفلسفة ان تحمل مراعاة خاصة او اعتبارا خاصا لغير المهيأ، يجدر ان تقطع جذريا كل السبل التي تقود اليها، تعزل نفسها من جميع الجهات عن العلم الشائع، ان لا يصلها به طريق ولا درب ضيق، ففي نقطة تقع خارجة تبدأ الفلسفة، ومن ليس موجوداً فيها أصلاً او يخشى ان يضع نفسه فيها فليبق على البال أو ليرحل.(١٣)

هكذا ارتبطت فكرة البعث الميتافيزيقي بمحاولة اعادة انتاج فكرتي القبلية والحدس اللاعقلي داخل المشروع الصهيوني وتوظيف هذا الخلط من مفاهيم كنط وفرويد وشيلنغ وبرجسون لضرب فكرة السيرورة والسياق التاريخي الحي واستبدالهما في ضوء المفاهيم السابقة بمعادلات فكرية تنسجم مع ايديولوجيا الوصيد الصهيونية، في تعبيراتها ومظاهرها اللاتاريخية المعروفة: "الاسطورة الحية عند هرتزل"(١٤) و "والقدرة ا لعليا" عند احاد هعام(١٥) وروح ا لله عند ابراهام اسحق كوك.(١٦)

فإلغاء السياق التاريخي يجعل فكرتي الحدس والقبلية تنسجمان مع منطق التوراة الذي يعتبر المعرفة المسبقة هي المعرفة الحقة وما عداها ضربا من الخطيئة:

"أخذ الرب الاله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها، وأوصى الرب الاله ادم قائلاً: من جميع شجرات الجنة تأكل، أما شجرة المعرفة، فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها تموت."

وهو ما يعني ان الحدس ليس مدعواً لتقرير حقيقة اشياء موضوعية بل هو يكفي بذاته لتجاوزالحاضر الحي بالماضي الجمعي العصابي الذي يشكله اللاوعي والمطلقات الصوفية في صورتها الرجعية انطلاقا من الشيء ذاته كمقدس يشكل التعين بالنسبة له دلالة للتعرف على نفسه كمقدس.

يقول العالم اللغوي الصهيوني اليعازر بن يهودا: "يتحرك قلب الانسان بالعاطفة وليس بالعقل لأن قلب الانسان رقيق يمكن التغلب عليه بمثل هذه العاطفة، وهو ما نحتاجه بالضبط."

ويقول موسى هس: "لقد تبين لي ان العاطفة التي ظننت انني قد كبتها عادت الى الحياة من جديد، وهي الآن عاطفة التفكير في قوميتي التي ترتبط برباط لا تنفصم عراه بتراث اسلافي وبالارض المقدسة وبالمدينة الخالدة والتاريخ الذي اهمله العقلانيون كثيراً."(١٧)

وهنا تتجلى الصهيونية الصوفية كفلسفة شفوية مضادة للعقل، بما هي فلسفة الحدس الصوفي.

وحسب بوبر(١٨) "ادى تدمير الجماعة اليهودية الى اضعاف المواجهة الروحية وتوفير صيغة للدين نقي من أي سوء تفاهم، وتمنع اي تأويل مختلف، وتعتمد لذلك نظاماً عقلانياً ثابتاً. فقد حلت اجواء اليهودية الرسمية المتحجرة اكثر فأكثر مكان اجواء الالتزام والابداع المليئة بذكر الله، وبالفعل فقد وقفت اليهودية باطراد ضد كل ما هو مبدع لما رأت به من خطر، من حيث جرأته وتحرره، على استقرار الشعب اليهودي. وهكذا تحولت اليهودية الى دين معاد للحياة الى دين الحرم."

وهكذا أيضاً، برزت الحاجة لنقد تعاليم الاحبار التي جمدتها العقلانية والعودة الى دين الناس المليء بالاخبار الاسطورية والتجليات الصوفية، كما يستنتج هابرماس الذي يوضح ايضا ان هذه الحالة عبرت عن نفسها في ظواهرية هوسرل(١٩) وفي منتدى فينا (لودفيك ويتجنشتاين) والتداعيات اليهودية الصوفية للتحليل الالسني والقائمة على استمالة استخدام اليهودي لغته الخاصة كلغة محكية بسبب طابعها المقدس، الذاكرة بدل الكلام المكتوب.

اما أبرز تعبيراتها، كما يكشف هابرماس فهو "فرانز روزنزويغ Franz Rosenzweig "، وقد عكف روزنزويغ الذي سبق ان ترجم مع صديقه بيوبر التوراة الى الالمانية على البحث في فلسفة الدولة عند هيغل وذلك عندما كان تلميذاً لفريدريش مينيكه Friedrich Meincke . وقد حاول روزنزويغ في كتابه المؤلف من ثلاثة اجزاء، وكما يوحي بذلك عنوانه "نجمة الخلاص" تأويل الفكر المثالي منطلقاً من عمق التصوف اليهودي.

وترد هذه الملاحظة لروزنزويغ، بصيغة اخرى من خلال التعليق الآتي:(٢٠) "اهم ما يميز اليهودية انما حذرها اي تشكيكها العميق بقدرة الكلمات وثقتها الكبيرة بقدرة الصمت."

ولما كان يستحيل على اليهودي استخدام لغته الخاصة كلغة محكية وذلك لطابعها المقدس، فقد أخر الحريات وبسّطها وهي حرية التعبير عن العذاب الذي يعانيه: "مع اخيه في العرق لا يمكنه إذاً ان يتكلم ابداً، ولذلك اصبحت النظرات ابلغ من الكلام... ومن هنا بالضبط يعيش اليهودي حياته اليومية من خلال الانشاءات الكلامية الصامتة، بحميمية اشد مما يعيشها من خلال اللغة المقدسة ايام الاعياد."

ويبرز مؤرخ الحركة الصوفية اليهودية جرشوم شوليم Gershom Scholem هذه الرقابة الذاتية الفريدة التي يمارسها سالكو الكابال، الذين فرضوا على انفسهم الصمت أو الا يتركوا إلا تراثاً محكياً . فقد أُتلفت

المخطوطات، او أنه لم يطبع الا عدداً محدوداً من تلك التي بقيت، وفي هذا اللحاظ، تتخذ كلمات ويتجنشتاين عندما يتكلم عن التصوف، معنى دقيقاً...

"بالتأكيد هناك الممتنع عن البيان ... انه يظهر نفسه. انه العنصر الصوفي."

وباعتبار اليهود ابناء ا لله، فإن الوحدة الجماعية للمتأملين الفرادى تعني الوحدة من خلال الاتحاد با لله.

فتاريخ الخلق تاريخ اتحاد هؤلاء الأبناء با لله او انفصالهم عنه معبراً عن ذلك حسب افكار القبالاة اليهودية، بالهزائم وتحطيم الهيكل والسبي والشتات.

ان العقلانية هنا، قطعية دنيوية عابرة، مقابل الحدس القدسي كأصل سماوي مطلق ينتج ظلاله على الارض حيث تقترب الفكرة الصهيونية هنا من "الحقيقة بعالم المثل والصور التي تقابل الفكرة المقدسة المتعالية وتهمش التاريخ كعالم للظلال والاشياء المادية المتعينة التي لا تليق بالفكرة الصهيونية المقدسة"!.

٣ ـ التاريخ يدحر الايديولوجيا

ان ايديولوجيا العزلة التي حاولت تسويغ المشروع الصهيوني برمته بالاعلان عن صعوبة اندماج اليهود مع الاخرين بسبب لاسامية هؤلاء، والتي تجلت، حسب هذه الايديولوجيا في مذابح دائمة ضد اليهود، ليست أيديولوجيا رجعية وحسب، بل وايديولوجيا مزعومة في الاساس.

فلم يكن الانغلاق الداخلي مقصوراً على اليهود بل على كل المجاميع البشرية، ليس بسبب لاسامية ما ضد هذه المجموعة او تلك، بل بسبب غياب شروط الامة الكاملة في المراحل ما قبل الرأسمالية وانعكاس العلاقات الاجتماعية الاقتصادية على هذه الجماعات في اشكال قبلية متناثرة، متجاورة يحكمها قانون الصراع اكثر مما يحكمها قانون الوحدة.

هذا بالنسبة لكلام العزلة عموماً، أما بالنسبة للجيتو اليهودي، فهو كما مر سابقاً من اختراع اليهود أنفسهم ولأسباب اقتصادية أضفى عليها الحاخامات طابعاً دينياً من أجل تكريس دورهم داخل هذه الطوائف.

يقول هوارد زافر في كتابه (مجرى التاريخ اليهودي الحديث): "لم تعرقل الفئة القائدة في الجماعة التقوقع الاقتصادي والاجتماعي والعرقي نظراً لأن ذلك كان يساعد في المحافظة على الدين اليهودي وعلى كل ما هو مرتبط به. بل واكثر من هذا فإن أول جيتو أقيم في كل من اسبانيا وصقلية في بداية العصور الوسطى اقيم بناء على طلب اليهود أنفسهم، وبناء على طلب اليهود الذين كانوا يعيشون في البرتغال التي اقرت القوانين الخاصة التي تنظم الحياة في احياء اليهود المغلقة."

وعلى الغرار نفسه يكتب اوسويل بصدد الادارة الذاتية للجماعات اليهودية في اوروبا في بداية القرون الوسطي ومن ثم في العهدين العربي والتركي فيقول : "كانت الادارة الذاتية شيئاً نافعاً لقادة الجماعة اليهودية في الاساس من زاوية عملية جمع الضرائب، وكان للطبقة الحاكمة في الامبراطورية مصلحة بها ايضاً، ويشمل الامر كذلك مسألة تطبيق قوانين وسيطرة هؤلاء القادة في الجيتو عنوة، فجاء تشكيل الجيتو بسبب نظام الطوائف الحرفية الاوروبية وليس بسبب العزل الاجتماعي لهم.

لقد عاش اليهود كطائفة منفصلة لأنهم مثلوا نظام (اقتصاد السوق) بين ظهراني شعوب تعيش في اقتصاد طبيعي.

وحسب رشاد الشامي، اخذ الوجود اليهودي في داخل المجتمعات القديمة الوسيطة عدة اشكال، منها: حارة اليهود في مصر، قاعة اليهود في اليمن، الملاح في المغرب والجيتو في اوروبا. ومثل ذلك الوجود الارمني والفينيقي في افريقيا.

اما فيما يتعلق بمزاعم المذابح التي تعرض لها اليهود دون غيرهم، فإن تاريخ الحروب والصراعات في المجتمعات الطبقية مشحون بالحروب والمذابح، وفي ذاكرة كل شعب سلسلة من الاحداث الدامية.

وعن الفكرة السائدة عن معاناة وتعذيب اليهود وخاصة من قبل الرومان واسبانيا الكاثوليكية، يقول الباحث الامريكي المعاصر كانتور[٢١]: "ان كلتا الدولتين عاملتا اليهود بصورة جيدة وكريمة وحتى الرأي المقبول والذي

يقول ان اليهود في اسبانيا عانوا تحت الحكم الملكي الكاثوليكي من سنة ١٣٥٠ ـ ١٥٠٠ مبالغ فيه، والقول أن ٣٠٠ الف يهودي غادروا اسبانيا في سنة ١٥٩٢ لرفضهم التحول الى النصرانية بشكل متطرف لا دليل عليه.

ولذلك فإن ذاكرة الكوارث الصهيونية وامتهانها للنواح، كما يكتب ايفانوف، يثير انطباعاً بائساً ومضحكاً في الوقت نفسه لدى أولئك الذين يعرفون ويذكرون أحداث سمل عيون البلغار والخوزقه ونقل ملايين الافارقه الي امريكا في عنابر السفن التي كان من بين اصحابها اسلاف الصهاينه من الوجهة الطبقية، اي التجار واصحاب البنوك اليهود .

وكون اليهود قد تعرضوا للاضهاد والمغادره احيانا في نطاق الامبراطوريه الرومانيه في وقت لاحق فقد كان السبب هوالسبب الذي ادى الى إضطهاد المسيحيين وهو إنكار ألوهية القياصرة إنطلاقا من الايمان بالواحد.

ويمكننا ان نعدد الكثير من المآسي في التاريخ القديم على غرار تدمير القدس، فقد كان المصير نفسه نصيب قرطاجنة وكورنثوس.(٢٢) وكذلك تدمير قسطنطين لهيكل عشتارات في بعلبك.(٢٣)

ومن الشعوب التي تعرضت لفواجع وكوارث معروفة:-

ـ الجاليات التجارية الصينية في جنوبي شرقي آسيا. وقد ظهرت تلك الجاليات بشكل عام في عهد عائلة مينغ المالكة في الفترة الواقعة ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر.، ويعيش في اندونيسيا على سبيل المثال قرابة الثلاثة ملايين صيني كانوا بمثابة كبش الضحية خلال فترات القلاقل الاجتماعية حيث يصبحون هدفاً للاظطهاد من قبل الجماهير التي نفخت فيها الطبقات الحاكمة روح التعصب القومي. فخلال فترة ا لانعطافة الرجعية التي وقعت في اندونيسيا في عام ١٩٦٥ كان من نصيب الصينيين المتمسكين بلغتهم وعاداتهم والذين هم في غالبيتهم من الحرفيين واصحاب الحوانيت الصغيرة ـ وان كان بينهم عدد قليل من اصحاب الملايين ـ مذابح على غرار المذابح التي تعرض لها اليهود في روسيا القيصرية بعد فشل ثورة عام ١٩٠٥.(٢٤)

ـ اما المثل الثاني فيتمثل بالارمن: لقد تعرض الارمن الذين يتمتعون بتاريخ وثقافة عريقين للاضطهاد الذي تعرض له اليهود. فلقد اضطر الارمن في القرنين الخامس عشر والتاسع عشر ومن ثم في القرن العشرين الى الهرب الجماعي الى البلدان الاجنبية وتشتتوا في العالم كله امام اجراءات القمع الوحشي والمذابح التي نظمتها الطبقات الحاكمة التركية ضدهم.

ويكفي ان يقرأ المرء رواية فراز روفل ذات الشهرة العالمية والمعنوية (الايام الاربعون لجيل موسى) ليدرك مدى العذاب الذي تعرض له الارمن. وتعيش في ايامنا هذه اقليات ارمنية كثيرة العدد في كل من سوريا وايران والولايات المتحدة ولبنان وفرنسا وغيرها، ولقد حافظت الجاليات الارمنية هذه في الكثير من الحالات على ديانتها ولغتها وتقاليدها. ومنذ بعيد شكلت فئة تجارية خاصة في الشرق الاوسط.

والمثل الثالث وهو الحالة الاكثر تطرفا هي حالة النَوْر (الغجر) الذي تعرضوا لابادة هتلر. لقد بدأ تدفقهم من الهند قبل ألف وخمسماية سنة ووصلوا الى اوروبا قبل خمسة قرون ولقد حافظوا رغم مرور قرون خمسة على الكثير من تنظيمهم القبلي ولغتهم وعاداتهم كما كان نصيبهم من الاضطهاد كبيراً، فلقد مات عشرات الالوف منهم في معسكرات الاعتقال النازية. ومؤخرا قرأنا انباء مؤتمر النَوْر الذي توجه بنداء الى الأمم المتحدة يطالب فيه بتحديد منطقة لاستيطانهم في الصومال شرق افريقيا على أساس ان هؤلاء النَوْر الذين اضطهدوا وعانوا الكثير يستحقون ان يكون لهم وطن في نهاية المطاف. ومن الطبيعي الا ترحب حكومة الصومال بتلك المبادرة، مع ان مؤتمر النور لم يعتبر النور (الشعب المختار للاله الهندي سيغا) بل واكثر من ذلك لم يتذرع بالحقوق التاريخية.[٢٥]

ـ اما فيما يتعلق بقضية طرد اليهود بالعنف من فلسطين، فإن افتراض ليونارد تشاين الوارد في مجال وصف الاعوام التي سبقت انهيار الدولة اليهودية، مؤشر مضاد للمزاعم الصهيونية نفسها.

يقول شتاين ـ والاقتباس لـ ايفانوف: "إان الاسباط اليهودية المزدهرة، كانت موجودة منذ زمن بعيد في مصر وبرقة وسورية وما بين النهرين وايطاليا واليونان"

فاليهود قد استقروا قبل انهيار الدولة اليهودية بوقت بعيد، وفي الواقع كان عدد اليهود في فلسطين على اعتاب المسيحية ٧٠٠ الف شخص فقط في حين كان عددهم في الامبراطورية الرومانية وحدها زهاء اربعة ملايين..).[٢٦]

ويضيف الباحث احمد عثمان:[٢٧] "ليس صحيحاً ان هجرة اليهود خارج فلسطين ـ التي يسمونها "الشتات" ـ جاءت نتيجة لمنع الرومان لهم من دخول القدس، وليس صحيحاً أن هذه الهجرة كانت جبرية مفروضة عليهم، فلم يكن هناك من اليهود في فلسطين بعد القضاء على تمرد "باركوخبا" الا القليل، وهؤلاء فضّلوا الانتقال الى الجليل وسورية بعيداً عن ذكريات الماضي. اما معظم الهجرات فقد تمت حتى قبل تدمير المعبد عام ٧٠ . ويقدر المؤرخ اليهودي سالو بارون عدد اليهود الذين كانوا يستوطنون فلسطين عند دمار المعبد بحوالي المليونين، بينما بلغ عددهم في المهجر في ذلك الوقت خمسة ملايين، وعندما قام نبوخذ نصر بسبي ملك يهودا ومعه طبقة الاغنياء والكتبة والكهنة الى بابل خلال القرن السادس قبل الميلاد، وجدت غالبيتهم نجاحاً اجتماعياً واقتصادياً في موطنها الجديد ففضلت الاستمرار هناك وعدم العودة الى فلسطين عندما سمح الفرس بذلك. وتمتعت الجالية اليهودية في بابل بحرية تامة في المسائل الدينية، ومنها خرج الاحبار الذين درسوا تعاليم التلمود.. وحتى عندما تشتت هذه الجالية في عصرنا الحالي، ذهب معظم افرادها الى البلدان الغربية او الاسيوية، و لم يختاروا فلسطين لإقامتهم.

وكانت مصر البلد الثاني الذي هاجر اليه اليهود منذ القرن السادس ق.م. ــ كما هو مذكور في "سفر إرميا" ـ واقام عدد كبير منهم في جزيرة "فيليه" التي تقع وسط النهر امام اسوان، ثم حدثت هجرات يهودية اخرى الى مصر خلال حكم البطالسة الاغريق ـ منذ القرن الثالث ق.م ــ واستوطن عدد كبير منهم منطقة

الاسكندرية والفيوم والمنطقة الواقعة شمالي عين شمس. كما انتقل بعضهم الى المناطق التي كانت خاضعة لمصر في تلك الفترة مثل جزيرة قبرص وبعض المناطق على الساحل الليبي حيث سكنوا ناحية كانت تسمى "سيرينيكا" وظلت هذه الجاليات اليهودية تتمتع بحرية كبيرة الى ان بدأت الجالية المقيمة في ليبيا تمردا ضد الحكم الروماني ـ بين ١١٥و١١٧ـ في عهد الامبراطور ترايان وانتشر التمرد الى مصر وقبرص حيث قام اليهود بالاعتداء على المواطنين وتدمير المنشآت العامة، واشترك افراد الشعب المصري مع الجنود الرومان في اخماد هذا التمرد، ثم تم طرد عدد كبير من اليهود من مصر وليبيا كما منعوا من دخول قبرص منعاً تاماً، وانتشر اليهود خلال الحكم الاغريقي في المدن السورية والفينيقية ومن اسيا الصغرى، بل وعبر بعضهم الى الجزر اليونانية والساحل الايطالي.

وكان السبب الرئيسي وراء هذه الهجرات البحث عن المكاسب المالية والاجتماعية فقد اشتغل اليهود بالتجارة واعمال التسليف والمهن الحرة، وأصبح بينهم كثير من الاغنياء، وكان كهنة معبد القدس لا يعارضون هذه الهجرات، اذ كان كل مهاجر يرسل ضريبة سنوية الى خزائن المعبد، حتى صار كهنة القدس أغنى من أي طبقة اخرى في كل بلاد الشام.

وهكذا نرى أن غالبية اليهود قد تركت ارض فلسطين ـ بشكل اختياري ـ حتى قبل العام ٧٠ ميلادية عندما دمر الرومان معبد القدس. وبعد هذا انتشر عدد كبير منهم في سورية وآسيا الصغرى، اما بعد فشل تمرد بار كوخبا في النصف الاول من القرن الثاني، فقد اصبح وجود اليهود في الشرق الاوسط كله ـ عدا بابل وبلاد الفرس ـ ضعيفاً، وكادت صلتهم بأرض فلسطين ان تنقطع تماما .

ومما ساعد على هذا التباعد، الانتصارات التي حققها المسيحيون الذين اصبحوا يشكلون غالبية سكان هذه المنطقة بعد ان صارت المسيحية هي الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية منذ منتصف القرن الرابع على إثر اعتناق قسطنطين هذه الديانة . وفي حين أثار آباء الكنيسة المناقشات الفكرية حول طبيعة الثالوث وخلود الروح، منع الأحبار اليهود من استعمال الفكر في القضايا الدينية وكان على

اليهود إطاعة تعا ليم التلمود ـ الذي حل محل التوراة . ان الاضطهاد الذي لاقوه من المجتمع المسيحي، بسبب انعزالهم عن المشاركة في الحياة الاجتماعية وبسبب الخلاف على رسالة المسيح، زاد من تمسك اليهود بعزلتهم، وكانت تعاليم الأحبار تعد اليهود في بلدان هجرتهم لانتظار طويل يأتي بعده الخلاص، فهم فسروا ما حدث لليهود على انه غضب من الرب عليهم، فلا بد ان يعانوا في الغربة حتى يغفر لهم الرب، فيرسل اليهم مسيحه ـ الملك الذي سوف يقودهم الى ارض فلسطين من جديد وهو الذي سوف يعيد بناء المعبد الذي هدمه الرومان. وعلى هذا نرى ان تعاليم أحبار التلمود التي تقوم على أساس "الجنس الطاهر" هي التي ادت في النهاية الى عزلة اليهود في بلدان هجرتهم والى وقوعهم ضحية للاضطهاد بعد ذلك.

ـ ومما يدحض ايديولوجيا العزلة التاريخية لليهود ان الواقع المحيط باليهود كان ينتج بالضرورة ايديولوجيا اندماج تستوعب الوظيفة التجارية التجارية اليهودية داخلها وتعيد انتاجها بوصفها مظهرا خاصاً لحضارة اندماج عامة.

وعلى سبيل المثال، فإن القسم الكبير من يهود بابل لم يتعاطفوا كثيرا مع نداء قورش اليهم بالعودة الى فلسطين، فقد كانت بابل مدينة تجارية، وجد اليهود فيها المناخ الملائم لاساليب حياتهم و لم يكونوا معنيين بالتحول الى محاربين في الجيش الفارسي الذاهب الى الشرق الا بالقدر الذي كان هذا الجيش يخدم وظيفتهم التجارية.

ويضيف ايفانوف: "ان التجار الكبار قد لعبوا الدور الرئيسي في الاسباط اليهودية في المرحلة التي سبقت القرون الوسطى، وان التركيب الطبقي للاسباط لم يكن يتميز عن التركيب الطبقي للمجتمعات المحيطة بها، وكان لزعماء الاسباط اليهودية مصلحة مباشرة في الحفاظ على سلامتها وقد ساعد على ذلك الكنيس الذي ظهر في بابل.[٢٨] وينبغي ان نضيف ان الاسباط اليهودية سواء في العصر الاغريقي او في مرحلة الحكم الروماني وطوال عهد الخلافة العربية كانت تتمتع بالحكم الذاتي في القضايا المتعلقة بحياتها الداخلية، بمقتضى اهتمام زعماء الاسباط الحاكمين والطبقات الحاكمة في الامبراطوريات على حد سواء.[٢٩]

فمع ظهور الخلافة العربية بعثت من جديد تلك المستوطنة اليهودية القديمة فيما بين النهرين والتي كانت في طريقها للاندثار. ولقد اصبحت الجماعة اليهودية في بغداد بمثابة المركز الروحي ليهود العالم آنذاك سواء في اطار الخلافة العربية او خارج حدودها.

ويعترف شاحاك بأن الاسلام عامل اليهودية بتسامح يفوق التسامح الذي لاقته من المسيحية.(٣٠)

كما يذكر ليون بأن جهود جواتين برهنت بأن اليهود لم يختلفوا كمواطنين عن المسلمين والمسيحيين الا في نطاق الدين والملامح الثقافية المرتبطة به.

ويضيف ليون عن وضع اليهود في اسبانيا الاسلامية بانهم كانوا ينتمون الى الفئات الغنية، ويستشهد بقول ابي اسحق الالفيري: "عند وصولي الى غرناطة، وجدت بأن اليهود يحتلون مراكز قيادية في الادارة ويهتمون باستيفاء الضرائب ويعيشون في الرفاهية، بينما يرتدي المسلون الاسمال."(٣١)

وفي ظل الامبراطورية العثمانية كان بإمكان اليهود بصفتهم رعايا للسلطان ان يسافروا من والى فلسطين، لقد كانوا ينتقلون دون اي عائق بين شمالي افريقيا وحتى شبه جزيرة البلقان التي تمتد اليها الامبراطورية الشاسعة، وكان قادة الامبراطورية أكثر عطفاً وحسن ضيافة بالنسبة لأولئك اليهود الذين فروا من اوروبا المسيحية. ومع ذلك فإن المهاجرين اليهود من اوروبا والمقيمين منهم كرعايا في الامبراطورية فضلوا العيش في تلك الاجواء من الامبراطورية التي كانت فيها الشروط الاقتصادية والسياسية اكثر ملائمة. وهكذا فقد كانوا يختارون العيش في القسطنطينية ودمشق والقاهرة لا في فلسطين.

هوامش الفصل الثاني:

١ ـ ابراهام ليون، مصدر سابق، ص ١٦١.
٢ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص ١٩/١٨.
٣ ـ ليون، مصدر سابق، ص ١٦١.
٤ ـ ماكاي، مصدر سابق، ص ١٧/١٦.
٥ ـ ليون، مصدر سابق، ص ٨٠.
٦ ـ ليون، مصدر سابق، ص ٢٣
٧ ـ ليون، مصدر سابق، ص ٧٥/٦٥.
٨ ـ عبدالباسط سيدا، من الوعي الاسطوري الى الفلسفة، دار الحصاد، دمشق، ص٢٥٦/٢٥٥.
٩ ـ صادق العظم، دفاعاً عن المادية والتاريخ، دار الفكر الجديد، بيروت، ١٩٩٠، ص٨٨.
١٠ ـ لوكاتش، تحطيم العقل ـ الجزء الاول، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٢، ص١٠٨.
١١ ـ لوكاتش، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٥٩.
١٢ ـ لوكاتش، المصدر السابق، الجزء الاول، ص ١٠٩.
١٣ ـ لوكاتش، المصدر السابق، الجزء الاول، ص١٠٩.
١٤ ـ روفائيل باي، مذكرات هرتزل، ص٥٦.
١٥ ـ غورانوف، الصهيونية حركة عنصرية، ندوة طرابلس الغرب، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٧٦، ص٣٧.
١٦ ـ رايان، مصدر سابق، ص٤٨.
١٧ ـ عبدالوهاب المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٣، ص٤٣.
١٨ ـ هابرماس، الفلسفة الالمانية والتصوف اليهودي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١٩٩٥، ص٥٢.
١٩ ـ هابرماس، المصدر السابق، ص ٦٦/٦٥/٥٣.
٢٠ ـ هابرماس، المصدر السابق، ص٦٦/٦٥.

٢١ ـ كانتور، جريدة الرأي الاردنية، ١٩٩٥/٩/٢.

٢٢ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٢٨.

٢٣ ـ جيمس فريزر، ادونيس اوتموز، المرسسة العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص٤٤.

٢٤ ـ ليون، مصدر سابق، ص١٧٩/١٨٠.

٢٥ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص١١.

٢٦ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص١٧.

٢٧ ـ احمد عثمان، جريدة الحياة، مصدر سابق.

٢٨ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص١٨.

٢٩ ـ ماكاي، مصدر سابق، ص١٢/١٣.

٣٠ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص١٠/١٢.

٣١ ـ ليوَن، مصدر سابق، ص١٥٦/٦٣.

الفصل الثالث

الايديولوجيا تستحضر الوظيفة الصهيونية

(١) الامبريالية تدحر الطبقة كجيتو ربوي في الغرب

(٢) الايديولوجيا تستعيدها كجيتو عسكري في الشرق

* الصهيونية الروحية: لاسامية الأنا اليهودية

* الصهيونية السياسية - لاسامية الآخر

١ ـ الامبريالية تدحر الطبقة كجيتو ربوي في الغرب

اذا كانت الرأسمالية في المرحلة الاولى من تطور المسألة اليهودية، قد دحرت الوظيفة اليهودية في اطار عصر التنوير الرأسمالي وما حمله من مناخات اندماج، فإن الرأسمالية في المرحلة الثانيه من تطور المسألة اليهودية قد دحرت الطبقة التي تحمل هذه الوظيفة ووضعتها امام خيار أساسي، ليس الاندماج او التعايش داخل اوروبا، بل البحث عن وظيفة جديدة خارجها: فلم يعد ثمة مكان لهجرة جديده بين غرب اوروبا ومشرقها .

وما ان دخلت اوروبا الشرقية عصر التحولات الرأسمالية، حتى ظهرت الملامح نفسها للمسألة اليهودية، كما ظهرت لأول مرة مع انتصار الرأسمالية في اوروبا الغربيه .وكان أبرز عناوينها دخول الوظيفه اليهودية المنسجمة مع البنى الاقطاعية، في تناقض وصدام مع القوى الاجتماعية الجديدة ومسوغها الايديولوجي القومي الذي انعكس أيضاً في موقف أوسع الجماهير الشعبية وفي تراجع الوظيفة اليهودية الربوية الاقطاعية، اجتماعياً وتعميم هذا التراجع سياسياً وايديولوجيا بشعارات قومية أخذت طابعاً عنصرياً ضد اليهود.على إطلاقهم.

وفي بولندا، التي كان الوضع اليهودي فيها مميزاً "حدث الانخفاض الكبير في عدد الحوانيت في الاقطاعيات الوسطى، أي في منطقة يسكنها

البولونيون فقط، ويتمتع الفلاحون فيها بمستوي معيشة أرفع نسبياً، وحيث الصناعة أكثر تطوراً، مما شكل عوامل مهمة في الوضع المادي والثقافي للقرية."

وبينما كان ٧٢ ٪ من مجموع المخازن في القرى بين أيدي اليهود عام ١٩١٤، تدني هذا المعدل الى٣٤ ٪ عام ١٩٣٥، أي الى أقل من النصف .

وتدل هذه الوقائع، مرة أخرى، على ان تهديم الاقطاعية هو في أساس المسألة اليهودية بأوروبا الشرقية . فكلما كانت منطقة ما متخلفة، تمكن اليهود بسهولة اكبر من المحافظة على مراكزهم التقليدي. غير أن انحطاط الرأسمالية العام، يجعل حل المسألة اليهودية مستحيلا . وأدت البطالة والازمات المتتالية الي استحالة انتقال اليهود الى مهن اخرى والى ازدحام ضار في المهن التي يمارسونها وزادت باستمرار، من عنف اللاسامية! وبذلت حكومات أثرياء المزارعين والرأسماليين الكبار وسعها في تنظيم التيار المعادي لليهود وتحويل الجماهير بذلك عن عدوها الطبقي الحقيقي. وأصبح حل المسألة اليهودية، لدى هذه الحكومات، مرادفاً لحل المسألة الاجتماعية. ومن اجل افساح المجال (للقوى القومية)، شنت الدولة صراعاً منظماً من أجل "ازالة الصفة اليهودية" عن المهن كافة. وتنوعت الوسائل المتبعة من اجل "بولنة" التجارة في بولونيا: فمن مقاطعة متاجر اليهود بواسطة الدعاية، الى المجازر والحرائق.

و لم تلق الحرفة اليهودية مصيراً أفضل على يد الحكومات البولونية، فساهمت المقاطعة والضرائب الباهظة والامتحانات باللغة البولونية (ألوف من الحرفيين اليهود لا يعرفونها) في القضاء علي الحرفيين اليهود.

وشكلت الجامعات أرضاً خصبة للصراع اللاسامي. فقد عملت البرجوازية البولونية وسعها لمنع اليهود من التوصل الى المهن الثقافية وأصبحت الجامعات البولونية مركزاً حقيقياً للمجازر والطرد. الخ...

وحدثت عملية اخراج اليهود من مراكزهم الاقتصادية في جميع انحاء اوروبا الشرقية. ووصل وضع الجماهير اليهودية الى مأزق لا مخرج منه: شبان

انتزعوا من طبقتهم لا يستطيعون الانخراط في الحيـاة الاقتصاديـة ويعيشـون في بؤس اسود..

وقبـل الحـرب العالميـة الثانيـة، استنجد ٤٠٪ مـن السـكان اليهـود في بولونيا بالمؤسسات الخيرية.(١)

كانت امواج اليهـود الشـرقيين تتدفـق باسـتمرار نحـو البلـدان الغربيـة، نافخة حياة جديـدة في جسـد اليهوديـة المهـتريء. "تشـكل جماهيرنـا الشـعبية الكبيرة في الشرق، التي لا تزال تعيش في جو من التقاليد اليهودية، عائقاً أمـام اضمحـلال اليهوديـة الغربيـة". "ان اليهوديـة الغربيـة ليسـت سـوى انعكـاس لليهودية الشرقية".

ويكفينا التذكير بأنه لم يكن في فيينا، مع بداية القرن التاسع عشر، سـوى بضع مئات مـن اليهـود، وان هـذا الرقـم قـد بلـغ ١٧٦,٠٠٠ في بدايـة القـرن العشرين، لكي نفهم مدى أهمية الهجرة اليهودية مـن اوروبـا الشـرقية. فحتـى عام ١٨٨٠ قدمـت الـدول لليهـود الذيـن يقطنـون بلادهـا، إمكانيـات واسـعة للاندماج في الاقتصاد الرأسمالي، مما جعل الهجرة داخلية بشكل رئيسي، وتوالت الاحداث، بعد تلك الفترة، حيث تم تدمير الاقتصاد الاقطاعي بضربات كبـيرة، وتقلصت معه الفروع الرأسمالية الحرفية، حيث يشكل اليهود نسـبة مرتفعـة، ممـا حداهم الى مغادرة بلادهم الاصلية باعداد كبيرة.

وبين اعوام ١٨٠٠ و١٨٨٠ ارتفع عـدد اليهـود في الولايـات المتحـدة ـ المحطة الرئيسية للمهاجرين اليهود من بضعـة الاف الى ٢٣٠,٠٠٠ ممـا يشـير الى ان معدل الهجرة قد بلغ ٢٠٠٠ مهاجراً سنوياً. واذا اضفنا الى ذلك الهجرة نحـو بلاد ما وراء البحار (كندا، انكلترا، افريقيا الجنوبيـة، فلسـطين الخ...) والهجـرة نحو اوروبا الغربية، فـإن الهجـرة العامـة مـن اوروبـا الشـرقية تقـدر بـين اعـوام ١٨٠٠ و١٨٨٠ بحوالي ٢٥,٠٠٠ مهـاجر، اي بمعـدل سـنوي قـدره ٣٠٠٠ مهـاجر" وبمليـون مهـاجر في الفـترة مـا بـين ١٩٠٠ ــ ١٩١٤ اي بمعـدل

١٣٥,٠٠٠ مهاجر في السنة. ويضع هذا الرقم يهود الشرق في المصاف الاول بين الشعوب المهاجرة.

وساهمت الهجرة في التمايز الاجتماعي لليهود، وقد تسارع هذا التمايز خلال القرن التاسع عشر. ففي بداية عصر الرأسمالية، كان ٩٠٪ من اليهود، على الاقل، وسطاء وتجارا . وفي القرن العشرين نرى ان هناك حوالي مليونين ونصف المليون بروليتاري يهودي في اميركا. يشكلون نسبة قدرها ٤٠٪ من جميع اليهود الذين يبذلون نشاطا اقتصاديا .[٢]

ويشير الجدول التالي الى تقسيم اليهود المهني في عام ١٩٣٢ :[٣]

التجارة (بما فيها النقليات والتسلية والمصاريف) ٦,١٠٠,٠٠٠ (٣٨,٦٪)

الصناعة (بما فيها المناجم والحرف) ٥,٧٥٠,٠٠٠ (٣٦,٤٪)

المهن الحرة والادارة ١,٠٠٠,٠٠٠ (٦,٣٪)

الزراعة ٦٢٥,٠٠٠ (٤٪)

العمال المياومون والخدمة المنزلية ٢٣٥,٠٠٠ (٢٪)

لا مهن لهم (الذين يتلقون مساعدة) ٢,٠٠٠,٠٠٠ (١٣,٧٪)

المجموع ١٥,٥٠٠,٠٠٠ (١٠٠٪)

وقد انعكس وضع اليهودية، الذي وصل الى مأزق لا مخرج منه في اوروبا الشرقية نتيجة لتشابك انهيار الاقطاعية وتعفن الرأسمالية والذي خلق جواً خانقاً وصراعات رهيبة، انعكس بشكل ما على الصعيد العالمي وأصبحت اوروبا الغربية والوسطى مسرحاً مخيفاً لصعود الموجة اللاسامية. فينما أدى تدني الهجرة اليهودية، التي انخفض معدلها السنوي من ١٥٥,٠٠٠ بين سنوات ١٩٠١ ــ ١٩٠٤ الى ٤٣,٦٥٧ بين سنوات ١٩٢٦ ــ ١٩٣٥، الى ازدياد وضع يهود اوروبا الشرقية سوءا على سوء، فقد حالت أزمة الرأسمالية العامة دون استيعاب البلدان الغربية لذلك العدد الضئيل من المهاجرين، وبلغت المسألة اليهودية حدة لا مثيل لها، ليس فقط في البلدان التي هاجر منها اليهود، بل أيضاً في البلدان التي

هاجروا اليها. وأدى وصول المهاجرين اليهود، باعداد كبيرة، قبيل الحرب الامبريالية الاولى، الى خلق حركة لاسامية قوية بين صفوف الطبقات المتوسطة في بلدان عدة في غربي اوروبا ووسطها. ويكفينا ان نذكّر بالنجاحات الكبيرة التي حققها الحزب اللاسامي الاشتراكي ـ المسيحي، في فيينا، وبصعود اللاسامية المتنامي في المانيا، وبقضية دريفوس. وظهرت اللاسامية، في أوضح صورها، في فيينا، احد اكبر مراكز الهجرة اليهودية، قبيل الحرب الامبريالية الاولى، فالبرجوازية الصغيرة، التي أُفقرت، نتيجة لتطور رأسمالية الاحتكارات والتي اخذت تنحدر الى صفوف البروليتاريا، تضايقت من وصول العنصر اليهودي البرجوازي الصغير الحرفي تقليدياً.

وادت الكارثة الاقتصادية لعام ١٩٢٩ بالجماهير البرجوازية الصغيرة الى مأزق لا مخرج منه واتخذ الازدحام في التجارة الصغيرة والحرف والمهن الفكرية نسباً غير مألوفة، وكان البرجوازي الصغير ينظر الى منافسة اليهودي بكراهية زائدة، لأن مهارة هذا الاخير المهنية ـ الناتجة عن قرون من الممارسة ـ مكنته من اجتياز الاوقات الصعبة، وبصورة أفضل. ولاقت اللاسامية آذاناً صاغية في صفوف العمال الحرفيين الواقعين منذ أمد بعيد تحت تأثير سلطة البرجوازية الصغيرة.

انه لمن الخطأ اذن ان يحمل الرأسمال الكبير تبعة خلق اللاسامية. بل ان الرأسمال الكبير لم يقم سوى بالاستفادة كمبدأ اساسي من الاديولوجية الفاشية، وحاول الرأسمال الكبير، باستغلاله وهم "الرأسمالية اليهودية"، الاستفادة من الحقد الذي تكنه الجماهير الشعبية للرأسمالية. وكانت الامكانية الحقيقية لإثارة قلاقل بوجه الرأسماليين اليهود تكمن في التضارب الموجود بين الرأسمال الاحتكاري والرأسمال المضارب التجاري الذي يشكل غالبية الرأسمال اليهودي. والجمهور يعرف عادة، بصورة افضل نسبياً، فضائح الرأسمال المضارب ـ التجاري، وخاصة فضائح البورصة. وقد مكّن ذلك

الرأسمال الاحتكاري من توجيه حقد البرجوازية الصغيرة وقسم من العمال انفسهم ضد "الرأسمالية اليهودية".(٤)

وكان من نتائج ازمة عام ١٩٢٩ ومن عقابيلها الفظيعة طرد اليهود من الرايخ الالماني الثالث، فقد كان يعيش في المانيا عام ١٩٣٣ حوالي ٥٠٠ الف يهودي، بينهم ١٠٠الف من يهود اوروبا الشرقية، وبسبب الاجراءات القاسية التي صاروا يتعرضون لها منذ عام ١٩٣٩، غادر الرايخ حوالي ٢٢٦ ألفاً من اليهود. فإذا ما اضفنا الى هذا العدد من المهاجرين من السياسيين ومن غير-"الآريين" فإن عدد الذين هاجروا يبلغ ٤٠٠ الف تقريبا، توجه معظمهم الى فلسطين.

لقد تميزت ازمة عام ١٩٢٩ عن كل ما سبقها من ازمات شهدها القرن التاسع عشر والربع الاول من القرن العشرين. لقدكانت ازمة عنيفة، وعميقة، وشاملة، ادت الى انحلال النظام الاقتصادي الدولي، والى شله تماماً، كما أدت الى افلاسات عملاقة، جعلت أعمدة وأركان ذلك النظام تهتز بقوة، ووضعت النظام برمته أمام مشكلات لم يستطع السيطرة عليها الا قسراً، من خلال الحرب العالمية الثانية، لكنه كان لا يزال قادرا ، وليس كما هو حاله اليوم، على ادخال تعديلات اساسية في تركيبته بفضل الولايات المتحدة التي كانت لا تزال تمثل إحتياطياً ضخماً لم يزج في التداول بعد الا في حدود ضيقة.

يومها، انطلقت الهجرات الكبرى في كل مكان والى كل مكان، وخاصة في اوروبا الشرقية والوسطى، وقامت الانظمة الديكتاتورية في كل مكان ايضا، حيث زعزعت الازمة النظم السياسية الليبرالية لصالح النظم الفاشية.

في تلك الازمة، وحتى في الدول ذات التقاليد البرلمانية العريقة، اتخذت اجراءات استثنائية لصالح تقوية المركزية ولقد كان ذلك المناخ ملائماً تماماً لدفع هجرة اليهود بقوة اكبر باتجاه فلسطين، ففي بولونيا وهنغاريا ورومانيا ظهرت احزاب جديدة على غرار الفاشية والنازية، تشكلت من المثقفين

والخريجين الذين اعتقدوا بـأن اليهـود يزاحمونهـم على المهـن، واخـذت تلـك الاحزاب تطالب بديكتاتورية عنصرية تأخذ على عاتقهـا مهمـة تطهـير البـلاد من اليهود وقطع دابرهم من أساسه. طبعاً، وكانت الصهيونية اليهوديـة وغـير اليهودية تغذي بارتيـاح تلـك الاتجاهـات وتعـزز أوهامهـا، فشـهدت هنغاريـا ظهور "الصلبان ذات الاسهم" وشهدت رومانيـا ظهـور "الحـرس الحديـدي"، وكان النشاط ينصب بقوة وعنـف علـى اصحـاب رؤوس الامـوال ولا سـيما اليهود.(٥)

في هذه المناخات، ولدت الحركة الصهيونية كحركة برجوازية صغـيرة، وليس كحركة للبرجوازية اليهودية الكبـيرة، اي كتعبـير عـن طبقـة متفسـخة وليس تعبيراً عن طبقة برجوازية صاعدة. وكان مفهوما ان تلقي الدعـم مـن البرجوازيـة الاوروبيـة الكبـيرة، كمشـروع سياسـي وراء البحـار، يسـتجيب لمصالح مثل هذه الطبقة المتفسخة في بحثها عن وظيفة جديدة.

فلو كانت الصهيونية تعبـيراً عـن مصـالح البرجوازيـة اليهوديـة الكبـيرة لكان مشروعها مشروعاً اندماجياً وليس مشروعاً انعزالياً.

ولذلك تميل الاغلبية مـن الكتّـاب اليهـود الى اعتبـار الصهيونيـة حركـة البرجوازية الصغيرة المدنية.

فحسب ليوبنسكر في "التحرر الذاتـي" وهرتـزل في "الدولـة اليهوديـة": الصهيونية هي ردة فعل البرجوازية اليهودية الصغيرة.

وحسـب بربورشـوف فـالمجتمع اليهـودي يضـم قـاعدة عريضـة مـن البرجوازيين الصغار مقابل قلة من العمال.

وحسب ابراهام ليون(٦) فالصهيونية هي ايديولوجية البرجوازية الصغـيرة اليهودية المتفسخة ولكنها بخلاف القومية الاوروبية التي رافقت الرأسمالية، فقد رافقت الامبريالية، "وهي مثل كل ايديولوجيا، انعكاس مشوه لمصالح طبقية ما .. انها ايديولوجيا البرجوازية اليهودية الصغيرة المختنقة بين الاقطاعية المنهـارة والرأسمالية المنحطة."

ويسوق الكتاب اليهود بمختلف ألوانهم الفكرية والاجتماعية، الوضع الاجتماعي لليهود شرق اوروبا، حيث ازدهرت الفكرة الصهيونية للتدليل على الطابع البرجوازي الصغير للحركة الصهيونية.

فمعظم يهود اوروبا الغربية والولايات المتحدة لم يهاجروا الى فلسطين، فيما يذكر جورج ماكاي انه خلال المؤتمر الصهيوني الاول المنعقد في مدينة بازل السويسرية ١٨٩٧ كان من بين مجموع المندوبين الـ١٩٧ مندباً، ٦٦ مندوباً من روسيا وحدها .[٧]

ويذكر موسى هس[٨] في كتابه "روما والقدس" الصادر سنة ١٨٦٠ ان رهاننا يتركز على يهود اوروبا الشرقية، فيهود اوروبا الغربية يندمجون ويتمثلون الحياة في البلدان التي يعيشون فيها.

ومثلهم هرتزل الذي اعتبر روسيا ورومانيا هما الاحتياطي الكبير للمشروع الصهيوني.[٩]

اما الذي لم يذكره الكتاب اليهود فهو السر الذي يقف وراء حماس البرجوازية الصغيرة اليهودية للمشروع الصهيوني، كما طرحه ابراهام ليون في كتابه الشهير حول المسألة اليهودية وهو ان هذه الطبقة لم تعبر عن حراك اجتماعي في قلب القانون الرأسمالي، بل بالضد منه بوصفها "الطبقة" التي تشكلت ونمت في اطار الوظيفة اليهودية التاريخية التي بدأت تذوي مع تطور الرأسمالية وتحولت هذه الوظيفة الربوية وامتداد اتها الى عائق امام هذا التطور، ومن ثم تفسخها ومحاولة اعادة انتاج نفسها بمسوغات ايديولوجية متعالية على هامش الحاجة الغربية لها في منطقة اخرى، هي الشرق العربي.

٢ ـ الايديولوجيا تستعيد الوظيفة

اذا كانت ايديولوجيا المرحلة الاولى مشفوعة بالخط المفتوح للهجرة، من غرب اوروبا المتطورة الى شرق اوروبا الاقطاعية، وبالتالي باستحضار شروط جديدة للعزلة الروحية في اطار تجديد الوظيفة الربوية نفسها التي تحتاج بدورها للتنفس داخل الجغرافيا والتاريخ الاوروبي وليس بالتعين في كيان

خاص، فإن انتهاء الوظيفة الربوية ـ التجارية التاريخية كان يعني بداية العد العكسي لانتهاء الطبقة نفسها بعد أن فقدت الشروط التاريخية لتجديد قواها، فأخذت ايديولوجيا هذه المرحلة طابعاً مختلفاً تماماً في شقيها الروحي والسياسي، لاسامية الأنا من جهة ولاسامية الآخر، من جهة اخرى:

ـ الشق الروحي او لاسامية الأنا اليهودية، القائمة على اعتبار التعين في دولة خاصة شرطاً لاستعادة الفكرة اليهودية في دورتها التاريخية.

ـ الشق السياسي او لاسامية الآخر الاوروبي، القائمة على الدعوة الى التعين في دولة مدعومة بحاجة الرأسمالية العالمية نفسها لمثل هذه الدولة وراء البحار.

٢/أ ـ الصهيونية الروحية: لاسامية الأنا اليهودية

قدمت ايديولوجيا الصهيونية نفسها، بشد هيغل الى كنط وترويج الميتافيزيقا الصهيونية، إنطلاقاً من لاسامية "الانا" هذه المرة، التي لا تعترف بالصهيونية الا كفكرة مطلقة مقدسة متعالية، تقفز بـ"كيركغادر" من النفي المتعين الى نفي النفي كفكرة مستعادة على اطلاقها، حيث التعين، تاريخه بين لا تاريخ الفكرة واستردادها لنفسها ومجرد فاصل زمني ـ دنيوي، عنوانه وميدانه الشعوب الاخرى.

ان الفكرة هنا تعبر عن نفسها بتأويل صهيوني حيوي، لا سامي، ينسف جدل هيغل في نقطته الاساسية ويذر رماده في دائرة ثنائية، ايديولوجية مغلقة. التعين بالنسبة لها انقطاع خارجي ليس الا فإذا كانت الفكرة :القضية، تقابل الشيء في ذاته عند كنط، والصهيونية كأيديولوجيا عزلة، عنوانها نوح ـ المصطفى وهابيل ـ ابراهيم المتجولين من جهة وامتدادهما الرمزي بعدم زواج اليهود من آخرين، كدلالة سامية عرقية اطلاقية ضد التعين الارضي كمعادل للاندماج، فلا تستعيد الفكرة نفسها على طريقة التركيب الهيغلية (نفي النفي بتوسط الواقع) اي واقع الفكرة، بل على طريقة الخلق من خطيئة الاخرين وبطريقة القفزة الحدسية "كيركغادر زائد شيلنغ". مضافا الى ذلك ان مثل

هذه الاستعادة في صورتها المماثلة للخلق الاول، تعني ان كل خلق أول هو خلق يهودي بالضرورة! يتوجب عليه أن يظل نقيا بدون أن يتلوث بدماء الاخرين من خلال الاندماج.

هكذا، الفكرة، هنا، وهكذا استعادتها لنفسها ليس من خلال تعينها ذاتها بل بدالة الاخر لأن كل تعيين خطيئة يستدعي الاندماج من جهة كما يستدعي العقاب الداخلي بالضرورة كما ان الاعتراف بالتعين اليهودي يعني الاعتراف بالسيرورة وقوانينها الموضوعية، ويجر الى القول بان دمار مملكتي اسرائيل ويهودا وكذلك الشتات اليهودي عقاب لبني اسرائيل انفسهم وليس للاخرين الذين دمروا هاتين المملكتين.

ان مغزى وأهمية استعادة علاقة الصراع بين هابيل وقايين (قابيل) تكمن في هذه المخاوف بالضبط، فما كان ممكناً يهودياً الاعتراف بصحة انتصار قايين تاريخياًكانتصار حقبة ارقى على حقبة ادنى وانتصار العقل على الغريزة والسيرورة على الحدس. فلو حدث ذلك، لأصبح هلاك قابيل هلاكاً داخلياً لحقبة مهترئة ولأصبح عقاباً على هذه الحقبة التي تعادل الخطيئة.

لذلك، ما كان بوسع هذا الضرب من الايديولوجيا الصهيونية الا ان يصادر التعين كسيرورة اندماج وتجعل الفكرة اليهودية تسترد نفسها خارج التاريخ كومضة برق غريزية حدسية لهذه الفكرة، كقوة مطلقة متعالية في الارض اليبوسية المقدسة، ليس كتعين مكاني وزماني دنيوي بل كوسيط مقدس بين الله وشعبه المختار! كما سنتابع.

*الفكرة، الشيء في ذاته محالاً الى كيركغارد:

تعني الفكرة، الفكرة اليهودية، بوصفها فكرة مطلقة مغلقة مقدسة، وليست فكرة قابلة للتعين.

انها ليست فكرة هيغل، التي تتجلى في الواقع، وليست "الشيء في ذاته" عند كنط، بل كانط بصورة اكثر رجعية، يتجاوز الفهم فيها العقل على اعتبار الأول مقدساً والثاني دنيوياً وهي ليست الفكرة القومية الالمانية

الرومانسية المجردة، كما هي عند هردر لغوياً، وعند تشمبرلين بيولوجياً، بل هي اكثر من ذلك بانتهاجها هردر وتشمبرلين على نحو أكثر رجعية حيث الحيوية، العرقية، الالمانية، حالة تعين للمطلق "السيد" مقا بل الشعوب الاخرى "العبيد"!

ان الفكرة، القضية، هنا هي فكرة كيركغارد التي تسترد ذاتها بدون توسط الواقع، في حركة دائرية عضوية مغلقة تتعرف على نفسها بالحدس القدسي الذي يتعالى على السيرورة التاريخية.

وهي العزلة المقدسة، التي ترى في كل اندماج، تعين يخفض القدسي إلى الدنيوي، والحدسي إلى الحسي، نوح إلى كنعان، موسى إلى فرعون وهابيل كمعادل لتموز إلى قابيل، وخيل يهوه إلى هولة البحر ووعول البر الوحشية التي تدب حيثما تدب الخطيئة.

لقد قدمت الايديولوجيا الصهيونية الفكرة كدائرة لاتأريخية مغلقة، تلغي الحركة وحرية الاختيار، وعي الضرورة، وتساوي بين الحركة وفعل القوانين في الطبيعة، فتماهي الكلي بالجزئي والإنساني بالالهي واللامتناهي وقانون الطبيعة الحية مع قانون الطبيعة غير الحية.

ان "الشيء في ذاته" أو كانط إلى الوراء كشيء قبلي عضوي موحد ازاء الخارج وبمعزل عن كل سيرورة، ليس بوسعه استدعاء النفي الواقعي الهيغلي للفكرة المثالية، بل استدعاء قفزة كيركغارد وحدس شيلنغ ولاعقلا نية الاجوبة الالمانية الكلاسيكية عن أسئلة التأخر التي داهمت المانيا القرن التاسع عشر، وجعلتها النموذج الكلاسيكي المطلوب لأيديولوجيا الانحطاط في التاريخ وعلى رأسها الايديولوجيا الصهيونية.

ان كانط إلى الوراء أو "الشيء في ذاته" كعنوان للفكرة في منظورها المثالي اللاعقلاني، كان عنواناً للتجربة الالمانية في أصلها التراجيدي وفي صورتها الكاريكاتورية الصهيونية" فالأولى، كانت جزءً من د اخل قانون

التحول الامبريالي، والثاني، كانت مظهراً خارجياً لهذا القانون، الأولى فعل تاريخي، والثانية، رد فعل لاتاريخي، يتعرف على نفسه بمنطق الاخر.

* التعين كمعادل للخطيئة ـ الاندماج:

يبدو كل تعين، وفق هذا الضرب من الايديولوجيا، تعيناً اندماجياً دنيوناً انتقالياً للدلالة على الدم الازرق اليهودي المقدس، الذي لا يعتبر تعينه الا تجلياً حدسياً لهذا المقدس في مكان مقدس وسط أرض دنس. والتعين، بهذه الصورة يقابل النفي كتعين بالخطيئة (قتل الاب من قبل الابناء واغتصاب الام)، والندم على ذلك باقامة الطواطم والقرابين.

فيصبح كل تعين دنيوياً، وتصبح كل فكرة قدسية، وتتساوى الخطيئة عند اليهودية الامومية بالاندماج كتعين دنيوي أبوي أولاً وكرمز لاختلاط الدم والزيجات ثانياً. وبذلك يظل اليهود، ما داموا نخبة خاصة عرقياً، تعبّر عن الفكرة المقدسة، التي لم يلوثها الاندماج، حيث يكف اليهودي عن كونه يهودياً في حالة الاندماج والذوبان في الاخرين.

وهو ما يفسر الاستعارة الصهيونية لمفهوم الخطيئة في التوراة، وفق المقابلات المفارقة التالية:

* اذا كانت الخطيئة تطال كل البشر في طوفان التوراة باستثناء نوح وقومه الاقربين، إذ قال الله لنوح حسب الاصحاح السادس من سفر التكوين: "ان نهاية كل البشر قد أتت امامي لان الأرض امتلأت ظلما منهم، فها أنا مهلكهم في الأرض." فان اسرائيل صورة مصطفاة معاصرة اخرى لنوح الذي اصطفاه الله من بين بني البشر الخطائين واعاده الله إلى السماء بعد الطوفان، واورث احفاده الخلص من اليهود! خصائص بيولوجية مطلقة تسمو على بقية البشر.

* ان خطيئة اقدام قابيل على قتل هابيل، كصورة لعدوان البشر على الله من خلال عدوان قابيل، المزارع، المستقر، المتعين، الدنيوي، المتشيىء وبالتالي الخاطيء، على روح الله المجسدة في هابيل، الذي لا يمكن أن يتعين

كمتجول ينفي التعين بهذا التحـول، وصـورة لاعقلانيـة ولاتاريخيـة لمحـاولات تعيين اليهود وتلويثهم بالخطايا! من خلال دمجهم في العـالم، ومنعهـم، كحالـة مقدسة، من التجلي في مكان مقدس، هـو اورشـليم، حيـث اسـرائيل ليسـت تعيناً دنيوياً ثابتاً بين ديـدان الارض! كمـا قـابيل، بـل وصيـد الـرب الـذي يؤكد الذات المقدسة بدلالة الآخر الدنيوي الخاطيء.

* انطلاقا من الطابع الامومي لليهود، فإن الجنس الذي يفسـر الخطيئـة الفرويدية (اعتداء الابناء على الاب واغتصاب الام) والـذي يمكـن اعادتـه الى اعتداء البشر على الالهة في الميثولوجيا القديمة (اعتداء الفلاح على الالهة انانا في الميثولوجيا السومرية، وعلى عشتار في الميثولوجيا البابلية)، إنطلاقا من ذلـك، يأخذ الجنس في التوراة طابعاً رمزياً آخر يمثل، إعتـداء المجتمـع الابـوي المتدنـي بيولوجيا! في التوراة، على المجتمـع الامومـي اليهـودي، وزواج الاخريـن مـن النساء اليهوديات، وهو ما تقابله الايديولوجيـا الصهيونيـة بالاندمـاج وتعتـبره بمثابة صورة للاعتداء الجنسي الاول.

* كما ان اليهـود خـارج الخطيئـة، حيـث اليهـود شـعب الله، وحيـث الخطيئة دنيوية، فهم خارج معادلة الشق الاخر من معادلة الخطيئة ـ العقاب ـــ الندم، الفرويدية، ومن معادلة نفي الفكرة لنفسها بتوسط الواقع، الهيلغية.

فكما تطال الخطيئة كل البشـر، باستثناء اليهـود، فـإن العقـاب والنـدم الدنيويين لا يطالان غير اليهود فقط، بل وازاء اليهود أيضا، باعتبارهم وكـلاء الله الذين حملوا رسالته الى البشر، فما انتصحوا "البشر" فأطبق عليهم الماء من كل الجهات وهلكوا نتيجة تمردهم وعصيانهم لشـعب الله: فرعـون وجيشـه، قوم نوح وبخاصة كنعان الذي تركـز عليـه الايديولوجيـا الصهيونيـة كمركـز للعرب.

ويلحظ هنا ان التوراة التي قلبت المعنى الرمزي لـ هابيل وقـابيل، وفـق رؤيتها الخاصة، قلبـت ايضـا، المعنـى الرمـزي للمـاء، مـن معنـى مـزدوج، في الاساطير السومرية والبابلية والمصرية، الى متعين، بصورة احادية، هـي صـورة

العقاب فقط، فكل رؤية جدلية اخرى، تنسف هذا الضرب من الايديولوجيا التي يوافقها فصل المثالي عن المادي بصورة ميكانيكية واعتبار المثالي مقدساً خاصاً باليهود، والمادي، دنيوياً عاماً يتعلق بالآخرين.

ان الغرق القديم ــ الجديد لكنعان وفرعون، دون ان يطهرهما الماء ويبعثهما صالحين، من جديد، يفسر ما سبق أولاً، ويقف، ثانياً، بالضد من الدلالات التي تعبر عنها الاساطير البابلية والسومرية والمصرية، وكذلك العهد الجديد، حيث يعبر الانغماس في الماء عن ولادة الانسان الجديد الطاهر من رحم الانسان الخاطيء القديم.

ينقل مرسيا الياد عن جان كريزوستوم قوله في صدد الكلام عن المعمودية "انها تمثل الموت والقبر، الحياة والقيامة.. فعندما نغطس رأسنا في الماء كما في قبر، يغوص الانسان القديم ويدفن كله، فإذا خرج من الماء، خرج مع الانسان الجديد في الوقت نفسه."

ويذهب جوستان الى القول: "ان المسيح بما هو نوح جديد قد اصبح الجد الاعلى لعرق بشري جديد... كذلك الطوفان يصور النزول الى الاعماق المائية كما يصور المعمودية"، "لذلك كان الطوفان صورة لما سوف تحققه المعمودية، وكما أن نوحاً واجه بحر الموت الذي قضى فيه على البشرية الخاطئة ثم خرج منه ظافراً، كذلك ينزل المعمد الجديد في البركة المعمدانية نفسها لمنازلة تنين البحر والخروج منها ظاهراً".

ويذهب فرويد الى ان الاغتسال بالماء يعني التطهر من إثم الجنس وتحول الانسان الآثم نفسه الى انسان طاهر. وفي رأي هيغل، فإن نفي النفي كتركيب جديد منفتح على حركة التاريخ وليس كدائرة مغلقة، يكشف عن علا قة جدلية بين الفكر والتعين، يتناوب الايجاب والسلب فيها الاماكن بصورة جدلية مفتوحة، وليس على شكل تعارض صوري ميكانيكي بين حالتين مختلفتين متناقضتين بالمطلق.

ان القرءات السابقة، البابلية والمسيحية والفرويدية والهيغلية تضرب الايديولوجيا الصهيونية في الصميم، باشتراكها، اي هذه القراءات، بالتأكيد على التبدلات الجدلية المزدوجة، والتي تتناوب الحالة نفسها، من خلال التوسط كحالة تعين تحيل اليهودية المقدسة الى واقع دنيوي مزدوج بالضرورة، يجعل التعين مضطراً لانتاج نفسه في واقعه الخاص، فيما تذهب الايديولوجيا الصهيونية الى إلغاء كل تعين، واستبدال معادلة العام ـ الخاص، كمعادلة تعين مزدوجة للحالة نفسها، بمعادلات المقدس والدنيوي، التي تقصر التعين على الدنيوي ولا تعترف بالتبدلات التي تطرأ على الحالة نفسها، بل تعترف بوجهين مختلفين لحالتين مختلفتين.

فحسب الكتب المقدسة، فإن النزول في الماء كتعبير مجازي او الاغتسال بعد الجنس، يبدو كتعين ضروري، يحيل الانسان الخاطيء نفسه الى انسان جديد ويحيل العقاب السلبي الى ندم ايجابي، الواحد من رحم الاخر، وليس بالتعارض المطلق معه حيث العربي في الايديولوجيا الصهيونية صورة لفرعون وكنعان، الدائمي الغرق واللذين ما ان يرفعا رأسيهما فوق سطح الماء حتى يغرقا من جديد، فلا يخرجان من ظلمات الخطيئة أبداً .

وحسب فرويد، فإن الاغتسال الذي يأخذ رمزاً آخر هو الاضحيات، حالة تعين أيضاً، تستدعي الندم، من خلال الطواطم او القرابين في اللحظة ذاتها التي تقوم باستدعاء نفسها كحالة عقاب.

وحسب هيغل، فإن الفكرة، لا تسترد نفسها، كفكرة قبل ان تتعين في الواقع وتنزل في الماء فيكون نفي الفكرة لنفسها في الواقع معادلاً للاغتسال في الماء، فيما هي في الايديولوجيا الصهيونية، فكرة مثالية مكتنزة بالمعرفة القبلية التي تنتجها كحالة بيولوجية عرقية، لا تتعين في الواقع، بل تتجلى على طريقة كيركغارد، كانبعثات قدسي، حدسي مقابل حياة الاخرين العادية الملوثة ! بخطايا الواقع، بما هو تاريخ وسيرورة.

ومثل ذلك، قراءات ارنست بلوخ التي تنطلق من تصوف لوريا ومن الافكار والتصورات السابقة ولكن في بحث دائم عن الممارسة السياسية لهذا التصوف وليس عن الممارسة الدينية.

كتب هابرماس حول ذلك:[١٠]"يم تصوف لوريا (Luria) أصل الكون بآلية انقباض وتركز. ان الله ينقبض على نفسه أو اذا جاز القول يدخل في منفى نفسه. وهذا ما يفسر سطوة المادة وقوتها وطابعها الاصيل الكامن في ممانعتها اي في كونها لا تخترق، اضافة الى ايجابية الشر الذي لا يمكن الغاؤه بجعله انتقاصا من الخير.

كما ان هذا الاصل الغامض لا يستبعد ان يكون هو نفسه من طبيعة الله او أنه يشكل طبيعة الله نفسها او ألوهية بالقوة ـ روح العالم، وهو ما يعني ان الله يساوي الفكرة الكامنة التي تنفي نفسها في التعين لتستعيدها في صورة ارقى.

اما ارنست بلوخ فهو حين استخدم التصوف اليهودي ودمجه بوجهة نظر ماركسية، استطاع ان يجمع بين اهتمام علم الاجتماع وفلسفة الطبيعة ليجعل منهما نظاماً يستلهم الفلسفة المثالية الالمانية كما لا يستلهمه حالياً أي نظام آخر. وخلال صيف ١٩١٨ صدر (حس الطوبا) الذي بيّن ثغرات الماركسية المقيدة بالاقتصاد: مثل هذه الماركسية تشبه، على حد قوله، "نقد العقل الصرف" الذي لا يستكمل "بنقد العقل العملي."

"لقد تم هنا تجاوز الاقتصاد، غير ان كل ذلك ينقصه روح وايمان لا بد من اعداد مكان لهما. إن النظرة الفعالة التي تتميز بحدة الذكاء قد دمرت كل شيء، ومما لا شك فيه انه كان من الصواب تدمير العديد منها.. وكذلك كان أمراً مشروعاً ان ترفض الاشتراكية التي بولغ بالتغزل بها والتي لم تكتسب الا عقلانية طوباوية، تلك الاشتراكية التي برزت من جديد في عصر النهضة من خلال الشكل العلماني لمملكة المسيح وغالبا كمجرد تمويه لا ينطوي على اي جوهر فعلي، كإيديولوجيا تعبر عن مصالح طبقية واضحة تماماً وعن الانقلابات الاقتصادية، غير أننا في الحقيقة لا نجد في كل ذلك ميلاً الى الطوبا او ما يقلل من

شأن هذه القيم أو ما يقودنا الى النيل من الدوافع الدينية العميقة.. المتمثلة بهذا التوق للتحقق في ا لله والاندماج بالخير والحرية والنورفي سياق الوجهة الالفية."

يصل المفهوم الذي جعل منه بلوخ مبدأ لمذهبه المادي التفكري الى هذه الاعماق. ان المادة تحتاج الى خلاصها، وذلك لان جميع الاشياء لم تعد تخلو منذ هذه الكارثة الالهية التي يصورها الزوهار على شاكلة "كسرة الأواني". وقد اصبحت على حد تعبير بلوخ صوراً مشوهة عن ذاتها. وبالحقيقة كانت مسيرة العودة الى العرش قد استكملت عندما أسقط آدم العالم وطرد ا لله الى المنفى من جديد.. وفي هذا العصر الجديد ترك العالم للناس انفسهم دون ان تغيب هذه الغائية القديمة المتمثلة بخلاص الانسانية والطبيعة

وهكذا تحول التصوف الى سحر باطني، وذلك لأن ظاهر الظاهر يبقى مرتبطاً بباطن الباطن. يضمن الزوهار في احدى عباراته القديمة الخلاص شرط ان تقدم جماعة واحدة على التوبة وانجاز القصاص بصورة كاملة، وهكذا تتحول الصلاة الى تحكم وتصبح بارزة على مستوى فلسفة التاريخ.

وفي فكر بلوخ تحل الممارسة السياسية مكان هذه الممارسة الدينية، فالفصل حول "ماركس الموت ورؤيا نهاية العالم" يحمل العنوان الفرعي الآتي: "على سبل العالم، كيف يمكن للباطن ان يتحول الى ظاهر" واننا نجد فيه المقطع الآتي:

"لقد شكلت المادة على الدوام عنصر إكراه ليس فقط بالنسبة لمن يسعى الى المعرفة بل بذاتها. وهي بمثابة بيت مهدم لم يجد الانسان مكاناً فيه أبداً. الطبيعة هي ركام من انقاض حياة مزيفة، فاسدة ضائعة وميتة..

وحده الانسان الذي يتذكر ويحرص على المفاتيح يستطيع في هذا الليل العدمي ان يجعل الفجر يطلع، هذا اذا لم ينجح الذين استمروا في حالة النجاسة باضعافه واذا انار ا لله بما يكفي دربه للمخلص ووضع في قلبه نعمة الايمان واليقين بحلول يوم الخلاص، حينها يحرك في ا لله القوى التي تجذبنا وتجذبه هو

نفسه، قوى الملكوت السبتي التي تحمل النفس والنعمة. فينتصر حينئـد ويقضـي في ظل الانتصار على هذا الحريق الشيطاني الخانق الذي يلوح من الرؤيا."

في كتابه المؤلف من خمسة اجـزاء حـول "مبـدأ الرجـاء" يعطـي بلـوخ تفسيراً فلسفياً لهذه الرؤية المبكرة، التي تكشف بصـورة أوضـح مـن أي عمـل لحقه، موقعه في تاريخ الفكر. وهو قد تخطى شيلينغ "عصور العالم" بمـاركس "مخطوطات ١٨٤٤".

ان ثراء الانسان والطبيعة بما هو الاصل الحقيقي لا يوجد في البدايـة بـل في النهاية، ولن يأتي الا حين يصبح المجتمع والوجود جذرين، اي حين يعودان الى جذرهما نفسه، والحال ان جذر التاريخ ليـس الا الانسـان العـامل والمنتـج الذي يصيغ المعطيات ويتجاوزها. وعندما يتوصل الانسان الى الامساك بمصيره ويؤسس الوجود في متن ديمقراطية حقيقيـة تخلصـه مـن الغفلـة وعـدم امتـلاك الذات، سوف يشهد العالم مـا يشـبه شـيئا مـا يـزال في طـور الطفولـة بنظـر الجميع وحيث لم يتواجد أحداً من قبل: موطن الانسان او مسقط رأسه.

وبما ان بلوخ يعود إلى شيلنغ وبما ان شيلنغ استعاد حين انطلق من روح الرومنطيقية ارث الكابال في الفلسفة البروتستانتية التي طبعت المثاليـة الالمانيـة، تبدو العناصر اليهودية التي تدخل في فلسفة بلوخ من هذا المنطلق عناصر المانية اصيلة، هذا اذا صح أصلاً ان نقيم مثل هذه التمايزات التي تجعل اي تصنيـف من هذا النوع أمراً مضحكاً.

٢/ب الصهيونية السياسية: لاسامية الآخر:

(١) تقديم اول:

كشفت حنة ارندت[١١] (Gamnah Arendt) من خلال دراستها للعداء للسامية متناولة نموذج باريس في اواخر القـرن، كيـف عمـل بعـض منـاصري السامية على استقبال ودمج اليهود المثقفين عامدين الى مجـاملتهم بطريقـة تثـير

الدهشة: "إن أصلهم اليهودي بات خفياً لا يلحظه احد. ويعني ذلك ان عليهم ان يكونوا يهوداً ولكن ان لا يظهروا شبيهين باليهود."

و"قد حول الترجح الملتبس كل واحد منهم الى ممثل فعلي، ولكن على مسرح حيث الستارة لا تسدل أبداً، حتى أن هؤلاء الناس أصبحوا، بعد أن حولّوا حياتهم كلها الى دور مسرحي عاجزين عن تعيين هويتهم الحقيقية حتى بينهم وبين انفسهم. أما وسط الحياة الاجتماعية فكانوا يترصدون أقرانهم بصورة غريزية ويكتشفون أنفسهم آليا في هذا المزاج القريب من الغطرسة والخوف الذي كان قد طبع أو حدد كل تصرف من تصرفاتهم. ومن هنا نفهم هذه الابتسامة المعبرة عن التواطؤ الجماعي التي يصفها بروست (Proust) بأدق تفاصيلها، وهي ترافق نوعا من التغاضي، تغاضي جميع الموجودين بصورة لا تخلو من غرابة عن ذلك اليهودي الذي ما يزال، رغم كل شيء، يتردد على صالون الكونتسا آنتيل (Untel) يجلس في الزاوية ولا يحق له ان يكشف عن هويته، وهو لم يكن ليصل الى مثل هذا المكان المرغوب دون هذا التفصيل الذي يبقى دون اهمية ـ وهو ما يعطي لمثل هذه المواقف طابعها العبثي.

لقد اصبح اليهود الذين كان يرد الموقف المتصلب منهم الى "طبعهم الشيطاني الغامض" الناتج عن "تبديل القناع" شديدي الحساسية حيال ما يتصف به الوجود الانساني من طابع مسرحي. واذا ما قرأنا تحليل سيمل في هذا المجال، إنطلاقاً من هذه الحساسية ينكشف لنا مدى طوابيته.

"اننا لا نفعل فقط ما ترغمنا عليه نوازل القدر والحضارة من الخارج. اننا نمثل حكماً شيئاً ما لا يمثل حقيقتنا... من النادر جداً ان يحدد الانسان نمط كينونته حصراً إنطلاقاً مما يعتبره الأكثر حميمية في وجوده. فغالبا ما نقوم بملء شكل موجود قبلاً بأسلوبنا الشخصي في الوجود. وهناك أيضاً محور رئيسي لتطوره المتروك لذاته، غير انه لا يتخلى رغم ذلك بصورة كلية عن كينونة هذا التطور: انه يملأ هذه الغيرية بإنيته الوجودية ويتحكم بتياراتها

المنبثة بعروقه ويستقبل آثارها في بنية مخصوصة تميز عمق وجوده، وذلك رغم انها تتدفق في مجرى مرسوم سلفا - انها المرحلة الاولى من الفن المسرحي... ومن هذه الحيثية فإننا جميعاً ممثلون بمعنى ما."

وكذلك وصل هلمونت بلسنز (Helmut Plessner) انطلاقاً من "انثروبولوجيا الممثل" الى الانتروبولوجيا بصيغتها العامة. اي ان الانسان لا يعيش ببساطة مثل الحيوان المرتكز الى جسمه. بل انه يحاول، على العكس من ذلك، ان يبتعد عن هذا التركيز، وان لم يستطيع تخطيه كلياً. اي أنه يرى نفسه مرغماً دوماً على التصرف تجاه ذاته وتجاه الاخرين، وان يعيش حياة يخرجها هو بنفسه انطلاقاً من قواعد الاخراج التي يمليها عليه المجتمع: "من حيث كونه علاقة مع ذاته يبدو الممثل شخصية تلعب دوراً بنظر المشاهد وبنظره هو أيضاً. وضمن علاقة التناسب، هذه، لايقوم الممثل والمشاهد الا بتكريس المسافة بين الانسان ونفسه وبينه وبين الاخرين، تلك المسافة حيث يقطع حياته اليومية..

من أين تأتي حقيقة هذا الطابع الجدي الخاص بالحياة اليومية، إن لم يكن من ادراك الانسان أنه مكلف بالدور الذي يريد أن يلعبه في المجتمع؟ الحقيقة أن هذه اللعبة لا تسعى الى التمثيل .... فالتقاليد التي ولدنا في متنها تعفينا من رسم صورة دورنا الاجتماعي. فرغم كل شيء علينا، من حيث اننا مشاهدون بالقوة لانفسنا وللعالم، أن ننظر الى العالم بوصفه شهيداً..."

(٢) تقديم ثاني: المصادر الالمانية:

رغم أن الحركة الصهيونية ولدت سياسياً في مناخات الاهتمامات البريطانية والفرنسية للشرق العربي، إلا إن الايديولوجيا الصهيونية كانت في مختلف تلاوينها صورة للتيارات التي ظهرت داخل الفلسفة الالمانية خلال المرحلة الانتقالية التي مرت بها المانيا في القرن التاسع عشر، مع فارق هام هو أن درجة التطور الموضوعية التي كانت تشد المانيا الى الامبريالية او التي كانت ترى

فيها متخلفة عن مثيلاتها الاوروبيات وتغذيها بالروح الاقطاعيـة لم تكـن قائمـة يهودياً، لأن اليهود، وبكل بساطة، لم يشكلوا أبسـط عنـاصر المجتمـع الطبيعـي، فضلاً عن أن إنتهاء الوظيفة الربوية التقليدية الاقطاعية لليهـود داخـل علاقـات رأسمالية متطورة حوّل مفترق الطرق الالماني الى محض كاريكاتور في المحـاولات الصهيونية، فاتضح أن الأبعاد السياسية والأبعاد الايديولوجية في الحالـة اليهوديـة ليست نتاج قانون خاص، بل تعبيرات عن الاصل الالماني في بعديه:

١ـ اعتبار اليهود، كما الالمان أمة تامة منذ فجر التاريخ، استمرت رغـم التاريخ، والتعرف على الذات بدلالة هذا الاعتبار الذي ينطوي علـى لاسـامية خاصة قوامها الداروينية الاجتماعية.

فحيث كانت الوظيفة الربوية التقليدية الاقطاعية اليهودية تختفي، كانت المانيا الرأسمالية تقف على قدميها وتندمج بقوة في الرأسمالية العالمية، وبالتالي لم تكن الصهيونية السياسية صاحبة مشروع تعـين يهـودي في دولـة قـادرة علـى ترجمة هذا المشروع في قلب العالم الرأسمالي كما كان الحل الالماني، بل كظـل لهذا العالم وعلى هامشه وكمظهر خاص له وراء البحار، مما استدعى سياسـياً، الحديث عن لاسامية الآخر، لاسامية قايين، بدلالة لاسـامية انـا مسـتعارة مـن الآخر، ومن الداروينية الالمانية خصوصاً.

واذ بـدا ان هيغـل، قاسـم مشـترك للتيـارين المذكوريـن في اطـــار الايديولوجية الصهيونيـة في بعدهـا السياسـي، فقـد جـرى تحريفـه وتأويلـه في المرتين، بما يخدم هذه الايديولوجيـا عمومـاً، حيـث أدت الصهيونيـة السياسية بدلالة لاسامية الآخر الى تصفية الجوانب التاريخية في الجدل الهيلغي انطلاقاً من ميتافيزيقا ارضية، سياسية، مصدرها الداروينية الاجتماعية والفلسـفة الحيويـة، فيما تكفلت لاعقلانية الصهيونة الحلولية بدلالة لاسامية انا يهودية، بتصفيـة الجوانب المادية في الجدل الهيلغي انطلاقا مـن ميتافيزيقـا، مثاليـة، ايديولوجيـة اخلاقية، مصدرها الشيء في ذاته عند كانط، والجدل الكيفي، الصـوفي، عنـد كيركغارد، والحدس عند شيلنغ.

٣ ـ الفكرة تسترد ذاتها بتوسط الواقع الامبريالي:

بخلاف الصهيونية الروحية التي اعادت الفكرة المطلقة الهيليغية الى شيلنغ ـ كيركغارد، والفكرة الى نفسها بدون توسط الواقع، فإن ايديولوجيا التعين السياسي الصهيونية لا تعترف بالفكرة إلا من خلال تلمسها نفسها بوسيط مادي يستعيدها من جديد.

فحيث كانت الفكرة الهيغلية حاضرة في ايديولوجيا الوصيد بصورة مثالية عرفانية، فهي في ايديولوجيا ـ التعين السياسي، حاضرةبصورة مادية مبتذلة، نتعرف فيها علي اسرائيل كتعين خاص للرأسمالية العالمية التي اصبحت تعادل الفكرة الكلية، كما تتحول فيها المقابلات المفارقة من مقابلات مثالية ايديولوجية خارج التاريخ عند الصهيونية الروحية الى مقابلات حية سياسية داخل التاريخ الرأسمالي وبدلالته.

ـ فإذا كانت الصهيونية الروحية، من خلال غرق كنعان ـ فرعون ونجاة نوح وخلوده قد ألغت المعنى المسيحي المزدوج للماء (الطوفان وشق البحر امام فرعون) والندم، وكرست المعني اليهودي الرعوي الوحشي السبري (الخطيئة والعقاب) وذلك لإعادة انتاج كنعان وفرعون داخل دائرة الخطيئة ـ العقاب الى ابد الدهر، فإنها في ايديولوجيا التعين كانت خاضعة للفهم المسيحي "الخطيئة والندم" حيث ان نوح الخالد المقدس لم يعد نوح المسيحي الرأسمالي العالمي كما لم تعد لاسامية الانا اليهودية قادرة على اشتقاق سياسي بحضور الآخر الغربي. كما ان استحقاقات الصراع مع قايين لم تعد تستدعي العقاب بل الندم، اي الخضوع.

ـ اذا كانت اسرائيل صورة مصطفاة معاصرة لنوح الذي اصطفاه ا لله من بين بني البشر الخطائين وأعاده الى السماء بعد الطوفان، عند الصهيونية الروحية، فهي في ايديولوجيا التعين السياسي حالة خاصة متعينة مرتبطة بالارادة الكلية للغرب ولاحتياجات الصراع الملموسة المعادلة لما يمثله صراع

نوح مع هولة البحر التي تأخذ في ايديولوجيا التعين صورة للقوى المتحفظة على سيطرة القوة الكلية الجديدة في روحها الر أسمالية.

ـ اذا كانت لاسامية الانا اليهودية قد استندت الى الماضي من خلال الوظيفة اليهودية الربوية القديمة، وباستعارة كانط الشيء في ذاته ومونادات ليبنتيز وكيركغارد لتركيبهم على نوح المصطفى وهابيل وابراهيم المتجولين كدلالة عزلة قدسية ضد الاندماج فإن يهودية لاسامية الاخر استندت الى الحاضر ـ المستقبل الامبريالي من خلال الوظيفة اليهودية الجديدة كمظهر سياسي خاص متعين لهذا الاخر، إنطلاقاً من الرفض الشكلي لمنطقه والقبول الجوهري بقانونه.

وكما لاحظ فرويد فاليهود مثل الشخص السوداوي الذي يتجه نقده الذاتي لا نحو ذاته بل نحو الموضوع المبغض الذي امتصه واستدمجه في ذاته.

واذا كانت الاولى، لاسامية الانا اليهودية، صورة عن هابيل المتجول، فإن الثانية، يهودية لاسامية الاخر، تقدم نفسها بدلالة الاخر "قايين" بصورة مماثلة للتحريض القديم الذي ادخلته التوراة على المناظرة السومرية (اينتن الفلاح واينميش الراعي) حيث نكتشف ان القراءة الصهيونية الراهنة كتعبير عن موقع اليهود في عالم اليوم الامبريالي، صورة للقراءة اليهودية القديمة كتعبير عن هذا الموقع في عالم الامس العبودي ـ الاقطاعي.

ان اليهودي المتجول كمرابي وسط عالم رأس المال صورة ما لما كان عليه وسط الشرق الفلاحي القديم، ولكن الصهيونية كما التوراة قدمته دوماً كضحية لهذا الاخر وليس ضحية لوظيفته الربوية.

وبدلاً من رؤية الاندماج في الاخر كان الحل هو البحث عن التعين الخاص بدلالته كوصيد مقدس في حالة الصهيونية الروحية وكدولة خاصة متعينة على نحو قدسي بدلالة الاخر الدنيوي في حالة الصهيونية السياسية.

فإذا كانت حالة التعايش بين هابيل ونمط الانتاج الرعوي، وبين قايين (نمط الانتاج الزراعي ـ الرعوي) في الاسطورة السومرية تتنافى مع حركة

التاريخ، التي تذهب الى ان كل حقبة تتعدى سابقتها بمخاض دموي طويل، فإن الاسطورة السومرية لم تغادر التاريخ كما فعلت القراءة التوراتية التي لم تعترف بالصراع الدموي الا لتشده من اذنيه الى الوراء كثيراً.

واذا كانت القبائل الرعوية اليهودية، بحاجة في ذلك الوقت الى ايديولوجيا ربانية تفسر تخلفها إزاء شعوب سوريا الجنوبية الفلاحية، فقد وجدت الايديولوجيا الصهيونية في العصر الامبريالي ما يساعدها على تسويق نفسها بصورة مختلفة لحاجة الاسباط اليهودية القديمة.

لقد كانت ايديولوجيا العزلة في السابق، حاجة داخلية أملتها علاقات الانتاج الداخلية المختلفة، اما ايديولوجيا العزلة الحالية، فكانت حاجة الامبريالية الايديولوجية، فكانت ايديولوجيا العزلة، بدلالة ضدها (الاندماج) في السابق ايديولوجيا التعين في التاريخ، فيما ايديولوجيا العزلة، بدلالة ضدها الاندماجي اليوم، ايديولوجيا المظهر الخاص للتعين خارج الاندماج.

ولذلك ظل خطاب هذه الايديولوجيا مسكوناً بالآخر (اللاسامي) ليس من أجل تفسير التناقض معه، كما يبدو، حيث لاتناقض، بل من أجل تبرير المظهر الخاص لقانونه، فهو الوحيد الذي يسمح للصهيونية بإعادة انتاج نفسها خارج الاندماج.

يقول هرتزل في كتابه "الدولة اليهودية" :-

"لايستطيع اليهود ان يعيشوا بإنسجام مع غير اليهود فالمجتمعات غير اليهودية لاسامية الى حد كبير، ولذلك كان على اليهود التركيز على الخصوصية اليهودية المنبعثة من صفاتهم المختلفة...

ويقول بينسكر في كتابه "التحرر الذاتي":(١٢)

"ان اليهود يشكلون عملياً بيئة منعزلة عاجزة عن التمثل مع أية امة، ولذا لا تستطيع أية أمة أن تطيق اليهود في بيئتها).

اخيرا ، لم تكن روح موسى ونوح هي التي تحلق فوق صهاينة القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وهم يحاولون دفع يهود اوروبا الشرقية الى

فلسطين، كما كـان موسـى يدفـع اليهـود نحـو صحـراء سيناء، ونـوح يدفـع عشـيرته الاقربـين الى بـر البحـر، مصوريـن لهـم انـه الخـلاص الحقيقـي، ليـس الاندماج مع أهل الجبل والشعب المصري، حيث سيحل الطوفان او الطاعون، بل في العزلة، حيث ستهبط الالواح في الطـور والسـفينة خلـف الحمـام، فقـد كانت الروح الحقيقيـة الـتي حلقـت فـوق هـؤلاء الصهاينـة روح شافتسـبري وكامبل بنرمان ونابليون بونابرت، حيث لم يكن ممكناً ترويج العنابر الرأسمالية الا باستحضار صورة الطوفان والخروج من مصر، التي اعتقدوا انها تقـدم مـن المقاربات الاسطورية ما يكفي لتنشيط الذاكرة اليهودية.

فصعوبة العيش مع الشعوب الاوروبية، صورة عـن صعوبـة العيـش مـع الشعب المصري واهل سدوم والخروج من اوروبا صورة للخـروج مـن مصـر والبحر الميت وكتاب (الدولة اليهودية) لهرتـزل صـورة لالـواح النبي موسـى ومحاكمة درايفوس صورة لمحاكمـة موسـى في بـلاط فرعـون ولمحـاولات أهـل سدوم الاعتداء على ملائكة الرحمن وكل اندماج يمسح الخطيئة التي يجب على الاخرين اللاساميين، دفع ثمنها بالغرق او الطاعون.

٤ ـ الفكرة في ذاتها: هرم بورشوف المقلوب:

ينطلـق بـر بوروشـوف (Ber Brovochov) مــن ان التركيبــة الطبقيــة اليهودية السائدة "الطبقة الوسطى" لم تعد ملائمة وانتهت تاريخياً، وهي عملياً خارج الطبقة التاريخية الحيوية، مكرراً انتقـاد هيغـل لانتقـال ابراهيـم مـن اور الزراعية الى الرعي، فالذات الفاعلة لا تحقق نفسها الا من خلال العمل.

ويتابع بر بوروشوف ذلك في مؤلفه المنشور عـام ١٩٠٥ تحـت عنـوان "الطبقة والامــة" والـذي جـاء فيـه ان: "الانسـانية تنقسـم الى امـم وطبقـات. وكـانت الامـم موجـودة قبـل ان تتجـزأ الى طبقـات. وتبقـى في حـين تتغـير الطبقات .. وقد تعرضـت الامـم مـن وجهـة نظـر الثقافـة لمختلـف التأثـيرات والتغيرات، ولكنها بقيت في اساسها كما كانت سابقاً".[١٣]

وعندما تغيب الارض والطبقة، يكون دور الطبقة استعادة الارض وحل المسألة القومية كإطار للصراع الاجتماعي لاحقاً. فالارض هي "اهم هذه الشروط الانتاجية (وهي) القاعدة التي تقوم عليها الشروط الانتاجية الاخرى."

وعندما تكون "شروط الانتاج" في وضع "غير طبيعي"، كما في حالة انعدام احد هذه الشروط كالارض مثلا، تظهر المسألة القومية حينئذ كصراع بين الحركة القومية المعبرة عن مصالح القوى الانتاجية الصاعدة والوضع "غير الطبيعي" الذي توجد في ظله "شروط الانتاج" فتتوافق مصالح افراد الامة وتضعف التناقضات الطبقية ويتقوى شعور التعاضد القومي يوماً بعد يوم." ويأخذ الصراع القومي احيانا ـ حسب بوروشوف ـ طابع المنافسة بين عمال الامم المختلفة لاحتلال اماكن العمل، "فطوال الفترة التاريخية التي تكون خلالها مكانة العمل القومي غير أكيدة ومضمونة(...) فإن المسألة القومية تستبق، من حيث الاهمية، الطبقية. والدفاع عن مكانة العمل يشغل العامل اكثر بكثير من النضال الطبقي."(١٤)

هكذا، انطلق تحليل بوروشوف للمسألة اليهودية في بداية القرن العشرين من اعتبار اليهود "امة قائمة في ظل شروط انتاج غير طبيعية"، وبخاصة بسبب عدم توفر "الارض القومية" الخاصة بهم. وقد شبه بوروشوف التركيبة الاجتماعية لكل امة من الامم بهرم مركب من طبقات اجتماعية تقوم الواحدة منها فوق الاخرى وذلك حسب بعدها أو قربها من عمليات الانتاج الاساسية:

"طبقة عريضة من العمال والفلاحين في قاعدة الهرم، تأتي فوقها طبقة من مستخدمي الخدمات العامة والنقل وفئة الحرفيين وفي قمة الهرم تقوم فئات المالكين واصحاب الاعمال والمثقفين.. وعند تحليله لتركيبة اليهود الاجتماعية، وبخاصة داخل حدود الامبراطورية القيصرية، وجد بوروشوف ان تركيبتهم تبدو وكأنها "هرم معكوس."

فالحل، إذاً ـ حسب بوروشوف ـ هو السعي لقلب "الهرم المعكوس" واقامة مجتمع يهودي "طبيعي"، مشابه لمجتمعات الامم الاخرى. وقد كان هذا يعني عملياً بأن يسعى اليهود للحصول على أرض خاصة بهم، وأن يقيموا فوقها "دولتهم القومية"، ويضمنوا لأنفسهم قيام "شروط انتاج طبيعي"، ويتحولوا الى عمال والى فلاحين بهدف قلب "الهرم المعكوس"، وتغيير طبيعة تركيبتهم الاجتماعية. وهكذا وصل تحليل بوروشوف الى الاستنتاج بأن حل المسألة اليهودية لن تأتي عن طريق النضال في سبيل "الاستقلال الذاتي القومي الثقافي" كما كان يطالب البوند، ولا عن طريق الاندماج والنضال الى جانب القوى الثورية المحلية في سبيل الثورة الاجتماعية، وإنما عن طريق الهجرة المنظمة الى المكان الذي يوفر لليهود امكانية تغيير تركيبتهم الاجتماعية ويسمح لهم بالنفاذ الى مرافق الانتاج الاساسية، وطبعا هذا لن يتحقق الا في اطار بلد متخلف، لا يملك اقتصاداً رأسمالياً متطوراً، بحيث تسمح بنيته الاقتصادية للجماهير الفقيرة من المهاجرين اليهود بالنفاذ الى مرافق الانتاج الاساسية.

وقد أكد بوروشوف في تحليله لمواقف الطبقات الاجتماعية المختلفة من المسألة القومية، على ان الطبقة العاملة هي الطبقة الوحيدة التي تقف دوما موقفاً واقعياً وتقدمياً وثورياً " تجاه المسألة القومية، وأنها الطبقة ذات المصلحة الاكيدة في وجود "شروط انتاج طبيعية."

ان المهمة الرئيسية للطبقة العاملة تكمن إذاً ــ حسب بوروشوف ــ في خوض النضال لحل المسألة القومية، وضمان قيام "شروط انتاج" طبيعية، وذلك لتتمكن بعد ذلك من التفرغ لانجاز مهام النضال الاجتماعي والثورة الاشتراكية.[١٥]

فبعد تحقيق انجاز الهدف القومي "تنتهي مهمة القومية الواقعية (قومية البروليتاريا)..وعوضاً عن التضامن القومي السابق، التضامن الاجباري

المفروض وغير الطبيعي، تتشكل بنية طبقية سليمة، تسمح بخوض صراع طبقي حقيقي."

وعلى غرار الطبقة والامة، وبوحي منه اشتقت الحركة العمالية الصهيونية كل المسوغات النظرية والعملية في بناء الدولة الصهيونية وتحويل التعارضات الثانوية الى نقاط قوة داخل المنظومة العضوية لفلسفة هذه الدولة. فحسب بن غوريون فإن اسرائيل تصبح ملكنا عندما يكون عمالها وحراسها من صفوفنا.. فبدون العودة الى التراب والعمل اليدوي وجعله أساس حياة قومية مستقلة لن يكون بامكاننا تحقيق الدولة. وحسب غوردن صاحب كتاب دين العمل "فإن شعباً تعوّد جميع انماط الحياة ما عدا النمط الطبيعي لن يصبح شعباً حياً."(١٦)

أما أبرز التعبيرات العملية لتصورات بوروشوف فهو حزب بوعالي تسيون، وتأسيس الكيبوتز الذي سعى الى دمج جماعات قومية طبقية مختلفة من خلال اشكال عمل جماعية.(١٧)

٥ ـ الفكرة لذاتها: تجربة بوعالي تسيون:

كما يعتبر بربورشوف المنظر العملي للحركة العمالية الصهيونية، يعتبر بوعالي تسيون الترجمة العملية لكتابات بر بورشوف.

وقد تأسس الفرع اليهودي باسم الفرع الفلسطيني، لـ بوعالي تسيون العالمي، عندما قررت مجموعة من انصار البوعالي تسيون الروسي، في مطلع القرن العشرين، الانتقال الى فلسطين للمساهمة في عملية "التجميع الاقليمي للشعب اليهودي" والنضال من اجل ضمان نجاح الحل "الاشتراكي" للمسألة اليهودية.

وبوصول هذه المجموعة، ومع تشكل حزب البوعالي تسيون الفلسطيني في العام ١٩٠٦، ارسيت اسس الحركة العمالية اليهودية في فلسطين.(١٨)

هكذا نشأت الحركة الشيوعية في قلب التجمع الاستيطاني اليهودي وتعاملت مع التجمع الاستيطاني اليهودي كمجتمع طبقي عادي واشتركت في انتخابات مجلس النواب الصهيوني الثاني ١٩٢٥.

وكان هذا يعني موافقتهم على الحل الاستعماري الصهيوني للمسألة اليهودية في فلسطين تحت عناوين ايديولوجية يسارية وهمية عن الصهيونية البرولتيارية والاشتراكية اليهودية التي ستضمن مصالح الكادحين العرب في اطار الدولة اليهودية وذلك بتغييب العرب كأمة واصحاب حق تاريخي في ارضهم.(١٩)

وقد طرحت مسألة العلاقة مع الواقع العربي، للمرة الاولى، على جدول اعمال الحركة العمالية اليهودية في فلسطين، في المؤتمر التأسيسي لحزب البوعالي تسيون الفلسطيني، الذي انعقد في مدينة يافا في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٦. ففي ذلك المؤتمر، دارت نقاشات حامية حول الموقف الذي ينبغي على الحزب اتخاذه حيال مسألة العلاقة مع العمال العرب، حيث ظهر ان مندوبي المؤتمر كانوا ينقسمون الى اتجاهين رئيسيين. اتجاه الاغلبية، وكان يدعو الى تأسيس منظمة عمالية تقتصر على العمال اليهود، وتمتنع عن القيام بأي نشاط نقابي بين العمال العرب. واتجاه الاقلية، الذي دعي بإسم "اتجاه روستوف"، وكان يدعو الى اقامة منظمة عامة لجميع عمال فلسطين. وقد حسمت هذه النقاشات، في ختام اعمال المؤتمر، لصالح اتجاه الاغلبية حيث اقر مندوبو المؤتمر التأسيسي لحزب البوعالي تسيون الفلسطيني مبدأ اقامة "منظمة للعمال اليهود فوق ارض ـ اسرائيل ـ فلسطين"، واعربوا عن رفضهم لفكرة القيام بأي نشاط نقابي بين صفوف العمال العرب.

ولقد كشف هذا الموقف المبكر، الذي اتخذه المؤتمر التأسيسي لحزب البوعالي تسيون الفلسطيني، تجاه مسألة العلاقة مع العمال العرب، حقيقة التناقض بين الصهيونية والاشتراكية، وأظهر أن مبادىء "المنافسة القومية" على العمل، لا يجمعها أي تماسم مشترك مع مبادىء التضامن الاممي البروليتاري.

وبالفعل فإن محـاولات التوفيـق بـين الصهيونيـة والاشـتراكية لم تستمر طويـلا .. فمـع ان اتجـاه الاقليـة "المثـالي"، داخـل حـزب البوعـالي تسـيون الفلسطيني، قـد بقـي، لفـترة، مصـراً علـى موقفـه، بـالدعوة الى اقامـة منظمـة مشتركة للعمال اليهود والعرب، ومع انه سعى فعلاً، من أجـل تنظيـم العمـال العرب وقيادة نضالاتهم، الا انه قد تبين عشية الحرب العالمية الاولى، ان قيـادة الحركة العمالية اليهودية في فلسطين قد حسمت موقفها، وبشكل نهائي، مـن مسألة التعارض بين الصهيونية والاشتراكية، وذلك بالممارسة العملية، اذ تبنت الاولى وتخلت نهائياً عن الثانية.(٢٠)

ترك اندلاع الحرب العالمية الاولى وانتصار ثـورة اكتوبـر الاشـتراكية في روسيا، تأثيراً كبيراً على الحركة العمالية اليهودية في فلسطين، كمـا أدى الى احتدام عملية التمايز السياسي والايديولوجـي بـين صفوفهـا. فقـد شمـل تأثـير ثورة اكتوبر فلسطين كغيرهـا مـن بلـدان العـالم وسـاعد علـى انتشـار افكـار الاشتراكية العمليـة فيهـا، وكذلـك فـإن احتـلال فلسـطين مـن قبـل انكلـترا، والتعاون المكشوف بين المنظمات العماليـة الصهيونيـة والامبرياليـة البريطانيـة، ومظاهر العداء الشوفيني للعرب، كل ذلك خلق الظـروف الموضوعيـة المواتيـة لتشكيل تيارات أكثر إستعداداً للحـوار مـع خـط الاممية الشـيوعية المنـاهض للمشروع الصهيوني داخل الحركة العماليـة اليهوديـة في فلسـطين، وتبلـور في تشرين الاول ١٩١٩ بتنظيم حزب العمال الاشتراكي في فلسطين.(٢١)

لكن اعضاء بوعالي تسيون الذيـن شـكلوا حـزب العمـال الاشـتركي (م.ب.س) كجناح يساري (صهيونية بروليتارية) لم يلقوا القبـول مـن القيـادة العالمية لبوعالي تسيون. وقد رفضت هذه القيادة كلمة ممثل الحـزب مايرسـون (مئيرزون) ثم عاودت الاعتراف به كفرع له لاحقاً عام ١٩٢١، مقابل اضافة كلمة عبري(٢٢) (م.ب.س.ع) . وكانت الاتصالات الاولى بين يسار بوعـالي تسيون واللجنة التنفيذية للكومنترن قد بدأت في اوائل سـنة ١٢٩١. وبنتيجـة هذه الاتصالات تبين ان الخلاف بين الطرفين يتناول قضايا مبدأية تدور حول

مسألة فلسطين والمشروع الصهيوني وشرعية الوجود التنظيمي المستقل ليسار بوعالي تسيون.[٢٣]

وفي مؤتمره الثاني، الذي انعقد في تشرين الاول(اكتوبر) ١٩٢٠، أعرب حزب العمال الاشتراكي، ومن جديد، عن قناعته، أن "الصهيونية البروليتارية" لا تتعارض "مع مصالح العمال والفلاحين العرب، بل هي على العكس، تتوافق مع مصالحهم"، واشار الى أن اقامة "مركز عمالي يهودي – عربي في البلاد"، بات يتطلب السعي من اجل قيام حزب اشتراكي ثوري موحد في فلسطين يقوم على قاعدة فرعين قوميين: فرع يهودي وفرع عربي. وفي مؤتمره الثالث، الذي انعقد في نيسان(ابريل) ١٩٢١، خطا الحزب خطوة عملية ملموسة، على طريق اقامة الحزب الثوري الموحد، حين تبنى اسم: "الحزب الشيوعي اليهودي ـ بوعالي تسيون" معتبراً نفسه بمثابة "الفرع القومي اليهودي" الذي سيشكل، فيما بعد، مع "الفرع القومي العربي" بعد قيامه، الحزب الشيوعي في فلسطين.[٢٤]

كان م.ب.س.ع قد عقد مؤتمره الثالث بمدينة يافا في الفترة بين ٢٢و٢٥نيسان(ابريل)١٩٢١، وقد شارك في هذا المؤتمر ٢٦ مندوباً ممثلين عن: حيفا، يافا ــ القدس . . .، ومندوبين عن اللجنة المركزية للحزب ومنظمات الشباب والنساء . لقد بدا هذا المؤتمر الموالي وكأنه المحاولة الاخيرة لإيجاد قاعدة مشتركة بين التيار المعادي للصهيونية والتيار الموالي من حيث الجوهر لها. وفي بداية اعماله كان المؤتمر قد اكد على دعمه ليسار الاتحاد العالمي لـ بوعالي تسيون وذلك من حيث كونه المنظمة القيادية الوحيدة لجميع الشيوعيين اليهود. وأقر المؤتمر التوصية التي سبق للجنة المؤتمر الثاني للاممية الثالثة، لكنه اشترط موافقة اللجنة التنفيذية للاممية على اعتبار المؤتمر الثاني العالمي لبوعالي تسيون ممثلاً لجميع الشيوعيين اليهود في العالم، بما يحمل ذلك من اصرار على رفض اندماج الشيوعيين اليهود واليهود ككل في المجتمعات التي يعيشون فيها والاحزاب العالمية القائمة هناك، ان هذا وحده يكفي للدلالة

على عمق التأثيرات الصهيونية على الحزب في تلك الفترة. وقد أكد المؤتمر ذلك عند توجيهه الدعوة لاعضاء البوعالي تسيون للقدوم الى فلسطين بهدف تقوية الحزب "الضعيف والملاحق" وذلك كله تحت شعار "الانضباط الشيوعي".[٢٥]

في المقابل كان التيار المعادي للصهيونية يدفع بهذا الشكل او ذاك باتجاه الخروج بقرارات تحمل طابعه، وقد تمكن من انتزاع بعض القرارات الثانوية في هذا الاتجاه، اذ أقر المؤتمر قراراً يعتبر الهستدروت "منظمة نقابية غير مهمة بالنسبة لنضال العمال، بل انها تمثل اطاراً جديداً للمضي ضد مصالحهم". وقد دعا جماهير العمال في فلسطين للنضال من اجل "تحطيم الاحزاب الخائنة وتحطيم الهستدورت، واقامة منظمات عمالية حقيقية مكانها"، وأكد أن المنظمة الصهيونية ليست الا "المعبر عن المصالح الطبقية للبرجوازية الصغيرة اليهودية للمستوطنين اليهود، (واداة) في يد المنظمات الصهيونية الرجعية."

بعد ذلك خطا مؤتمر م.ب.س.ع. خطوة صغيرة نحو الجماهير العربية فقيّم نتائج المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث الذي عقد قبل فترة قصيرة، واعلن عن اعترافه بمؤتمر الحركة الوطنية من حيث كونه "المعبر السياسي عن الطبقات المستغلة داخل المجتمع العربي" لكنه الى جانب ذلك، دعا للنضال من اجل خلق حركة عمالية وفلاحية عربية قادرة على خوض النضال ضد "الحركة القومية الشوفينية" بما يتضمن ذلك من تثبيت ليهودية الحزب الشيوعي القائم في البلاد.

رغم هذا التقدم البسيط الذي احرزه التيار المعادي للصهيونية في م.ب.س.ع. إلا أنه من الواضح ان الاساس الايديولوجي والسياسي للحزب ما زال منغرزاً بعمق في أرض الصهيونية.[٢٦]

وقد حاول انصار حزب العمال الاشتراكي، بعد انتهاء اعمال مؤتمرهم الثالث، استغلال الاحتفالات التي تجري بمناسبة الاول من ايار (مايو)، ليظهروا ان امكانيات التآخي بين العمال اليهود والعرب قائمة فعلا في البلاد.

وظهر أن البيـان الـذي وجهـه الحـزب بالعبرية وباليديشية الى جماهـير العمال اليهود قد اختلف اختلافاً ظاهراً عـن البيـان الـذي وجهـه بالعربيـة الى جماهير العمال العرب. ففي حين دعا البيـان الاول جماهـير العمـال اليهـود الي تصعيد نضالهم في سبيل تحقيـق مبـادىء البوعـالي تسـيون "الشـيوعية"، اغفـل البيان الثاني، بشكل تام، الاشارة الى مبادىء "الصهيونية البروليتارية."(٢٧)

وبالفعل فقد مضي الاتحاد العـالمي لبوعـالي تسـيون نحـو مؤتمـره العـالمي الذي عقد في مدينة دانزيغ خـلال شـهر حزيـران(يونيـو) سـنة ١٩٢٢. وقـد جاءت قراراته لكي تؤكد رفضه لشروط الاممية الشـيوعية، حيـث صـدر عنـه القـر ار التـال: "علـى الرغـم مـن ارادة حركتنـا القويـة بالانضمـام الى الاممية الشيوعية، فإنها ترفض بصورة قاطعة وبالاجمـاع متطلبـات الامميـة الشـيوعية، على الصعيد التنظيمي، الا على قاعدة برنامج واضـح يـأخذ باعتبـاره شـروط حياة وتواجد الجماهير العمالية اليهودية."(٢٨)

وللخروج من هذه الازمة عقد يسار بوعالي تسيون مؤتمراً له في فينـا في تموز ١٩٢٢ وذلك لتحديد الموقف النهائي من شروط الكومنترن. وقد انتهـي النقاش الحاد الذي شهده المؤتمر بانشقاق هذا اليسار بعد ان رفضت الاكثريـة قبول انذار الكومنترن.(٢٩)

وفي عـام ١٩٢٢، احتـدم الصـراع الايديولوجـي الدائـر في صفـوف الحزب، منذ تأسيسه، احتداماً شديداً؛ وكانت النقاشات تدور بالاساس حول الموقـف مـن "الصهيونيـة البروليتاريـة"، ومـن قضيـة الانتسـاب الى الامميـة الشيوعية. وبالطبع، كانت ثمة علاقة جدلية بين القضيتين، حيث كان انتساب الحـزب رسميـاً الى صفـوف الامميـة مرهونـاً بتخلصـه مـن بقايـا الايديولوجيـة الصهيونية، وبقطعه لكافة الروابط التي تربطه بالاتجاهات "الاشترا كية" داخـل الحركة الصهيونية. وقد تمخض ذلك الصراع، في المؤتمر الرابع الذي انعقد في شهر ايلول(سبتمبر) ١٩٢٢، عن انسلاخ اقلية "معادية للصهيونية" عن الحزب بعد أن رفضت غالبية مندوبي المؤتمر الموافقة على مطالبها الداعية الي انسحاب

الحزب الفوري من "الاتحاد العالمي ـ بوعالي تسيون"، وانضمامه، غير المشروط، الى صفوف الاممية.

ولم يستمر الانشقاق، داخل صفوف الحزب، سوى أشهر قليلة معدودة، ففي صيف ١٩٢٣، كانت اوهام انصار اتجاه الاغلبية، بخصوص تحقيق اهداف "الصهيونية البروليتارية" في فلسطين قد تداعت تماماً، وقطع الحزب كافة روابطه القديمة مع الاتجاهات "الاشتراكية" داخل الحركة الصهيونية، واعرب عن استعداده لدعم نضال الحركة القومية العربية والتعاون معها. وفي التاسع من تموز (يوليو) ١٩٢٣، اقر الاجتماع الذي عقده ممثلو الاتجاهين الوحدة الحزبية، وتبني نهائياً اسم "الحزب الشيوعي الفلسطيني".

اعترفت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية، في شباط(فبراير) ١٩٢٤، بالحزب الشيوعي الفلسطيني، ووافقت على قبوله رسمياً في صفوف الحركة الشيوعية العالمية.

وقد تمحور الصراع الايديولوجي الذي شهده حزب العمال الاشتراكي حول قضيتين رئيسيتين مترابطتين: القضية الاولى تمثلت بالموقف من "الصهيونية البروليتارية". والقضية الثانية، تمثلت بالموقف من المسألة القومية العربية في فلسطين. أما العامل الرئيسي الذي حكم ذلك الصراع، وأدى في النهاية الى حسمه، فقد تمثل بمسألة انضمام الحزب الى صفوف الاممية الشيوعية.[٣٠]

بعد انتفاضة آب ١٩٢٩ التي وصفها الحزب الشيوعي بأنها مذبحة ضد اليهود طالب الكومنترن بتعريب الحزب [٣١]، وبسبب عدم تجاوب الحزب مع المذكرة استدعى الكومنترن ابو زيام الامين العام واستبدله بطالب عربي يدرس في موسكو هو محمود الاطرش.[٣٢]

وبعد ان دعت اللجنة المركزية للحزب الاعضاء اليهود لمساندة الثورة الفلسطينية الكبرى انسحب قسم كبير من اليهود من الحزب، فيما آثر قسم

آخر للانضمام للفرقة الاممية هرباً من ذلك.[٣٣] فيما اقترح البعض الاخر تقسيم الحزب الى قسمين عربي ويهودي في اطار واحد.

ومع اقتراب الحرب الثانية من نهايتها واتساع عدد وفعاليات المجمع الاستيطاني كان الحزب يقترب من التصدع الكبير الى أن عبّر هذا التصدع عن نفسه في ثلاث انقسامات:

١ـ خط يهودي بقيادة ميكونس.

٢ـ خط عربي أخذ اسم عصبة التحرر الوطني (اميل توما، البندك، الدجاني، نصار، طوبي، العرماني).

٣ـ خط توفيقي (الحلو).

ويذكر هنا ان انحياز اليهود اليساريين في فلسطين للمشروع الصهيوني لم يكن جديداً، و لم يبقى استثناء في تاريخ اليساريين اليهود.

فبالرغم من كل المرجعيات الفكرية اليسارية للكتاب اليهود اليساريين الذين دافعوا وحملوا المشروع الصهيوني بذرائع وقراءات شتى، الا ان هذه التسويغات لم تخرج عن اطار المشروع الصهيوني في بعده الامبريالي العدواني الواضح والقائم في الوقت نفسه على طرد ومصادرة حق شعب آخر في ارضه التاريخية الطبيعية، هو الشعب العربي الفلسطيني.

ومن هؤلاء، بالاضافة الى بر بورشف:

* موزيس هس اول من ربط الفلسفة الهيغلية بالاشتراكية الفرنسية ولكنه أيضاً أول من أصدر وثيقة صهيونية نظرية هي روما والقدس ١٨٦٢.

*ابراهام ليون: رغم ان ليون يعدّ من ابرز مناهضي الصهيونية باعتبارها ظاهرة امبريالية، ورغم انه مصدر هام ودائم لمتابعة وقراءة نشأة الفكرة الصهيونية، الا انه يرى رغم ذلك ان الصهيونية حركة قومية حديثة، ويربط بين التواصل اليهودي في التاريخ وتحول الامة اليهودية الى طبقة. "فمع الانهيار الروماني تزايدت اهمية اليهود التجارية، وان اشترك اليهود قبل سقوط الامبراطورية في التجارة العالمية فقد وصلوا الى ازدهار اعظم بعد انتهائها. أما

بخصوص البائعين السورين الذين يرد ذكرهم في ذلك العهد، فمن الارجح انهم كانوا من اليهود ايضا، وقد كان هذا الالتباس شائعاً في العصور القديمة."
ويتابع ليون قوله:

ان مفهوم الطبقة لا يتعارض البتة مع مفهوم الشعب وهو غير استثنائي في مجتمعات ما قبل الرأسمالية، حيث تتميز الطبقات الاجتماعية، غالباً، بطابع قومي او عرقي، وليست الطبقات السفلى والطبقات العليا في عدة بلدان الا شعوباً غازية او شعوباً مستعبدة من عصرسابق، وقد شكل عرق المحتلين طبقة نبيلة مرفهة وطفيلية.[٣٤] اما العرق المحتل فلم يعش من السلاح، بل من العمل.".

ويقول كاوتسكي بدوره: "يمكن لطبقات مختلفة ان تكتسب طابعاً عنصرياً معيناً، ومن جهة اخرى، يمكن ان يؤدي تلاقي اعراق مختلفة ــ مخصصة كل منها في عمل معين ــ الى احتلال كل عرق مركزاً اجتماعياً متميزاً، ضمن نفس الجماعة، ومن المعقول عندئذ أن يصبح العرق طبقة."

"إن التشابك المستمر بين الطابع العرقي او القومي من جهة، والطابع الطبقي من جهة اخرى، جلي وواضح" فقد أثّر وضع اليهود الاجتماعي تأثيرا عميقاً وفاصلاً على طابعهم القومي. واذا لم يكن هناك من تناقض في مفهوم الشعب ـ الطبقة، فمن السهل اكثر قبول التشابك بين الطبقة والدين، فكلما توصلت طبقة ما الى مرحلة معينة من النضوج والوعي، تتلبس معارضتها للمجموعة المسيطرة اشكالاً دينية."[٣٥]

* مارتوف: ابرز زعماء المناشفة، كتب بمناسبة الاول من ايار ١٨٩٥ "لقد انتظرنا كل شيء في السنوات الاولى من حركة الطبقة العاملة الروسية، وكنا ننظر الى أنفسنا كذيل وحسب للحركة الروسية العامة.. كان ينبغي علينا بعد ان وضعنا الحركة الجماهيرية في قلب البرنامج ان نكيف دعايتنا وتحريضنا الطبقي، اي ان نجعلهما اكثر يهودية فعمالنا على درجة كافية من التلاحم قادراً، بعد أن يصبح منظماً،ان يشكل قوة كبيرة جداً، ويجب ان

نأخذ بعين الاعتبار ان الطبقة العاملة الروسية ستواجه في تطورها الطبقي نوعاً من العقبات بحيث سيكلفها كل مكسب، مهما كان تافهاً، بذل جهود هائلة، ومن الجلي في مثل هذه الحالة- كما تكهن مارتوف - أنه حين سيضطر البروليتاري الروسي للتضحية ببعض مطالبه من اجل تحقيق شيء ما، فإنه على الارجح سيضحي بالمطالب التي تتعلق بشكل خاص، باليهود."(٣٦)

* ماكس نوردو: كتب عام ١٩٠٢ يقول" "النقطة التي تجعل من المستبعد، وعلى الارجح الى الابد، احتمال التفاهم بين اليهود الصهيونيين واليهود غير الصهيونيين هي موضوع القومية اليهودية. فكل من يعتقد أن اليهود ليسوا شعباً لا يمكن أن يكون صهيونياً.. أما ذلك المقتنع بعكس ذلك، اي بأن اليهود شعب. فلا بد أن يصبح بالضرورة صهيونياً . فالعودة الى بلاد اليهود هي وحدها التي يمكن ان تنقذ الشعب اليهودي.(٣٧)

ومضى نوردو الى اكثر من ذلك بقوله: "نعرف ان الانجليز يريدون منا حماية قناة السويس لتأمين طريق الهند الشرقية.. نحن على استعداد لذلك اذا ما ساعدونا على ان نصبح قوة قادرة على ذلك."(٣٨)

* ومن الاسماء الاخرى ناحمان سيركين صاحب كتاب "المسألة اليهودية والدولة الاشتراكية" واسحق دويتشر الذي اعتبر اسرائيل احدث دولة لأقدم شعب، مع انه، دويتشر يعدّ واحداً من أبرز الكتاب اليهود المتفهمين للقضية العربية.

هوامش الفصل الثالث:

١ ـ ليون، مصدر سابق، ص ١١٢/١١٣.
٢ ـ المصدر السابق، ص١٠٢/١٠٥.
٣ ـ المصدر السابق، ص١٠٢/١٠٥.
٤ ـ المصدر السابق، ص١٠٢/١٠٥.
٥ ـ نصر شمالي، ملاحظات اساسية حول المسألة اليهودية، مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٨٥، ص٢٥.
٦ ـ ليون، مصدر سابق، ص١٢٤/١٢٥.
٧ ـ ماكاي، مصدر سابق، ص٢٧.
٨ ـ المصدر السابق، ص٤٣.
٩ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص١٥٤.
١٠ ـ هابرماس، مصدر سابق، ص٨٤/٨٧.
١١ ـ المصدر السابق، ص٧٧/٧٩.
١٢ ـ رايان، مصدر سابق، ص٤٥.
١٣ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٦٦.
١٤ ـ ماهر الشريف، الاممية الشيوعية وفلسطين، دار ابن خلدون، ١٩٨٠، ص٧٠.
١٥ ـ المصدر السابق، ص٧١/٧٢.
١٦ ـ عبدالوهاب الكيالي، الكيبوتز، مركز الابحاث الفلسطينية، بيروت،
١٧ ـ المصدر السابق، ص١٦/١٧.
١٨ ـ ماهر الشريف، الشيوعية والمسألة القومية، مركز الابحاث والدراسات الاشتراكية، نيقوسيا، ١٩٨٦، ص١٦.
١٩ ـ سميح سمارة، العمل الشيوعي في فلسطين، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٩، ص١١٢/١١٤.
٢٠ ـ الشريف، الشيوعية والمسألة القومية، مصدر سابق، ص١٦/١٧.

٢١ ـ المصدر السابق، ص١٧.
٢٢ ـ سميح سمارة ، مصدر سابق، ص٥٠/٥١/٥٦/٦٣.
٢٣ ـ المصدر السابق، ص٨٥.
٢٤ ـ الشريف، الشيوعية والمسألة القومية، مصدر سابق، ص٢٠.
٢٥ ـ سمارة، مصدر سابق، ص٨٤.
٢٦ ـ المصدر السابق، ص٨٤.
٢٧ ـ الشريف، الشيوعية والمسألة القومية، مصدر سابق، ص٢٠.
٢٨ ـ سمارة، مصدر سابق، ص٨٨.
٢٩ ـ سمارة، المصدر السابق، ص٨٦.
٣٠ ـ الشريف، الشيوعية والمسألة القومية، مصدر سابق، ص٥٦.
٣١ ـ سمارة، مصدر سابق، ص١٦٤/١٦٩.
٣٢ ـ الشريف، الشيوعية والمسألة القومية، مصدر سابق، ص٥٦.
٣٣ ـ سمارة، مصدر سابق، ص٢١٥.
٣٤ ـ ليون، مصدر سابق، ص٤٩.
٣٥ ـ ليون، مصدر سابق، ص٢١.
٣٦ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٦٩.
٣٧ ـ رايان، مصدر سايق، ص٤٥.
٣٨ ـ ايفانوف، مصذر سابق، ص٨٦.

الفصل الرابع

الصهيونية في انبعاثاتها الاسطورية

الصهيونية في انبعاثاتها الاسطورية

ايديولوجيا خارج التاريخ

لوظيفة داخله

١ ـ الألفية ونهاية التاريخ

١ ـ ١ الألفية في الأساطير الاولى

في الاساطير ان التاريخ هو الذي منح الحضور الجديد لأسطورة قديمة، فليس الماضي الا تجسيداً سابقاً للمستقبل، وليس المستقبل الا استعادة للماضي تقوم على تكرار النماذج الاولى ورفض للزمان الواقعي.

هذا هو النسغ الاسطوري للالفية، وهو نسغ أقدم بكثير من استعارات حاخامات وكتبة العهد القديم، وثمة ما يؤكد ان فكرة العود الابدي والالفية كانت ابرز القواسم المشتركة بين الاساطير القديمة التي لم تخلو أي منها من تعبيرات لهذه الفكرة.

فعند الفرس وبتأثيرات كلدانية نتعرف على سباعية التاريخ الاسطوري وأطوارها التي ترتبط بهيمنة ألفية لكل كوكب.[١]

وحسب مأثورات الازتك دمر العالم ثلاث مرات ولا يزال بانتظار الرابعة. وبين المرة والمرة الف عام.[٢]

وحسب نظرية الاحتراق الدوري التي تعود الى الرواقية وزينون فإن المبدأ الفاعل هو النار، وعندما تأتي السنة الكبرى يكون قد تم الاحتراق الشامل ثم تعود الدورة الكونية على نفس النسق، وبالموجودات نفسها والاحداث نفسها، وهكذا الى غير نهاية.[٣]

وقد تكررت هذه التصورات في التراث الجرماني الذي يقول بالاحتراق الشامل (رانيا روك) والمتبوع بخلق جديد. وحسب المازدية، فإن الله خلق العالم في ستة ايام، ثم استراح في اليوم السابع. على هذا الاساس، سيدوم العالم ست مراحل زمانية لانهائية، "سيتغلب فيها الشر وينتصر" على الارض. في غضون الالف السابعة او المرحلة السابعة، سيتم تكبيل امير الابالسة بالاغلال، وعندها ستشهد البشرية ألف عام من الاستقرار والعدالة المقيمة. عقب ذلك العهد، سينقلب ابليس من اغلاله وسيشن حرباً ضد العادلين. وفي نهاية الامر، سيمنى ابليس بالهزيمة. وفي نهاية الالف الثامنة سيخلق العالم خلقاً جديداً ليبقى، بعد ذلك، خالداً أبد الدهر.[٤]

ولعل الألفية الهندية اكثر التصورات البدائية تماسكاً داخل منظومة الموروث الفلسفي الهندي في محصلته الاجتماعية البدائية العامة.

فكتاب اثارتايدا يتحدث عن أربع عصور اجتماعية، كل عصر أقل من سابقه، وحياة الانسان في كل عصر اقل من سابقتها.[٥] ويطابق بينها وبين مقاييس الدورة الكونية التي تبدأ باليوجا، وهي اصغر وحدة قياس للدورة، ويسبقها العصر ويعقبها فجر وغسق يصلان العصور فيما بينها.

وتتألف الدورة الكونية الكاملة او الماهايوجا من أربعة عصور او يوجات ذات مدد زمنية متفاوتة، ويكون أطول العصور في بداية الدورة، وأقصرها في ختام الدورة.

ويلاحظ ان النقصان التدريجي لمدة كل عصر جديد يقابله على الصعيد الانساني انخفاضاً في مدة الحياة كما يرافقه انحطاط في الاخلاق وتراجع في الذكاء.

١ ـ ٢ المسوغات والركائز الغربية للالفية الصهيونية

رغم ان فكرة المجيء اليهودية ترتبط بالأسرالبابلي والتيه في سيناء ودعوة الرب لشعبه واتحاده المقدس معه من خلال اعادة بناء الهيكل وقيام المسيح اليهودي من نسل داود.

ورغم ان الحاخامات ظلوا يعيدون انتاج هذا الوهم بين اليهود بين الحين والحين على نحو موقفهم من سيمون كوسيبا الذي قاد التمرد اليهودي في فلسطين ضد الرومان خلال الفترة بين عام ١٣٢ الى ١٣٥، وحظي بتأييدهج ومباركتهم له كمسيح أرسله الرب لتخليص اليهود، واعتباره ابن النجم باركوخبا (قتله الرومان مع كبار الاحبار اليهود) الا ان فكرة المجيء الألفية لم تحتل حيزها التالي في الموروث اليهودي نفسه الا مؤخراً وبصورة مغايرة للفكرة اليهودية نفسها.[٦]

فلم يعد المخلص المنتظر ملكاً يهودياً من نسل داود بل اصبحت اسرائيل بكاملها ولكن كمقدمة لانبعاث المسيح المسيحي وليس المسيح اليهودي وذلك في اطار المناخات التي رافقت انفجار المسألة اليهودية في اوروبا الشرقية وظهور الصهيونية كمسوغ ايديولوجي سياسي للحاجة السياسية ـ الاقتصادية الغربية الرأسمالية في المنطقة.

وثمة استدراك لابد من توضيحه هنا وهو دور الاصلاح الكنيسي البروتستانتي في ضرب التنميط والاطاحة بحق الكنسية في احتكار الكتاب المقدس، وتحديد الرؤية المسيحية الفكرية، فيما يعني التخلي عن الاسلوب المجازي الرمزي في تفسير النصوص التوراتية الخاصة باليهود والذي تبنته الكنيسة الكاثوليكية الام لصالح التفسير الحرفي، ويعتبر هذا المنحى في دراسة الكتاب المقدس وتفسيره النقلة النوعية الخطيرة في تحديد وجهة نظر جديدة نحو اليهود، فكل بروتستانتي أصبح حراً في دراسة الكتاب المقدس، واستنتاج معنى النصوص التوراتية بشكل ما، مما فتح الباب للبدع في اللاهوت المسيحي التي رأت ان اليهود شعب مميز وليس من الصحيح انهم قتلة المسيح وكفرة وهراطقة وشعب

عاق شتتهم الله في المنافي عقاباً لهم على ما ارتكبوه من آثام وخطايا. وتعززت النزعة اليهودية في البروتستانتية بإعادة اكتشاف العهد القديم وهو ما يعرف بالتوراة اليهودية او العيدية، وعند ترجمته الى اللغات القومية الاوروبية اصبح ما جاء فيه من معتقدات العبرانيين وقوانينهم وأرض فلسطين أموراً مألوفة في الفكر الغربي وغدت قصص العهد القديم وشخصياته مألوفة كالخبز، يرددها البروتستانت عن ظهر قلب. وبالتزوير التاريخي الذي ساد في هذا العصر تسلل الى العقل الاوروبي ما يسمى بـ"الحق التاريخي" لليهود في فلسطين، وعليه تقلص تدريجياً التاريخ الشامل لفلسطين واقتصر على القصص المتعلقة بالوجود اليهودي وحده.(٧)

ومن الواضح ان تسوية ايديولوجية بين المسيحية والحاخامات قد تمت على ارضية التسوية السياسية بين البرجوزية الاوروبية الصاعدة في اوروبا الغربية المتآكلة في اوروبا الشرقية.

فكما لم يعد المسيح اليهودي المنتظر يهودياً بل مسيحياً، لم تعد فكرة المجيء المسيحية مرفوضة مسيحياً باعتبار ان المسيح قد جاء وانتهى، بل اصبحت البرجوازية بما فيها التي تدين بالكاثوليكية اقرب الى الفهم البروتستانتي وداعية الى مصالحة تاريخية بين العهدين القديم والجديد ـ جرى لاحقاً) اعلان مجمع الفاتيكان الثاني تبرئة اليهود من صلب المسيح، تشرين الثاني ١٩٦٤ كما اعلنت الوثيقة الصادرة في حزيران ١٩٨٥ ان المسيح كان عبرانياً وسيكون كذلك دائماً وهو ما يتناقض مع قرار المجمع المسكوني الاول في نيقية عام ٣٢٥م).

فكانت البروتستانتية والانجيلية العنوان المشترك لهذه الصفقة التي ترافقت موضوعياً مع الاصلاح الكنسي كمظهر من مظاهر هزيمة الاقطاعية في بعدها الكاثوليكي.

وهكذا في الوقت الذي انتصر فيه التاجر الرأسمالي في اوروبا الغربية على التاجر المرابي اليهودي في اوروبا الشرقية اعادت الاوساط اليهودية المأزومة

انتاج ذاتها وحضورها في التاريخ من خلال حاجة اوربا الغربية السياسية والاقتصادية لهذه الاوساط في الشرق العربي.

ان الألفية او فكرة المجيء الثانية ليست فكرة دينية في العهدين القديم والجديد (البروتستانتي الا بما هي حاجة معاصرة للرأسمالية الغربية والاوساط اليهودية الآفله.

وبالتأكيد لو ارتبط الوجود اليهودي بذكريات قديمة في منطقة أخرى خارج فلسطين لكان من الصعب ان نجد مسيحياً هندياً او افريقياً حيث لا حاجة له، اما الفكرة نفسها فتقوم بعد توليفها على الحاجة الرأسمالية الغربية للوظيفة الصهيونية في الشرق العربي على عدة ركائز.

١ـ ان فلسطين والاردن هي ارض اسرائيل التاريخية.

٢ـ ان مجيء السيد المسيح وانبعاثه لا يتم الا بعد قيام اسرائيل وبناء الهيكل ولذلك فالوقوف ضد اسرائيل هو وقوف ضد الله وعدم مساعدة اليهود على استكمال السيطرة على فلسطين يعني تأخير عودة المسيح.

وتكفل بعض مسؤولي اتحاد الكنائس المسيحية الاميركية بدفع بعض نفقات الاعلانات التي تنشرها بعض الجماعات المسيحية تأييداً لإدعاءات الصهيونية بأراضي فلسطين. وكان للفيلم الذي اخرجه (بيلي غراهام) بعنوان (أرض الله) تأثيره الكبير على مسيحي الولايات المتحدة وكندا.

ويصور هذا الفيلم، ببراعة تصويرية قل نظيرها، الاراضي المقدسة ويرافق عرض هذه المناظر رواية التنبؤات التوراتية وانشاد ترانيم دينية، جميعها يعلن ان الله عز وجل حقق لليهود ما كان وعدهم به منذ ٢٥٠٠ سنة، وذلك بإقامة دولة اسرائيل في القرن الميلادي العشرين، وقد جاء في الاعلانات التي نشرت للترويج والدعاية للفليم المذكور:"ان دولة اسرائيل اليوم هي شهادة واقعية حية لنبؤات العهد القديم، ونذير بعودة السيد المسيح الى الحياة. ان خلق دولة اسرائيل بالقرار الصادر عن منظمة الامم المتحدة بتاريخ التاسع

والعشرين من تشرين الثاني١٩٤٧، يشكل أعظم حدث توراتي في القرن العشرين.

ومما كتبه هال لندسي في كتابه المعروف (الكرة الارضية المرموقة) حول ذلك:[(٨)]

"ان الاحداث تتتابع على نحو يمهد الطريق امام عودة المسيح الى الظهور مع اقتران ذلك (إعادة انشاء دولة اسرائيل وتزايد الكوارث الطبيعية، خطر نشوب حرب في مصر وعودة الى ظهور عبادة الشيطان). ويضيف ليلنتال نقلاً عن صحيفة نيويورك تايمز الصادرة بتاريخ ١ تموز ١٩٧٦ أن:-

"اعلاناً موقعاً من ١٠٥ كنائس لاتباع مذهب العصمة الحرفية في شتى انحاء الولايات المتحدة يقول ان كل من يعارض المطالب الصهيونية بأراضي دولة اسرائيل (لا يكون يحارب اسرائيل فحسب، بل المولى عز وجل والتاريخ ايضاً)".[(٩)]

٣- يتم ذلك كله بعد قيام صراع عالمي مدمر تهزم في نهايته القوى المعادية في معركة هرمجدون، على نحو ما جاء في رؤية يوحنا" ثم بوق الملاك السادس فسمعت صوتاً .. قائلاً للملاك السادس فك الاربعة الملائكة المعدون للساعة واليوم والشهر والسنة لكي يقتلوا ثلث الناس، وهكذا رأيت الخيل في الرؤيا والجالسين عليها. لهم دروع نارية ورؤوس الخيل كرؤوس الاسود، ومن افواهها يخرج نار ودخان وكبريت ومن هذه الثالثة قتل ثلث الناس.. يبشر الساكنين على الارض وكل أمة وقبيلة ولسان وشعب قائلاً بصوت عظيم: خافوا الله واعطوه مجداً لأنه قد جاءت ساعة دينونته... ثم يتبعه ملاك اخر قائلاً: سقطت، سقطت بابل المدينة العظيمة لأنها سقت جميع الامم من خمر غضب زناها، ثم سكب الملاك السادس جامه على النهر الكبير الفرات فشق ماءه لكي يعد طريق الملوك الذين من مشرق الشمس.. بابل العظيمة ام الزواني رجاسات الارض، ورأيت المرأة سكرى من دم القديسيين ومن دم شهداء يسوع. سقطت،سقطت بابل العظيمة، وصارت مسكنا للشياطين، وسيبكي

وينوح عليها ملوك الارض.. سترمي بابل المدينة العظيمة ولن توجد فيها بعد.. ونور سراج لن يضيء فيما بعد، ورأيت ملاكاً.. فقبض على ابليس وقيده ألف سنة.. مبارك ومقدس من له نصيب من القيامة الاولى فعاشوا وملكوا مع المسيح الف سنة ثم متى تمت الالف سنة يحل الشيطان من سجنه.. فنزلت نار من عند الله، مهيأة لعرس، مزينة لرجلها هوذا مسكن الله مع الناس... يكونون له شعباً ويكون لهم إلهاً، وكثير من شعوب الارض تهودوا لأن رعب اليهود وقع عليهم."

وقد أعدت هذه الرؤية اعلاميا من خلال الفيلم الشهير[١٠] (الارض العظيمة التي مضت وانقضت) يحاول هذا الفيلم الذي انتجه المخرج السينمائي المعروف، اورسون ويلز، ان يعرض بشكلٍ دراميٍ نبوءات نوستراداموس في القرن السادس عشر والذي يصور فيه صراعاً نووياً مركزه الديار المقدسة بين المسلمين وحلفائهم من جهة (يشيرون الى يأجوج ومأجوج التي تعني روسيا او الصين من جهة وبين العالم الغربي من جهة اخرى). ان هذا الفيلم الذي عرض في تلفزيونات امريكا واوروبا في اواخر السبعينات والذي شاهده كثيرون على الفيديو في الاردن يعطي الانطباع بأن القوى المعادية للسيد المسيح هم المسلمون، ونرى فيه زعيم المسلمين الذي يرتدي عمامة كبيرة على رأسه يعطي الاوامر باطلاق الصواريخ النووية الضخمة ضد اعدائه الغربيين، كما يرينا من مشاهد الجبال وهي تصبح كالعهن المنفوش ومن الارض تزلزل زلزالها بحيث تصبح منطقة الشرق الاوسط كلها خراباً وتتلوث اجواؤها بالاشعاعات السامة بحيث تصبح غير قابلة لبقاء الانسان او الحيوان او النبات. ومع ذلك فإن فداحة تعصب تلك الفئات وعقليتها المريضة يجعلانها تتقبل دمار العالم واندثاره قبل انتهاء الالف الثاني من الميلاد.

٤- نزوح اليهود الى فلسطين مرحلة يعقبها ارتداد اليهود الى المسيحية حتى تتحقق النبؤات التوراتية المتعلقة بنهاية الزمان بفعل عودة المسيح المخلص من آخر الايام ليحكم العالم هو والقديسون لمدة الف عام يسود فيها العدل

والسلام، وحسب ما جاء في هذه الاسطورة لن يتحقق الخلاص ولـن يتم الا باسترجاع اليهود لفلسطين، ليتم تنصيرهم)، وقد ظهرت هذه العقيدة الألفية ـ في كتب الابوكريفا (أي الكتب التي لا يعترف بها اليهود وسفر دانيال).[11]

ومع ان قضية نزول المسيح وملكه الالفي تثير اشكالات معقدة ومتعـددة في الفكر المسيحي والصهيوني، الا ان الصهيونيـة استطاعت ان تتجاوز هـذه الاشكالات بتبسيط القضية وربط نزول المسيح بقيام اسرائيل ومجيء يهود التيه وتدمير العالم الاسلامي بتدمير خصائص سكانه والقضاء على الحركـات الاسلامية. ومن صفات مسيحهم العـدل، لكنه يعني حكـم اليهـود وعلويتهـم وعلويـة شـريعتهم: "يقضي بـالعدل للمسـاكين ويحكـم بالانصـاف لبؤسـاء الارض.. ويميت المنافق بنفخة شـفتيه.. فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي.. ويرفع راية للامم، ويجمع منفى اسرائيل ويضم مشتتي يهوذا من اربعة اطراف الارض من آشور ومصر وكـوس وجزائر البحر.. وينقضـان على اكتاف الفلسطينيين غرباً، وينهبون بني المشرق معاً.. ويبيد الرب لسان بحر مصر."

فمسيح الصهيونية ـ الصليبية مسيح عنصري قبلي، جدول اعماله يقـوم بإقامة اسرائيل الكبرى والقضاء على الفلسطينيين وإبادتهم ونهب العالم العربي والسيطرة على ثرواته والقضاء على سكان الدلتا في مصر لتحويلهـا الى مستعمرة اسرائيلية.[12]

ـ أما أبرز مؤسسي دعاة الالفية في الولايات المتحدة على مـدار القرنـين التاسع عشر والعشرين فهم:

١ـ غريس هالسل صاحب كتاب "الفكر التوراتي والحرب النووية".

٢ـ وليم ميلر مؤسس "الادفنتست السبتيين" في القرن التاسع عشر.

٣ـ مايك ايفانز صاحب محطة للبرامج الدينية.

وتستضيف البرامج التلفزيونية قائمة المبشرين التالية:[13]

ـ بات روبرتسون: الـذي يستضيف برنامجاً لمدة تسعين دقيقة يومياً ويدعى نادي الـ ٧٠٠ (نسبة الي عدد المساهمين معه) ويصل هذا البرنامج الى اكثر من ٦١ مليـون عائلة، أي الى أكـثر مـن ١٩٪ مـن الامريكيـين الذيـن يملكون أجهزة تلفزيـون، وهـو يملـك محطـة تلفزيـون (س.بـي.ان) ولـه محطـة تلفزيونية في جنوب لبنـان تقـوم بمهمـة التبشـير. وعمليـات روبرتسـون تحقـق عائدات سنوية تزيد على ٢٠٠ مليون دولار.

ـ جيمي سـواغرت: يصـل الى ٤،٥ مليـون مـنزل يوميـاً او ٥،٤٪ مـن المشـاهدين والى مـا مجموعـه ٩ ملايـين وربـع المليـون اسـرة او ١٠٪ مـن المشاهدين ايام الاحاد.

ـ جيم بيكر: يملك ثالث أشهر محطة تلفزيونية تبشيرية ويصل الى حوالي ٦ ملايين منزل (٦،٨٪ من المشـاهدين) ويـدر ربحـاً سنوياً يـتراوح بـين ٥٠ و ١٠٠ مليون دولار.

ـ اورال روبرتس: يصل برنامجه الى ٥،٧٧ مليون مـنزل اي ٦،٨٪ مـن المشاهدين.

ـ جيري فولويـل: تصـل دروسـه التبشـيرية الاسـبوعية الى ٥،٦ مليـون منزل (٦،٦٪ من جميع المشاهدين).

ـ كينين كوبلاند: يصل الى ٤،٩ مليون منزل (٥،٨٪) مـن المشـاهدين في الاسبوع ويرى ان اسرائيل الحديثة وصهيون الانجيلية شيء واحد.

ـ ريتشارد دي هان: يصل في برنامجـه (يـوم كشـف النظـام) الى ٤،٥٧ مليون منزل (٤،٨٪ من المشاهدين).

ـ ريكـس همـيرد يصـل الى ٣،٧ مليـون مـنزل (٤،٤٪ مـن مجمـوع المشاهدين).

ولا يقتصر الامـر على المبشـرين فحسـب بـل يوجـد في امريكـا ٢٥٠ منظمة انجيلية موالية لإسرائيل يبلغ عدد اتباعها ٤٠ مليون بينها:

ـ مؤتمر القيادة الوطني المسيحية لاسرائيل وتؤمن "أن تكون مسيحياً يعني أن تكون يهودياً. ومن واجب المسيحي ان يضع "ارض اسرائيل" فوق كل اعتبار.

ـ المؤتمر الوطني المسيحي، اعلن قادته انهم قاموا من اجل توحيد المسيحيين من تعدد التسميات والمنظمات التي يجمع بينها اهتمام مشترك بسلامة الوطن اليهودي.

ـ الاتحاد الامريكي من أجل سلامة امريكا، وقامت للاعتراض على تزويد السعودية باسلحة دفاعية.

ـ تاف الكاتدرائية الانجيلية: وقامت بحشد ١٥٠٠ أصولي وقيادي يهودي من أجل ان يؤيدوا رسمياً وبتغطية من جريدة واشنطن بوست غزو اسرائيل للبنان.

ـ الائتلاف الامريكي من اجل القيم التقليدية: وتعلن أن هدفها هو تجييش ٤٥ مليون اصولي الى المراكز الحكومية من خلال بنك المواهب التي تملكه.

ـ الصوت المسيحي: ومركزها في كاليفورنيا مع "مكتب ضغط" في مدينة واشنطن، وتدعى ان عدد اعضائها يبلغ ١٩٠ الف شخص بمن فيهم ٣٧ قسيساً وميزانيتها السنوية حوالي مليون ونصف مليون دولار.

ـ جماعة السفارة المسيحية الدولية في القدس التي تعتبر قيام اسرائيل وعاصمتها القدس ضرورية لعودة المسيح.

١ ـ ٣ المسوغات الصهيونية للالفية

فكرة نهاية التاريخ:

كان هيغل قد اعتبر انتصار نابليون كممثل للثورة البرجوازية على الملكية البروسية كممثل للعلاقات الاقطاعية في معركة يينا آخر الانتصارات الكبرى في التاريخ.

ومثله العديد من اقطاب المدرسة الالمانية، نيتشه، شوبنهاور الذين اعتبروا الرأسمالية نهاية التاريخ والذي ينبغي اعادة انتاجه من خلال اعادة انتاج سيادة

العنصر الالماني وليس البرجوازية الفرنسية. وقد استعاد الفكرة مؤخراً المفكر الامريكي من اصل ياباني فوكوياما، الذي اشتهر في الولايات المتحدة ابان الحقبة الريغانية، وأعلن نهاية التاريخ كعنوان لتأييد السيطرة الرأسمالية ولربما السيطرة الامريكية على العالم واعادة انتاج الرأسمالية كقوة ميتافيزيقية عمياء تأخذ المعذبين في العالم بجريرة زفراتهم وخطيئتهم بعدم الامتنان لرب المال الجديد.

اما محاولات الاوساط الصهيونية الربط بين فكرة نهاية التاريخ وبين فكرة البعث الاسرائيلي، فترمي الى تصوير قيام اسرائيل بمثابة معركة بينا وبالاحري انتصار لنوح بعد الطوفان وليس لنابليون فقط، فالوعي الهيغلي المستخدم هنا لنقل اليهود من اللامعقول واللاحرية (الشتات) الى الحرية في معقول متعين هو دولة الاغتصاب الصهيوني، هو لدى هذه الاوساط، الوعي ذاته الذي نقل الرأسمالية من لاحرية ولامعقول الدول والقلاع الاقطاعية الى الحرية في معقول متعين هو الدولة البرجوازية التي كان نابليون عنوانها.

فالدولة، في المفهوم الصهيوني، ليست نتاج تعاقد بين الافراد (حسب هوبز ولوك وانما هي روح الجماعة، حسب الفكرة الهيغلية خصوصاً،وحسب المدرسة الالمانية عموماً حيث اخذت الدولة عند الالمان طابعاً رومانسياً ـ نظرياً ـ سماوياً (ليوبولد رانكه) وبيولوجياً (تشمبرلين) ولغويا (هردر) بسبب من تخلف المانيا في ذلك الوقت عن بقية بلدان اوروبا الغربية، التي تشكلت الدولة فيها كنتاج مطابق لتطور البرجوازية وليس قبلها.

وحتى تستمر(الفلسفة) الصهيونية في تأدية وظيفتها، كان لا بد من إجراء تحريف عليها يسد الثغرة الكبيرة داخل معمارها.

فاسرائيل خاص وجزئي وتجل ومظهر متبدل للعام الرأسمالي ومعركة بينا ليست اكثر من تميمة لطيور نوح الاخيرة، ليس بوسعها الوقوف طويلاً امام السبي المتواصل، فلا بأس في هذه الحالة من اختراع فكرة جديدة تجعل الخاص

الاسرائيلي ثابتاً وليس متبدلاً في قلب العالم العالمي الرأسمالي، وليكن ذلك استعادة للالفية وتركيبها على فكرة نهاية التاريخ الهيغلية.

٢ ـ التطويب المقدس

في الاساطير القديمة، تمثل قمة الجبل الكوني المقدس طابعاً مزدوجاً عند كل الشعوب القديمة. فهي أعلى قمة، وفي الوقت نفسه هي سرة الارض التي بدأ مها خلق العالم.(١٥)

فالجبل المقدس هو صلة الوصل بين السماء والارض ومركز العالم، و لم تخلو اسطورة قديمة من وجود جبل مقدس خاص بها، جبل ميرو عند الهنود، جبل هاربر زاين عند الفرس، جبل الزقورة عند سومر، جبل جرزيم عند كنعان، والجلجلة عن المسيحية.(١٦)

ولكن الجبل المقدس لا يعود مقدساً اذا لم يتم تطويبه بالطقوس والانشاءات الدينية المحددة حسب تقاليد كل شعب واسطورة، والتي تستدعي دلالات متماثلة في الغالب: مذبح، المحراب، القبة السماوية، فهي الدلالات الضرورية لإحالة المعبد الارضي الى صورة عن العرش الالهي، وليس ثمة اسطورة تخلو من ذلك.

ففي طوبيا(١٣: ١٦) واشعيا (٥٩: ١١) وفي كتاب افلافيوس "الاثار العبرية"(١٧) نتعرف على الصورة نفسها اثناء الحديث عن هيكل الرب في القدس.

فأجزاء الهيكل الثلاثة تقابل المناطق الكونية الثالث: فالباحة تمثل البحر أي المناطق السفلية والبيت المقدس يرمز الى الارض اما قدس الاقداس فيرمز الى السماء.

وكذلك، فإن الاثني عشرة قطعة الموضوعة على الطاولة تقابل اشهر السنة الاثني عشر، ويرمز الشمعدان الكبير مع فروعه السبعين الى دائرة الابراج الفلكية، اي انه يمثل تقسيم البروج في الكواكب السيارة السبع.

وحسب هذا الاعتبار لا يتم بناء العالم من خلال بناء الهيكل فحسب، وانما يجري به ايضاً بناء الزمان الكوني أيضاً.

٢ ـ ٢ التطويب المقدس

مع انكار ايديولجيا الوصيد لنفي الفكرة لنفسها داخل التاريخ بتوسط الواقع، ترتد هذه الايديولوجيا من هيغل الى شيلنغ وبرجسون وكيركغادر، وتستبدل فكرة نفي النفي والتركيب الهيغلية بفكرة الاستعادة المثالية للفكرة نفسها في توليف يعود بـ شيلنغ وبرجسون الى التوراة، ويطابق بين هذه الاستعادة والخلق الاول (سفر التكوين زائد الفلسفة الكلاسيكية الالمانية) حيث الزمن الدنيوي، زمن العالم السفلي الذي يقابل الفصول الثلاثة، الشتاء والخريف والصيف، مقابل الزمن المقدس الذي يقابل الربيع (الخلق ـ الولادة ـ الخصب) والذي ينهض او يبعث فيه اودنيس، ابن الارض، للاتحاد مع سيدة السماء.

فثمة تحيين للزمن المقدس مرتبط برسالة محددة تحتاج بدورها الى ما يسميه حزقيال بالتطويب المكاني (اضفاء طابع مقدس على المكان الجديد).

هكذا الفكرة في ايديولوجيا الوصيد الصهيونية، فكرة مثالية لا تغادر السماء ولا تتجلى أيضاً الا في زمان ومكان مقدسين، مرتبطين بدورهما، بحالة الخلق، مقابل الزمان والمكان العاديين الدنيويين المرتبطين بالخطيئة كمعادل لحالة العماء المقلوب في العالم السفلي الذي يستغرق التاريخ البشري كله.

وانطلاقا من المصدر الاساسي للتوراة، بابل، التي كان لها طائفة تدل على موقعها كوصيد زماني ومكاني بين السماء والارض، بين الخلق والعماء، بين مردوخ(مردوك) وابسو. نقل العبرانيون هذا الاعتقاد الى كتبهم المقدسة، وصوّروا صخرة هيكل اورشليم وهي تغوص في اعماق تيحوم المعادل العبري لأبسو البابلي.[١٨]

وفي بوئيل الاصحاح ٣ "الرب يسكن في صهيون" وفي اشعيا الاصحاح ٢و٤ "ويكون في آخر الايام جبل الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري اليه الشعوب وتسير امم كثيرة ويقولون هلم نصعد جبل الرب والى بيته آل يعقوب.. لأنه من صهيون تخرج الشرعية ومن اورشليم كلمة الرب". لقد وجدت ايديولوجيا الوصيد الصهيونية في المعادل السابق، ما يساعدها في تبرير اختيار فلسطين، بما ينسجم مع تصوراتها التي تقدم الصهيونية، كحالة غير قابلة للتعين، فكل تعين اندماج، وبالتالي كحالة مقدسة لا تستدعي نفسها الا في مكان مقدس، مسوغة احتلالها لفلسطين، كتطويب مكاني مقدس. وهو ما يستدعي مماثلة فلسطين للكون باقامة رمزية لمحور العالم، محورها الهيكل والدور الطقسي الكبير لما يرمز له العمود المقدس، فلا تبدو اسرائيل كمظهر سياسي من مظاهر الامبريالية العالمية، بل كحاجة عالمية لفتح كوة بين السماء والارض، مما يفسر قول بينسكر "أن هجرة اليهود الى المركز اليهودي الوطني يجب ان تكون محدودة وبحجم الوظيفة العالمية لهذا المركز." وقول احاد هعام: "أن الدولة اليهودية ضرورة كعامل معنوي فقط، وليس مطلوباً إسكان كل يهود العالم فيه."(١٩)

وكما ذهبت ايديولوجيا الوصيد الصهيونية الى القول بأن التطويب اليهودي لفلسطين ليس مطلوباً من اجل اسكان اليهود فيها بل من اجل اضفاء طابع مقدس على مركز الكون، قدمت هذا التطويب كحالة خلق مماثلة للخلق الاول، فلا بد من تكرار الفعل النموذجي الذي قامت به السماء والذي بفضله ولد الكون من جسد تنين بحري او من عملاق بدائي، وذلك عن طريق اداء طقس البناء بصورة رمزية مماثلة.

يقول الياد: "ان الاقليم المجهول الغريب غير المأهول ـ أي غير مأهول من الذين لنا ـ يسهم ايضا في النمطية المائعة والشبحية التي يتصف بها العماء. والانسان اذ يحتل هذا الاقليم ويقيم فيه فانما يحوله رمزياً الى كون بتكراره طقس ولادة الكون. فما يجب أن يصبح عالمنا، يجب ان يكون مخلوقاً

أولاً، ليس كعمل دنيوي عـادي، بـل كتكـرار لعمـل بدئـي يحـول العمـاء الى كون، فاذا كان الامر، يتعلق باستصلاح ارض بور او غزو أقليم كان مسكوناً من اناس اخرين، فإن الاستيلاء عليه يجب ان يكرر فعل ولادة الكون من كـل وجه، فالاقليم لا يكون ملكاً لاحد الا ان "يخلق جديداً". (٢٠)

فتكون اسرائيل معادلاً لنوح او مردوك الذي احدث العالم من جسد تنين! وتكون الكوارث التي سبقت قيام اسـرائيل معـادلاً للعمـاء المـائي الاول، ويكـون مصرع هتلر وهزيمة العرب في حرب ١٩٤٨ معادلاً لمصرع التنين كنموذج لهولـة البحر التي لا يولد الكون قبل مصرعها، ويكون تطويب فلسـطين باسـم اسـرائيل معادلاً لهذا الانتصار وابتداء لحياة جديدة على بر نوح الجديد.

٣ ـ العرقية

لم تعكس العرقية البيولوجية والداروينية الاجتماعية الالمانية نفسها كمـا عكستها الكتابات اليهودية عما يسمى بالامة اليهودية.

نقرأ في كتاب هرتزل (الدولة اليهودية) وفي كتاب ليوبنسـكر (التحـرر الذاتي) ما يؤكد أن اليهود ليسوا طائفة دينية او تجمع ثقافي فحسـب بـل امـة قائمة بذاتها و لم تستمر الا بفضل خصائصها الاستثنائية.

وعند سوكلوف "يشكل اليهـود وحـدة عرقيـة وتاريخيـة وثقافيـة، هـي الاساس المشترك لبعث حياة قومية كاملة في وطن آبائهم."(٢١)

واليهود عند مارتن بوبر، هـم الشـعب الوحيـد في العـالم الـذي تكـون خلال الازمنة الغابرة كأمة وكسبط ديني في آن واحد.(٢٢)

ويـرى ريتشـارد كروسمـان في انبعـاث امـة وفليكوفسـكي في عصـور الفوضـى ان لليهـود دورة خاصـة في التـاريخ يتعـاقب فيهـا الخـروج والدولـة والكوارث كما تتعاقب الخطيئة البشرية والقربان اليهـودي باعتبـارهم شـعب ا لله.

وجميعها تصورات ومفاهيم المانية وعرقية يجري تغذيتها وتعزيزها بالتوارة حتى لا يقال ان شعب الله المختار يبحث عن مسوغات اخرى خارج كتابه المقدس.

ان فكرة الامة الالمانية الخالصة المطلقة كما العهد القديم والتلمود والقبالاة هي التي زودت الصهيونية الروحية بمسوغاتها النظرية الاساسية حول الامة اليهودية الخالصة والمطلقة ايضا .

فالى جانب التلمود، وكتاب السبي البابلي، تصطف المساهمات الالمانية العرقية بجوهرها كما هو الحال عند نيتشه وغومبلوفكس وغوبينو وليبينتز، او باسقاطاتها المختارة والملفقة كما هو الحال بالنسبة لأعمال هيغل وكانط.

عند غوبينو وعند غومبلوفكس "العرق والدولة": لا تاريخ خارج تاريخ العرق الابيض. وعند تشمبرلين الذي يحاول تجاوز غوبينو بما يخدم البرجوازية على نحو اخر من كنط، يأخذ الانسان لأول مرة وعي اسطرته ذاته، فنظرية الاسطورة تسمح بتبرير التجربة الداخلية الحميمة، برفع اللاعقلانية الحدس الى مرتبة فلسفة. فليس ثمة شيء أكثر إقناعاً بشكل مباشر من أن يحوز المرء مفهوم العرق في وعيه ووجدانه الخاص. فالحدس ليس مدعواً لتقرير حقيقة الاشياء الموضوعية بل هو يكفي بذاته لتحديد الصفة العرقية.

وعند ليبنتيز فإن المونادات وهي جواهر روحية لا تتغير بالتأثيرات الخارجية، فليس لها نوافذ يمكن ان يدخلها عبرها شيء الى هناك او يخرج شيء من هناك؟ ؟ ولا تمارس المونادات اي تأثير على العالم الداخلي احداها للاخرى، ولا ترتبط بصلة سببية فيما بينها، فتوافق افعالها بنظم بالتنسيق المسبق، الذي يتوقف على المونادا العليا ـ الاله المطلق. ولذا فإن ليبنيتز، الذي ينفي التجربة (الخبرة) الحسية، قد عارض المذهب الحسي للفيلسوف الانجليزي جون لوك، الذي يشبه نفسية الانسان بلوحة بيضاء، تأتي التجربة فتخط الكتابات عليها. فكان ليبنتيز يرى ان النفس تنطوي، في الاصل، على معان وحقائق، على ميول واستعدادات واعتيادات. تلك هي "بذور السرمد"، "الشرارات"،

"النيران الحية، ومضات النور، الكامنة في داخلنا، والتي تتكشف عند الالتقاء بالحواس "(٢٣).

وفي غسق الاصنام ينطلق نتيشه من الديونيزية البيولوجية ليدحض العقل والايديولوجيا ويعود بالصراع الى قانون الغاب، الذي ينتصر فيه، حسب نيتشه، القوي الذي يتوارث خصائصه في نسله أبداً، ويعيد انتاج المعادلة الصحيحة كمعادلة بين الاقوياء والضعفاء وليس بين الاخيار والاشرار. وعند هيغل لا تخرج فكرة الشعب التاريخي وغير التاريخي عن هذه المعادلة كثيراً، حيث يبدو دخول او خروج شعب من التاريخ مرتبطاً بقدرة الصفات على التواصل او التنحي.

وينطلق كتاب الامة اليهودية الخالصة من هيغل لتأكيد الدور التاريخي للامة اليهودية المزعومة! فلما كان كل شعب يقوم بدوره او تأدية رسالة الحق ولما كانت هذا الرسائل تنتقل من شعب الى اخر، فإن اسرائيل هي آخر هذه الشعوب، وفق متابعة اليازجي للمزاعم اليهودية في كتابات احاد هعام خصوصاً.

ومثل ذلك التوظيف اليهودي للفكرة المتعالية عند كانط، التي تستخدم لدعم القول بادراك قومي خاص وأصيل أستخدمت أيضاً الصيغ والمقولات القبلية الكانطية التي لا تختلف الا قليلاً عن الحقائق الازلية المحددة مسبقا عند ليبنيتز او "الافكار الغريزية" لدى ديكارت. فقد كان كانط يرى ان الوحدة الاصلية لكافة التصورات والمفاهيم والاحكام، ولكافة اشكال التجربة، تأتي من "الوحدة الترنسندنتالية للابيرسيبتيا"، وانه في صلب كل ضرورة يقوم دوماً شرط ترنسندنتالي. ان "الابيرسيبتيا الترنسندتالية" عند كانط، هي الوعي الخالص الاولى الثابت، الذي يقوم في صلب العقل البحث (الخالص). ويسمى كانط مادة الظاهرة ما فيها من جانب، يقابل الاحاسيس. وصورة الظاهرة، ما بفضله ينتظم تنوع الظاهرة على نحو معين، ليقول: "صحيح ان مادة كافة الظواهر لا تعطي لنا الا بعدياً ولكن صورتها يجب أن توجد كلية، وبصورة جاهزة، في نفسنا على نحو قبلي" .(٢٤)

٣ ـ١ المصادر التوراتية للعرقية
شعب الله المختار (لاسامية الانا).

في اسطورة "انكي ونظام العالم" السومرية، اعتبر السومريون انفسهم من صنف الشعب المختار، كما اعتبر جلجامش ابن السماء وانكيدو ابن الارض[٢٥] ويبدو ان التوراة التي تأثرت بالسومرية، اخذت عنها فكرة الشعب المختار، واعتبرت اليهود ابناء ا لله مقابل الاخرين، ابناء الارض. فاليهود ــ حسب معتقدهم ـ شعب ا لله المختار، لأن ا لله ارادهم هكذا امة معينة مميزة في التاريخ. وقد بلور الفكر اليهودي ذلك بأن اليهود جنس روحاني متفوق، وهب خصائص نفسية نادرة أهلتهم أن يكونوا أحفادا للكهنة والانبياء. وبهذا فهم ليسوا فقط الجنس المتفوق بل ينتمي ايضا لمجموعة مغايرة من البشر فاختلافهم عن البشر ليس اختلاف درجة بل اختلاف نوع. وعليه، فلا يمكن ان يبلغ آفاق النبوة الا الاسرائيليون، فهم ابناء ا لله الاطهار جوهراً، وقد منحوا الصورة البشرية اكراماً لهم.[٢٦]

ففي (الاخبار ٢٠: ٢٤)

"انا الرب الهكم الذي فرزكم بين الامم وقد ميزتكم لي"

وفي سفر التكوين الاصحاح (١٥): "كل مكان تدوسه بطون اقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر، نهر الفرات الى البحر الغربي تكون تخومكم، وقد اختارك الرب لتكون شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب التي على وجه الارض."

وفي سفر اشعيا ٤٩

"هكذا قال السيد الرب ها انا ذا أرفع الى الامم يدي والى الشعوب اقيم رايتي فيأتون بأولادك في الاحضان وبناتك على الاكتاف، يحملن، ويكون الملوك حاضنك وسيداتهم مرضعاتك بالوجوه الى الارض يسجدون لك ويلمسون غبار رجليك فتعلمين اني انا الرب الذي لا يخيب من انتظره."

وفي التلمود تتساوى النفس اليهود مع العزة الالهية.

وعند الصهيونية الحلولية يتحد الاله بالانسان اليهودي والارض اليهودية ليكونا نظاماً مقدساً مغلقاً عضوياً، يهلك من يقع خارج دائرة القداسة، مثل العرب. وما كتبه احاد هعام بهذه الروحية ان الانسان الاعلى فكرة يهودية وليست نيتشوية، وتمس اليهود دون غيرهم.

"وهكذا، فإننا اذا سلمنا بأن الهدف من كل وجود انما هو ظهور الانسان المثالي المتفوق، فإن جزءً هاماً من هذا الهدف يتحقق من خلال ظهور شعب مثالي متفوق، فلا بد اذن من ظهور شعب كهذا يتمتع بطاقة فكرية تجعله اقدر واكفأ من سائر الشعوب الاخرى واكثر ميلاً الى تنمية وتطوير اسس خلقية وطريقة معيشة مبنية على مبادىء أسمى من المبادىء التي تنتجها بقية الشعوب."[٢٧]

"من الطبيعي ان يسلم الانسان بحقيقة وجود درجات كثيرة في سلم الخليقة مبرراً بظهور الكائن غير العضوي. فالنباتات والحيوانات والمخلوقات القادرة على النطق يتقدمها جميعاً الجنس اليهودي."

ولذلك لم يحاول اليهود التبشير بدينهم، لا بسبب الغيرة (كما يدعي المعتذرون) ولكن لأنهم لا يقبلون خفض مستوى واجبهم نحو تجسيد النموذج الراقي بجعله واجب كل البشر. وهم في محاولتهم هذه لن يفرضوا المسؤولية على الاخرين ولن يشاركوهم. مما يعني تحول الشعب اليهودي الى شعب مقدس مكتف بذاته، لا يمكن الحكم عليه بمعايير اخلاقية خارجية عنه، بل ان الشعب اليهودي - حسب التراث القبالي - هو امتداد للخالق في الكون. ووجود الخالق ذاته وتوحده يتوقف على قيام اليهود بممارسة الاوامر والنواهي.[٢٨]

والمفارقة ان الصهيونية الحلولية الصوفية لا تقتصر على المتدينين اليهود بل تتعداهم الى عدد من الكتاب — القادة الذين اعتبروا انفسهم جزءاً من الحركة العمالية اليهودية.

فاليهود، حسب موسى هس في روما واورشليم (١٨٦٢) وحسب ناحوم سوكولوف يشكلون الامة الانقى عرقاً بين جميع امم العالم المتحضر.

وحسب بينسكر "لا توجد اجناس نقية نقاوة مطلقة ولكن اليهـود نسـبياً هـم بدون ادنى ريب أنقى عرق بين جميع العالم المتمدنة."(٢٩)

وحسب جابوتنسكي: " فإن الهدف المنشود في فلسطين هو خلق دولة يهودية ذات شعب نقي الاصل والعرق."

ويمضي بارتال الى اكثر مـن ذلـك بقولـه: "ان الثقافـة اليهوديـة هـي في الحقيقة القوة المحركة والدينامو والقائم من وراء الثقافـات الاخـرى ولا سـيما الثقافات الاوروبية." فيما يرى ماكس نوردو: "أن اليهودي يملك من الجـرأة والكفاية اكثر مما يمتلكه الاوروبي العادي ناهيك بالاسيويين والافارقة."

اما بورشوف، فكان الاكثر ذكاءا في تمرير افكاره العرقية تحت دعـاوي ماركسية زائفة، حين قدم فكرة الوحدة العضوية اليهودية بما أسماه بنظريـة الهـرم اليهودي المقلوب الـتي تتطلـب اخضـاع التعارضـات الداخليـة باعتبارهـا ثانويـة لمصلحة الفكرة القومية المطلقة ووضع الهرم على قاعدته من القوى المنتجة! الـتي تجسد الابداع اليهودي! وتجعل بناء دولة لليهود قراراً إلهياً مفهوماً!

٣ـ٢ تشريع العنف

نقرأ في سفر زكريا، الاصحاحات ٩-١١-١٢-١٣-١٤

(الذين ارسلهم الرب للجولان في الارض.. هوذا السيد يمتلكها (اي صور، غزة، دمشق) ويضرب في البحر قوتها وهـي تؤكـل بالنـار.. ابتهجـي جـداً يابنـة صهيون.. هوذا مالك يأتي.. ويتكلم بالسلام للامم وسطانه من البحـر الى البحـر ومن النهر الى اقاصي الارض.. كبريـاء الاردن خربـت في ذاك اليـوم.. فيأكلون كل الشعوب حولهم عن اليمين واليسار... وفي ذلك اليوم اني ألتمس هلاك كـل الامم الآتين على اورشليم كنوح هودرمون في بقعة مجدبن.. ويكون ان كـل مـن يصعد من قبائل الارض الى اورشليم ليسجد للملك رب الجنود لا يكون عليهـم مطر.. هذا يكون قصاص مصر وقصاص كل الامـم الذيـن لا يصعـدون ليعيـدوا عيد المظال.. وفي ذلك اليوم لا يكون بعد كنعان في بيت رب الجنود.)

ونقرأ في الاصحاح ١١ من سفر اشعيا.

"ويكون في ذلك اليوم ان يجمع الرب جميع المشتتين والمنفيين من ابناء اسرائيل ويهوذا من اربعة اطراف الارض.. لينقض الجميع على أكتاف الفلسطينيين غرباً وينهبون بني المشرق معاً.. يكون على أدوم وموآب ام تداد ايديهم وبنو عمون في طاعتهم ويبيد الرب لسان بحر مصر ويهز يده على النهر بقوة ريحه ويضربه الى سبع سواق يعبر فيها بنو اسرائيل بالاحذية وتكون سكة لبقية شعبه كما كان لاسرائيل يوم الخروج من ارض مصر".

ونقرأ في المزمور ٨٣ .

"الاسماعليون والمهاجريون وعماليق وفلسطين والآشوريون املاء وجوههم خزياً ليخزوا ويرتاعوا الى الابد ولينجلوا او يبيدوا."

وليس مصير العراق في جدول اعمال مسيحهم بأفضل، فالمسيح عندهم لا يأتي لنجدة المؤمنين ولكن لإهلاك اهل العراق: بابل.. ارموا عليها.. سبب سخط الرب، لا تسكن بل تصير خربة تماماً.. كل رجال حربها يهلكون.. وعلى سكان بابل وعلى رؤوسها وعلى حكامها.. جر على مياهها فشق.. ولا تسكن بعد الى الابد.. تقول ساكنة صهيون.. فلو صعدت بابل الى السماوات ولوحظت علياء عزها فمن عندي يأتي اليها الناهبون، يقول الرب، أسوار بابل، القفر، ويملأ البوم بيوتهم، وتصبح بنات آوى في قصورهم.

"ويمتلك بيت اسرائيل في ارض الرب عبيداً وإماءً .. واقطع من بابل إسماً وبقية ونسلاً وذرية.. واكسها بمسكة الهلاك.. ولول ايها الباب، اصرخي ايتها المدينة قد ذاب جميعك يا فلسطين."

كما ورد في سفر اشعيا، الاصحاح ٣٤

"للرب تكون ذبيحة في البصرة وذبحاً عظيماً في ارض ادوم، وترتوي الارض بالدم وتتحول انهارها زفتاً وترابها كبريتاً وتعبر ارضها زفتاً مشتعلاً ليلاً ونهاراً، لا تنطفيء الى الابد، يصعد دخانها."

اما الاثار اليهودية التي تكشف عن تعصب اليهود تجاه مصر فكثيرة ومتتالية في العهدين القديم والجديد، [٣٠] "من بيت الرب يخرج ينبوع ويسقي وادي السنط ومصر تصير خراباً، لكن يهوذا تسكن الى الابد واورشليم ا لى دورفدور... والرب يسكن في صهيون."

وفي الاصحاح ٤٣ من نفس السفر (اشعيا)

"لأني انا الرب الهك قدوس اسرائيل مخلصك جعلت مصر فديتك."

وفي ذلك اليوم تكون سكة مصر الى آشور (سوريا) فيجيء الاشوريون الى مصر، ويذهب المصريون الى اشور وتكون اسرائيل هي الثالثة، وهي البركة وسط الكل.

"في ذلك اليوم تكون مصر كالنساء، فترتعد وترتجف من هزة يدرب الجنود يهزها.. وتكون ارض يهوذا رعبا لمصر."

"ويل للذين ينزلون الى مصر الملعونة."

لذلك هأنذا عليك وعلى نهارك، واجعل أرض مصر خرباً مقفرة من مجدل الى اسوان الى تخوم كوش.. ويأتي سيف على مصر، ويكون في كوش خوف شديد عند سقوط القتلى في مصر.. في ذلك اليوم يخرج من قبلي رسل في سفن لتخويف كوة المطمئنة."

٣ ـ٣ العرقية اليهودية

المصادر الغربية: النظريات البيولوجية النفسية:

رغم ان الداروينية الالمانية ومدارسها المختلفة جعلت من اليهود ذريعتها المباشرة، بالدرجة الاولى، حيث كانت المسألة اليهودية الذريعة النموذجية لتصدير ازمة البرجوازية العالمية وحرف الصراع الطبقي الداخلي وشق القوى العمالية، إلا انها كانت المصدر الرئيسي للعرقية اليهودية نفسها. وقد كتب الفيلسوف اليهودي المعروف برونر عن هذا التناغم، يقول: [٣١]

"ان اليهود قد تشربوا النظريات العنصرية التي يعتنقها مضطهدهم، وانهم الصهيونيين قد اتخذوا من العنصري هاوستون ستيوارت تشمبرلين معلماً لهم وأعادوا صياغة أفكاره التافهة المشوشة في كتاب صهيوني بحث موضوع العنصرية، وتساءل برونر: كيف يتحدث الالمان اليهود عن شعب يهودي ويتخيلون بذلك اسوأ الافكار وأسخفها.

و لم يتوان الفريد روزنبرغ، أحد أهم المنظرين النازيين، أثناء الدفاع عن نفسه في محكمة نورمبرغ عن القول انه جمع كثيراً من آرائه هو شخصياً من الادبيات الصهيونية وأعاد انتاجها في الفكر النازي، كما ثبت أن هناك حالات قامت مجموعات اسرائيلية، بموجبها، بالرجوع الى السجلات النازية للتأكد من هوية العنصرية الدينية الاثنية لبعض الاسرائيليين.[٣٢]

اولا : النظرية البيولوجية:

بالاستناد الى نظرية دارون حول الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح، شكلت الدروينييه الاجتماعية المصدر الاساسي لكل النظريات العرقية في المجال الاجتماعي - التاريخي، ودارت في اطارها او حولها ابرز ا لمساهمات العنصرية في هذا المجال، ومنها:

* كتابات البريطاني هربرت سبنسر[٣٣] وخاصة كتابه "نظرية السكان" (١٨٥٢) الذي يرى ان البقاء للأصلح في عالم الحيوان والنبات هو الذي يسمح بفوز الاكفأ.
* ارنست هايكل في كتابه "لغز الكون" ١٨٩٩ وفيه اسقط نظرية داروين الطبيعية على المجتمع وتاريخه وربط حتمية الارتقاء الى سلسلة ارقى "بالمانيا" فآلاف بل ملايين الخلايا التي يتم التضحية بها من اجل الابقاء على فصيلة معينة من الخلايا، انما يقصد بها التضحية من اجل المانيا.[٣٤]
* نيتشه وخاصة في كتابه "غسق الاصنام" الذي يعتبر فيه المانيا هي النوع الذي يحمل اقوى الخصائص البيولوجية القادرة على التواصل في نسله

القادم. كما يقسم العالم حسب الخصائص البيولوجية الى اقوياء وضعفاء، سادة وعبيد، وليس اخيار واشرار.

* نظرية هيغل عن السيد والعبد، وعن الشعب التاريخي وغير التاريخي والتي تشي بعلاقة فكرية سرية مع فكرة تنحي الصفات والانواع غير الملائمة الداروينية.

* نظرية العروق، التي تشكل خليطاً من الداروينيه وفلسفة الحياة والمونادات - الجواهر كما هي عند ليبنتز وعند غومبلوفكس صاحب كتاب "العرق والدولة" ١٨٧٥ . وعند جوبينو صاحب كتاب "تفاوت الاجناس" الذي اعتبر امتزاج الاجناس إنحطاطاً للأجناس العليا، وحيث لا عرق أبيض لا تاريخ.(٣٥)

وكذلك عند خلفاء جوبينو امثال ستيوارت تشمبرلين الذي تحدث عن سمات بيولوجية تحكم انماط الثقافات المختلفة، مثل طول القامة، وتفلطح لانف ونظام الايض.

وجميع هذه الكتابات والتصورات تؤدي الى مفاهيمٍ للامة والمجتمعٍ والدولة والديموقراطية، اساسها اعتبار الدولة - الامة - المجتمع، كائناً حياً متكاملاً موحداً على الصعيد الداخلي في اطار ديموقراطية خاصة في مواجهة الخارج – الآخر. مواجهة تستدعي كل الاشكال التي تساعد على اخضاعه او تصفيته.

ثانياً: النظرية السيكولوجية:

ثمة استدراك أول هنا وهو أن النظرية السيكولوجية العرقية ليست منفصلة عن الداروينية والنظرية البيولوجية بل تتابعها بالاستناد الى ابرز معطياتها وتراكم فوقها، كامل البناء العرقي في مجال الامة - المجتمع - الدولة.

أما الاستداراك الثاني، فإن هذه النظرية بكل تلاوينها لا تخرج عن الفرويدية.

وتشكل الماركسية النمساوية المصدر الاساسي لهذا التتابع الداروي‍ني – الفرويدي وخلاصته العجيبة عن فكرة الاستقلال الثقافي القومي التي توحد البرجوازية والبروليتاريا كما صاغها رواد هذه الماركسية، اليهود: ك.رينير وباور. وهي الفكرة التي تستند الى التوارث، الى "اكتشاف" البروتوبلازما الجنينية، التي لها، "قدرة خفية على ان تولد من ذاتها افراداً يتميزون بخصوصية معينة"... ويرى في هذا مادية قومية، ينصبها فوق الروحانية القومية، وان كان المقصود هو فقط استبدال قوة خفية بأخرى مثلها. فهي تذهب الى انه عبر الوراثة "تحدد مصائر الاسلاف المتغيرة طابع كل اخلافهم، فيرتبط هؤلاء بوحدة الطبع، بالامة".. وحتى قدرة هذه الامة (الشعب) او تلك على النضال تفسرها "المادية القومية" لا بالظروف المعاصرة لحياة الامة (الشعب) المعنية، بل بظروف وجود الاسلاف. "فالصفات الموروثة لدى الامة ما هي الا بقية ماضيها، تاريخها المتجمد."(٣٦)

ويشير باور الى اسلوبين في التوارث، بواسطتهما تحدد مصائر الاسلاف: طبع الاخلاف، فينوّه بوحدة الامة، الطبيعية والثقافية، ليقول ان الامة ليست الا وحدة المصير، الذي يتكون نتيجة نقل: ١- الموروثات الطبيعية، ٢- القيم الثقافية، وبفضل وحدة المصير هذه، وبفعل آلية الابيرسيبتيا القومية، فإن أي تصور جديد، أي مضمون ثقافي، يستوعب ويدرك من قبل كل فرد تبعاً لماهيته القومية. ولكل امة "أنا روحية" تستوعب وتعكس كل ما يحيط بها على نحو فردي، اصيل، لا يتكرر. وينسب باوير الى الطبع القومي تكوين الارادة "ففي كل فعلٍ معرفي تتجلى الارادة في الاهتمام، الا عند بعض منها، وتغدو هذه، وحدها، موضوعاً للأبيرسيبتيا عنده."

وحتى طرق البحث العلمي ونتائجها يعتبرها باوير أموراً، تختلف من قومية الى اخرى، ومن هنا يلزم أنه ليس بوسع إبن الامة المعنية أن يدرك اليوم أي شيء إدراكاً مباشراً وموضوعياً. فكل التجربة الماضية لأمته تحوم فوق ادراكه. والامة المعنية ان يدرك اليوم اي شيء ادراكاً مباشراً وموضوعياً. فكل التجربة الماضية لامته تحوم فوق ادراكه، والامة تقوم بابيرسيبتيسا العالم المحيط

كله وفقاً لنشاط نفسي فعال، هو ما يشكل "روح" الامة. وهكذا يطبق باوير مذهب كانط حول "الابيرسيبيتيا الترنسندنتالية" على فهم ماهية الامة والمسألة القومية، فهو يرى في الطابع القومي، الذي يتعذر الوقوف عليه، والوحدة المزعومة، الاصلية وما قبل التجريبية، لادراك العالم الخارجي والظواهر الاجتماعية لدى هذه الامة او تلك. بعبارة اخرى، تنحصر "الابيرسيبتيا القومية" في بعث "روح قومية" خفية جديدة، هي التي تسير مجمل تاريخ الامة، وتبقى ثابتة برغم كل تغيرات هذه الامة.

هذه "الروح القومية" الخفية هي ما يطرحه باوير على انه الطبع القومي الذي لا يتكرر.(٣٧)

٣ ـ ٤ مظاهر العرقية اليهودية

أـ الديموقراطية الجرمانية: حرية الانا، مصادرة الاخر:

لا يفهم استمرار تدريس سفر يشوع بن نون في المدارس الاسرائيلية خارج استمرار فكرة التناقض او العداء للاخر الخارجي كمحدد رئيسي للفلسفة الصهيونية ومرجعها التوراتي الذي يعتبر اليهود الابن الاكبر للاله يهوه، الذي انتقم من الابن الاكبر لفرعون رداً على انتقام فرعون من اسرائيل الابن الاكبر ليهوه.

هكذا تقدم الداروينية الاجتماعية فلسفة الحياة نفسها صهيونياً، في علاقة الأنا الصهيونية والآخر الخارج العربي.

وعندما يكتب لوكاش عن الديموقراطية الجرمانية: ليست الديمقراطية هنا شيئاً آخر، غير الديموقراطية الجرمانية التي تعني حماية العرق الطاهر، ليس إزاء الاخرين فقط بل داخل المعادلة الخاصة أيضاً.

فالدولة كتدبير أول ليست مؤسسة قائمة على الحق بل مؤسسة قائمة على تصور ايديولوجي للعالم مرتكز على الاثيقا الالمانية.

ليس الفـرد بـل الشـعب في تعاقبـه العرقـي الابـدي هـو نقطـة انطـلاق وهدف كل فعل. انه الحر الوحيد الذي يحتوي مصالح وتطلعات الالمـان ليـس كمواطنين احرار بل كأرقام وكعبيد من مواطني العرق الابيض.

فإننـا نقـرأ هنـا كمـا لـو انـه يكتـب عـن الديموقراطيـة الاسـرائيلية .. الديموقراطية الداخلية لدولة قائمة على دور خارجي فاشي عدواني، من شروطه الداخلية اعادة انتاج الدولة الحيوية المتكاتفة داخليا ضد الخارج ـ الاخر.

واذا كانت الديموقراطية الاسرائيلية الداخلية مستوفية لشروطها البيضاء، فإنها تأخذ في العلاقة مع الاخر شـكلا مختلفـاً مسـوغاً بوصـف الاخـر عرقـاً ناقصاً.

ومن ذلك فإن الوصايا العشرة عند اليهود تعتبر وصايا من اجـل اليهـود انفسهم.

فعندما يقال لا تقتل ولا تسرق.. فالمقصود لا تقتل ولا تسرق يهوديـاً. اما الاخرين فلا يعتـبرون بشـراً، لان الطوفـان، حسـب التفسـير التلمـودي لم يترك الا ذرية يهوه، بل ان نصوص العهد القديم تعطي نظامهم المنشـود حـق قتل الابرياء. العزل من حولهم، تماماً كما حـدث في لبنـان وفلسـطين. فكـل البشر حول اليهود مجرد احتياطي خام. ولليهود الحق في استرقاقه واستخدامه واستعباده ومنحه حق الحياة او الانتحار او الابادة (واما عبيدك واماؤك الذيـن يكونون لك فمن الشعوب الذيـن مـن حولكـم، منهـم تقتنـون عبيـداً وامـاءً، وأيضاً من أبنـاء المستـوطنـين النازلين عندكـم، منهـم تقتنـون ومـن عشـائرهم الذين عندكم والذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم، تسـتملكونهم لأبنـائكم مـن بعدكـم مـيراث تسـتعبدونهم الى الدهـر. (سـفر اللاويـين الاصحاح٢٥)

ويعتـبر كتـاب حاتانيـا الـذي تـأخذ بـه احـدى الطوائـف الحسـيدية العنصرية، وكتاب "مرشد الحيـاري" لــ موسـى بـن ميمـون يعتـبران الاغيـار والمسيحيين خصوصـا اقـرب الى الحيوانـات وادنـى مرتبـة بيولوجيـا مـن

اليهود.[٣٨] وقد افتى الحاخام اسحق غنزبرغ بأنه لا يعتبر دم اليهود ودم العرب المسلمين والمسيحيين دماً متساوياً، وبالتالي يمكن للجنود قتل حتى افضل الاغيار.[٣٩]

وبما ان اليهود تتساوى انفسهم مع العزة الالهية فالدنيا وما فيها ملك لهم. فالشفقة ممنوعة لغير اليهودي، وعلى اليهود ان يعاملوا الاجانب كحيوانات دنيئة غير عاقلة.[٤٠]

وتفترض الهالاكاه ان جميع الاغيار على درجة عالية من الانحلال "لحمهم مثل لحم الحمير ونطفتهم كنطفة الخيل"(حزقيال ٢٣: ١٩ و٢٠).

ولذلك لا ينطبق مفهوم الزنا على ممارسة الجنس بين يهودي وامرأة غير يهودية، فالمرأة غير اليهودية، اقرب الى البهيمة.[٤١]

ففي سفر التكوين يقول نوح عن ابنه كنعان "ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته" (٩: ١٨ - ٢٧)

"وعندما دعا اسحق ابنه يعقوب وباركه اوصاه وقال له لا تأخذ زوجة من بنات كنعان"[٤٢] (التكوين ٢٨: ١)

على هذا الاساس وحسب مشناه توراة "التي كتبها موسى بن ميمون، وحسب شولحان عاروخ لـ يوسف كارو اللتين تشكلان الهالاكاه "المنظومة التشريعية اليهودية الكلاسيكية" فإن الديانة اليهودية :ـ[٤٣]

١ـ تبيح ما يفسر عدم تعرض اي يهودي من قادة المجازر التي ارتكبت ضد الفلسطينيين والعرب الى عقوبات حقيقية.

٢ـ لا تسمح لغير اليهودي بتسليم اي منصب هام يمارس منه اية سلطة على اليهود.

٣ـ لا تسمح ببيع العقارات غير المنقولة كالحقول والبيوت في ارض اسرائيل للاغيار.

٤ـ لا تسمح بانقاذ غير اليهودي يوم السبت.

٥ـ تطلب من المرأة اليهودية العائدة من حمامها الطقسي الشهري من اجل الطهارة ملاقاة احد اربعة كائنات شيطانية هي: الخنزير، الكلب، الحمار، وأحد الاغيار.

٦ـ السماح لليهود بممارسة الغش والخداع مع غير اليهودي ولكن بطريقة غير مباشرة، فيما يمنع التلمود بصرامة اليهودي، تحت طائلة العقاب الشديد، من تقاضي فائدة على قرض يعطيه ليهودي آخر.

ب ـ الموقف من الآخر الخارج: اليهودي والمسيحية

لا تقتصر التعاليم العدوانية للشرائع التلمودية مشناه توراة التي وضعها موسى بن ميمون على العداء للاغيار خارج العهدين، القديم والجديد، بل تطال المسيحية والمسيح أيضاً.

وتحتوي على مقاطع معادية جداً ووصايا موجهة أساساً ضد المسيحية. على سبيل المثال، إضافة الى الاتهامات الجنسية البذيئة ضد يسوع، ينص التلمود أن عقوبة يسوع في الجحيم هي إغراقه في غائط يغلي: وهي عبارة لا تجعل التلمود مقبولاً من المسيحيين المؤمنين. كما يمكن التذكير بالوصية التي يؤمر اليهودي بموجبها بإحراق اي نسخة من الانجيل، علانية اذا أمكن، تقع بين يديه (هذه الوصية ليست موجودة في الوقت الراهن وحسب، بل وتمارس أيضاً، ففي الثالث والعشرين من مارس ١٩٨٠، احرقت مئات من نسخ الانجيل علانية وبصورة احتفالية في القدس تحت رعاية "ياد لعاخيم" وهي منظمة دينية يهودية تتلقى المعونات المالية من وزار ة الشؤون الدينية الاسرائيلية.(٤٤)

فاليهودية مسكونة بكراهية عميقة جداً للمسيحية، ويعترف التلمود بأن محكمة حاخامية يهودية حكمت على يسوع بالاعدام بسبب الوثنية وتحريض اليهود الاخرين عليها، واحتقار السلطة الحاخامية. وجميع المصادر الكلاسيكية اليهودية التي تذكر اعدامه تلقى بسرور بالغ مسؤولية اعدامه على اليهود، وحسب رواية التلمود لا يوجد ذكر للرومان.(٤٥)

واذا اضطرت سلطة الحاخامات للتخفيف من هذا العداء، فذلك بسبب دخول الغرب على خط الفكر الصهيوني مع حلول القرن التاسع عشر واضطرار المقاطع التلمودية المعادية للمسيحية او غير اليهود للاختفاء او التعديل.

فقد كان الضغط قوياً، ولكن ماذا حدث؟ حذفت قلة من المقاطع الهجومية الضاربة من جميع النسخ المطبوعة في اوروبا بعد منتصف القرن السادس عشر، اما المقاطع الاخرى، فإن تعبيرات مثل: غيري، لا يهودي، غريب (غوي، اينويهودي، نوخرى) التي تظهر في كل المخطوطات الاولى والطبعات، وكذلك جميع النسخ المطبوعة في البلدان الاسلامية، استبدلت بمصطلحات مثل "وثنى"، "همجي" وحتى "كنعاني" او "سامرى" وهي مصطلحات يمكن تبريرها أمام الاخرين، لكن القارىء اليهودي يعرف بأنها مصطلحات مطلقة للتعبيرات القديمة.

ومع تصاعد الحملة أصبح الدفاع أكثر إحكاماً، مما أسفر أحياناً عن نتائج ذات تأثيرات مأساوية دائمة. ففي فترات معينة أصبحت رقابة روسيا القيصرية أكثر شدة، ومع اكتشاف التعبيرات المطلقة المذكورة أعلاه ومعرفة ما تعنيه في الواقع، تم منعها ايضا، لذلك عوضتها المراجع الحاخامية بتعبيرات مثل "عربي" او"مسلم" (بالعبرية يشماعيلي وهي على الاثنين معاً) واحياناً "مصري" لأنها أدركت بصواب ان السلطات القيصرية لن تعترض على هذا النوع من الاساءة.(٤٦)

جـ ـ العرقية الداخلية:

ينقل ايفانوف(٤٧) عن البحاثة البريطاني اليكسي فينغرود في دراسته، اسرائيل وعلاقات الفئات في المجتمع الجديد (ان التقسيم حسب الاجناس هو احد مصادر التوتر في اسرائيل).

ويتحدث جدع جلادي في كتابه: (اسرائيل نحو الانفجار الداخلي) عن انقسام اليهود بين سفرديم، شرقيين وغربيين اشكنازيم عن خصائص لكل

منهما تميز الشرقيين في منابتهم الاجتماعية والثقافية الاسيوية والعربية وتحصرهم باستمرار في أعمال ومهن دنيا.

وهناك حالات، قامت فيها السلطات في اسرائيل بالرجوع الى السجلات النازية للتأكد من هوية العنصرية الدينية الاثنية لاحد المواطنين الاسرائيليين [٤٨]. ويتصل بذلك ما نشر عن القائمة السوداء للزواج في الـ"اندبندنت" بتاريخ ١٤/٦/٩٥، حين تحدث الكاتب باتريك كوكبرن عن الازمة التي احدثتها القائمة السوداء التي تحتفظ بها الحاخامية، والتي بموجبها لا يسمح للمدرجين عليها بالزواج والطلاق في الكنس اليهودية ولا يسمح لهم بالدفن في المقابر اليهودية.[٤٩]

كما يذكر احد قادة السود "عندما نأتي الى مكتب العمل يعرضون علينا ان نعمل في وظائف محددة، وفي كل مكان نفتش فيه عن عمل، نشعر بأننا فئة اخرى من الناس."

وبعبارة اخرى، ان الفئات التي تحظى بالافضلية تثير الضغينة لدى الفئات الدنيا.. ويتمتع بالقسط الاكبر من النفوذ اولئك الذين ينحدرون من اصل اوروبي، فكلما كانت السلالة اقرب الى المستوطنين الاوروبيين السابقين كان نفوذها أوسع. ويحظى الاوروبيون بمكان مرموق بالمقارنة مع اليهود النازحين من الشرق الوسط او من شمالي افريقيا. فاليهودي من أصل بولوني أو انكليزي مثلاً، يتمتع بإمكانات كبيرة جداً لا يحصل عليها اليهودي القادم من مصر او العراق. ان هذه المفارقة هي قانون يطبع بطابعه المجتمع كله، وفي كل فئة من الفئات يوجد، بالطبع، تقسيماتها.[٥٠]

وليس من باب المصادفة ان لا يشغل السفارديم سوى نسبة ضئيلة من الوظائف القيادية في الحكومة وفي المجال الاقتصادي وان لا يزيد مستوى المعيشة للسفاريم عن ٦٠ من مستوى الاشكنازيم.[٥١]

لم يضم مجلس وزارة اسرائيلي قط اكثر من وزيرين من اصل شرقي. ومن المعروف ان زعامة كل من الوكالة اليهودية، المسؤولة عن الهجرة والاستيعاب،

والهستدروت - وهما يتمتعان بسيطرة اقتصادية قوية على المجتمع - يتشكلان من الاشكناز أساساً. ويتضح في "الجمعيات التعاونية" الزراعية في اسرائيل هذا الاستقطاب العنصري، وذلك بقصر الكيبوتز المتميز على الاشكناز، بينما يعتبر السفارديم مجرد زوار عابرين، يقدمون عملاً بأجر زهيد. ولا يشغل السفارديم سوى ٩٪ فقط من الوظائف القيادية في الحكومة في المجال الاقتصادي.

كما يسيطر "البيض" أيضاً، على الاسكان ومختلف المجالات الاجتماعية/ الاقتصادية الاخرى. ويكفي هنا الاشارة الى ان الفجوة بين المجتمعين تزداد اتساعاً، وتنطبق الصورة نفسها على التعليم. اذ بينما تصل نسبة تلاميذ المدارس الابتدائية من أصل شرقي الى حوالي ٦٨٪ من مجموع كل التلاميذ، فإنه لا يصل الى مرحلة التعليم الجامعي سوى ١١٪ منهم.[٥٢]

هوامش الفصل الرابع

١ ـ مارسيا الياد، اسطورة العودة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠، ص١٨٨.
٢ ـ مارسيا الياد، مظاهر الاسطورة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠، ص٥٨.
٣ ـ الياد، اسطورة العودة، مصدر سايق، ص١٨٤.
٤ ـ المصدر السابق، ص١٨٩.
٥ ـ المصدر السابق، ص١٧٠/١٧١.
٦ ـ احمد عثمان، جريدة الحياة، مصدر سابق.
٧ ـ سعيد الشحات، مجلة الكاتب الفلسطيني، دمشق، عدد٢٦/٢٦، ١٩٩٤.
٨ ـ والتر، ندوة الصهيونية حركة عنصرية، مصدر سابق، ص٢٩.
٩ ـ ليلنتال، الاخطبوط الصهيوني، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩، ص٤٦.
١٠ ـ شمالي، مصدر سابق، ص ٣٠.
١١ ـ الشحات، مصدر سابق.
١٢ ـ مكي، مصدر سابق.
١٣ ـ الشحات، مصدر سابق.
١٤ ـ الحوالي، مصدر سابق، ص٩٠.
١٥ ـ الياد، اسطورة العودة، مصدر سابق، ص٣٠.
١٦ ـ الياد، اسطورة العودة, مصدر سابق، ص٢٣/٥٠.
١٧ ـ الياد، اسطورة العودة، مصدر سابق، ص١٧.
١٨ ـ الياد، المقدس والدنيوي، العربي للطباعة، دمشق، ١٩٨٧، ص٤١.
١٩ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٥٦.
٢٠ ـ الياد، المقدس والدنيوي، مصدر سابق، ص٣٢.
٢١ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٥٦.

٢٢ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٤٤.
٢٣ ـ كالتاختشان، نظرية الامة في الماركسية، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٨، ص١١٩/١٢٠.
٢٤ ـ المصدر السابق، ص١٢٠.
٢٥ ـ القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص٢٠.
٢٦ ـ مكي، مصدر سابق،
٢٧ ـ غورانوف، مصدر سابق، ص٣٧.
٢٨ ـ عبدالوهاب المسيري، الانسان، عدد شباط ١٩٩٤.
٢٩ ـ غورانوف، مصدر سابق، ص٣٨.
٣٠ ـ مكي، مصدر سابق،
٣١ ـ هيرمان، مصدر سابق، ص٢٠١.
٣٢ ـ المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، مصدر سابق، ص٤٩/١٠٦.
٣٣ ـ جيمس بيرك، عندما يتغير العالم، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤، ص٣٤٥.
٣٤ ـ المصدر السابق، ص٣٤٠/٣٤٢.
٣٥ ـ لوكاتش، تحطيم العقل، مصدر سابق، ص٦٣/٦٥/٧٠/٧١.
٣٦ ـ كالتاختشان، مصدر سابق، ص١٢١.
٣٧ ـ المصدر السابق، ص١٢٢/١٢٣.
٣٨ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص٣٨/٤٠.
٣٩ ـ عبدالوهاب المسيري، جريدة الحياة اللندنية، ١٦/١٢/١٩٩٤.
٤٠ ـ د. احمد ظاهر ود. محمود الزعبي، بين الفكرين العربي والصهيوني، دار ابن رشد، عمان، ١٨٩٥، ص١٨٧.
٤١ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص١٥٦.
٤٢ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص١٦٦.
٤٣ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص١٣٤/١٤٠/١٦٨/١٥٧.
٤٤ ـ شاحاك، مصدر سابق، ٢٨/٢٩.
٤٥ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص١٧٧.
٤٦ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص١٧٧.
٤٧ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص١١٥.
٤٨ ـ المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، مصدر سابق، ص١٠٦.

٤٩ ـ السبيل، عمان، ١٩٩٥/٦/٢٧.

٥٠ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص١١٥.

٥١ ـ المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، مصدر سابق، ص٣٤.

٥٢ ـ المصدر السابق، ص٣٤.

الفصل الخامس

في نقد الصهيونية السياسية

في نقد الصهيونية السياسية او لاسامية الاخر

١ - ليس بالرغم من اللاسامية بل بدعمها

ان اللاسامية كما مر سابقا اختراع البرجوازية الاوروبية لحرف الصراع الاجتماعي الداخلي كما دلت على ذلك قضية درايفوس وليست موقفا ايديولوجيا أو بيولوجياً ضد اليهود، بل إن الجماعات الصهيونية، إعتبرت اللاسامية شرطاً لإنبعاثها ووظيفتها من اجل تبرير مشروعها الخاص، ودخلت كما سنرى في إتفاقيات مع أشد الجماعات اللاسامية عداء لليهود من اجل هذه الغاية كالاتفاقيات التي وقعها هرتزل مع جماعة المائة السود الروسية الرجعية والاتفاقيات التي وقعها وايزمان مع موسوليني وهتلر.

ومما يثير الدهشة أن نجد هذا المثال للاسامية مطابقاً لمقولات المنظر الصهيوني جاكوب كلاتزكين الذي قال:

"نحن، بإيجاز اجانب بحكم الطبيعة. إننا شعب أجنبي غريب في وسطكم، ونريد ان نبقى كذلك. فبيننا وبينكم هوة من الخلاف لا يمكن ردمها..".

"علي المرء أن يبحث ويدقق في الاقطار الغربية ليلاحظ ان اللاسامية لعبت دوراً كبياً في استمرارية اليهودية وفي اثارة المشاعر والحركات التي

ادت الى اعادة مولد قوميتنا... حقا اعداءنا فعلوا الكثير لتقوية اليهودية في ارض الشتات.

فعلينا اذن ان نتعاطف مع الخدمة الوطنية التي اسداها لنا نطاق الاستيطان او العزل فكم كانت قوتا الامتصاص والاندماج تنموان لو أن مضطهدينا أزالوا من طريقنا هذا السد، وأصبح اليهود يتمتعون بحرية التنقل والانتشار في مختلف انحاء البلاد. ومن هنا، كان علينا ان نكون ممتنين لظالمينا لأنهم أقفلوا بوابات امتصاصانا وحرصوا على ان يبقوا شعبنا مركّزاً في مناطق معينة وحالوا دون تشتته وأسهموا في بقائه موحداً ومنفصلاً عن الآخرين بحيث غدا من الصعب علينا حتى ولوج باب اعتناق المسيحية."

بل ان بن غوريون لا يتردد في القول باستعداده "لتدبير مجموعات خاصة من الشباب اليهودي لإثارة حملات الكراهية ضد اليهود في البلدان التي غرق فيها اليهود في رضا آثم عن النفس."[1]

ومن المفارقات الساخرة ايضا اعتراف هرتزل بأنه كتب كتابه "الدولة اليهودية" على انغام موسيقى ريتشارد فاغنر الذي كان من أشد غلاة اللاسامية. وقوله، أي هرتزل: "سنحت لي الفرصة. و لم يكن يخامرني الشك في صواب افكاري الا في تلك الليالي التي لم اكن استمع فيها الى تلك الاوبرا."

وتؤكد الوثائق، والقراءات التي رافقت نشأة وتطور الفكرة الصهيونية كم كانت هذه الفكرة مدينة للنشاطات والتصورات اللاسامية المقصودة، وأنها أي الصهيونية نشأت بدعم اللاسامية وليس بالرغم عنها...

لقد ظلت المجموعات اليهودية، أقلية داخل المجاميع اليهودية في اوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر، حيث كانت الاوساط البرجوازية اليهودية المتوسطة تتلمس اشكال الاندماج والتفاعل مع الحركة الديموقراطية الاوروبية بمختلف تياراتها، بعد ان لم تعد الطبقات الرأسمالية الصاعدة والتي اكتسبت خبرة وقوة لتخشى اليهود كما كانت من قبل، وبدأ اليهود يلعبون دوراً في التوسع والازدهار الرأسمالي، فشارك التجار في هولندا وامبراطوريتها التي لجأ

اليها عدد كبير من اليهود الفارين من اسبانيا، واحست الطبقات البرجوازية في انجلترا وامريكا بفائدة اليهود للدولة البرجوازية.

وقد ترافق ذلك مع حركة الاصلاح الديني التي ألغت الكنيسة كوسيط للايمان، ومع حملة نابليون وحركة الاصلاح الزمني التي رفعت شعارات الحرية والاخاء والمساواة بين البشر وكرستها في قوانين مدنية فحطمت أسوار الجيتو، ودخل اليهود فترة جديدة من حياتهم عنوانها الاندماج، وبدا أن الاصلاح الديني والثورة البرجوازية قدمت الحل الجذري بإعلان دولة القانون والحريات الديموقراطية.

ودخلت اليهودية الغربية، بشكل عام وابتداء من القرن التاسع عشر، في طريق الاندماج التام. ففي نهاية القرن الثامن عشر، وخلال ثلاثين سنة، تحول نصف يهود برلين الى المسيحية. اما الذين بقوا امناء للدين اليهودي، فقد دفعوا عن انفسهم تهمة تشكيل امة متميزة.وكان "ريسر" احد ممثلي اليهود الالمان، في النصف الاول من القرن التاسع عشر، يقول: "بدون وطن ودولة ليس ثمة من امة. ولهذا فإن اليهودية قد كفت، منذ زمن طويل، عن تشكيل امة." وكتب استاذ يهودي من برلين، عام ١٨٧٩ قائلاً: "نحن ألمان، ألمان فقط، فيما يختص بالقومية."(٢)

ووفقاً لما كتبه المؤرخ الصهيوني، بن هالبرين "فإنه عندما ظهر ما يعرف بعصر التنوير، وأعلن في اوروبا عن حق المساواة بين المواطنين جميعاً، بدأ تطبيق ذلك وفقا لقوانين وتشريعات اصدرتها شتى الحكومات، كما فعلت الجمعية الوطنية الفرنسية عام ١٧٩١ وتبعتها الدول الاوروبية الاخرى، ولكن هذه الحركة الاصلاحية لم تطبق تماما على اليهود، فظهرت فكرتان: الاولى، تدعو الى مساواة اليهود بوصفهم مواطنين في الاقطار التي يعيشون فيها، وقد أيدها معظم اليهود. والثانية، تدعو الى إعتبار اليهود قومية واحدة، وقد أيدتها أوساط غير يهودية.

وبالاساس، حيث توقف اليهود عن تشكيل طبقة، كانوا يندمجون بسرعة. ويضرب ليون مثلاً على ذلك باليهود الذين مارسوا الزراعة في شمال افريقيا، وفي تنصر العديد من الملاكين العقاريين في المانيا في القرن الرابع، وفي الزوال التام للقبائل اليهودية في الجزيرة العربية، وفي اختفاء العبرية باكراً كلغة حية وتبنى اليهود في كل مكان لغات الشعوب المجاورة، لكن هذا التكيف اللغوي كان يأخذ شكل لهجة جديدة ترد فيها بعض العبارات العبرية، فنجد في حقبات مختلفة من التاريخ لهجات عبرية ـ عربية ـ وعبرية ـ فارسية، وعبرية ـ برتغالية، عبرية ـ اسبانية... الخ. هذا ما عدا الاشارة الى العبرية ـ الالمانية التي اصبحت اللغة اليدشية في عصرنا الحاضر."

ويضيف ليون ان اليهود خلال العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر قد نسوا لغتهم وزادت عدد الزيجات المختلطة وأعداد المرتدين عن اليهودية.[٣]

لكن تبلور اهمية العالم القديم، كأسواق ومصادر للمواد الخام وحاجة البرجوازية الاوروبية الصاعدة الى السيطرة على مفاتيح هذا العالم، وفي مقدمتها الشرق العربي، جعل الغرب بحاجة الى اثارة المسألة اليهودية وليس الى حلها، مقدمة لتوظيف هذه المسألة هنا وليس في اوروبا، حيث كان قيام كيان خاص باليهود يخدم الغرب في اكثر من قضية، تبدأ بالالتفاف مستقبلاً على أية محاولة لتوحيد مصر مع سوريا، على غرار محاولة محمد علي، وتنتهي بحاجة الغرب الى السيطرة على مفاتيح الاقتصاد والسياسة في الشرقين الاوسط والادنى.[٤]

وقد ارتبط ذلك، باحتدام الصراع بين الامبرياليات نفسها وخاصة بين فرنسا وبريطانيا والمانيا التي رأت في المشروع الصهيوني جزءاً هاماً من استراتيجية تفكيك الامبراطورية العثمانية ووراثتها.[٥]

لقد دخلت الدوائر الغربية على المناخات التي رافقت النهوض القومي المتأخر وتشكل الدول القومية البرجوازية في اوروبا الشرقية التي كررت بعدها السياسات ذاتها التي رافقت تشكل الدول القومية البرجوازية في اوروبا الغربية.

فقامت بحرف وتحويل الصراع الاجتماعي مع جماهيرها الى صراع قومي موجه ضد اليهود يؤمن لها من جهة تصدير أزمتها الداخلية، وتحميل اليهود مسؤوليتها. ويساهم، من جهة ثانية في خدمة تصوراتها حول موقع المشر وع الصهيوني في السياسات الغربية إزاء الشرق العربي، اضافة الى توظيف النزعات الصهيونية من أجل شق الحركة العمالية.

فحيث لم تعد ثمة امكانية لانتاج الوظيفة الربوية القديمة مع هزيمة الاقطاعية في اوروبا الشرقية و لم يعد أمام اليهود سوى الاندماج، كانت الدوائر الغربية توظف المشاعر القومية المعادية لليهود في شرق اوروبا من أجل خلق مشاعر يهودية قومية وهمية في الاوساط اليهودية المتوسطة التي بدأت بالتفسخ مع المناخات الاقطاعية التي كانت تنتجها:

فوجدنا هرتزل يؤكد ان اليهود في اوروبا فائض بشري غير نافع داخل اوروبا، ولكن يمكن تحويله الى عنصر نافع للحضارة الغربية عن طريق نقله الى الشرق (فلسطين على سبيل المثال) ليصبح عنصراً إستيطانياً (اي أنه سيتم التخلص من اليهود وسيتم تحويلهم الى عنصر نافع بضربة واحدة من خلال نقلهم وتحويلهم الى مستوطنين (بل ويبدو ان هرتزل كان يفكر في تحويل كافة اعضاء الجماعات اليهودية الى عملاء للقوة الراغبة في الاستفادة منهم).

و لم يكن امام هذه الدوائر أفضل من اللعب بوعد الله للشعب المختار في الارض المختارة. أرض اللبن والعسل من اجل تحويل الكراهية المتبادلة في اوروبا الشرقية الى مشروع يخدم مصالح هذه الدوائر في فلسطين، مفتاح الغرب الى الشرق، والعالم الجديد الى العالم القديم.

وأضحى العهد القديم وتنزلاته من تلمود وشروح يهودية، دستوراً للحياة اليهودية، كما أضحى معتمداً في تفسير الكتاب المقدس للبروتستانت والكنائس الاصولية. اما الكنيسة الكاثوليكية فقد عدلت موقفها من اليهود وبرأتهم من دم المسيح، كما بحث المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥) الإشكالية المتعلقة بوجود أخطاء في بعض نصوص أسفار العهد

القديم، وقدمت له خمس صيغ مقترحة، استغرق بحثها ثلاث سنوات من الجدل والمناقشة، وأخياً تم قبول صيغة بالاغلبية الساحقة، وتقول عن التوراة ان أسفار العهد القديم تسمح للكل بمعرفة من هو الله، ومن هو الانسان، ومعرفة الطريقة التي يتصرف بها الله في عدله ورحمته بالانسان. غير أن هذه الكتب تحتوي شوائب وشيء من البطلان، ومع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهي.[٦] و لم تقل انه تحريف في خدمة ايديولوجيا العنف اليهودية والمصالح الرأسمالية الغربية في الشرق والايديولوجيا التي تمجد رب الجنود وتجعل من اشعيا ١٣: ٩ ـ ١٥ مناسباً تماماً لهذه التسويغات.

"هو ذا يوم الرب قادم قاسياً بسخط وغضب ليجعل الارض خراباً.. وكل من انحاش يسقط بالسيف وتحطم اطفالهم امام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نساؤهم."

فكانت الصهيونية اليهودية، صهيونية التاجر الغربي العالمي. وحيث كان سكان الجيتو، في الماضي هم المرابون الذين كرستهم اوروبا الاقطاعية في جيتوات خاصة، اكتسى الجيتو الاسرائيلي الجديد ملامح الثكنة العسكرية، داخل آسيا الاقطاعية من اجل اوروبا الرأسمالية.

وقد عبر عن ذلك ماكس نوردو بقوله: "أنتم تريدون منا أن نحمي قناة السويس وأن نؤمن طريقكم الى الهند عبر الشرق الاوسط، ونحن نريد منكم أن تساعدونا من اجل ان نصبح قوة قادرة على خدمة هذه المصالح" مستتبعاً ذلك بقوله في معرض آخر: "لسنا في موقعين مختلفين، فلا يسعنا الا ان نهزأ بالنصائح التي تدعونا للتحول الى آسيويين حتى ننجح هناك."[٧]

وهو ما كرره بن غوريون وبنحاس سابير في تصريحين متشابهين أكدا على ازدواجية الانتماء الاسرائيلي: الثقافي للغرب والجغرافي للشرق.[٨]

صهيونية التاجر الاوروبي: وعد بلفور

في قول لـ وايزمان بعد صدور بلفور: "كنت أرتجف خوفاً من ان تستدعيني الحكومة البريطانية لتسألني: ما هي هذه المنظمة الصهيونية، فقد

كان البريطانيون يعلمون ان اليهود ليسوا بجانبنا، واننا نقف وحيدين على جزيرة صغيرة، حفنة ضئيلة من اليهود بماض غريب."(٩)

وعندما استفسر اللورد بالمرستون من مجلس الوكلاء اليهودي في لندن عن مدى مساهمة اليهود في مشاريع الاستيطان في فلسطين لم يحظ بجواب شاف.(١٠)

فقد ظل المشروع الصهيوني حتى بدايات هذا القرن، مشروع الاقلية اليهودية المرتبطة بالدوائر الغربية، فيما ظلت الاكثرية غير معينة بهذا المشروع لأسباب متفاوتة.

فهناك من اعتبر الاندماج هو الحل الملائم، كمواطنين افراد (الماركسيون من اصل يهودي) او كأقلية قومية كما هو حال المفكر اليهودي الامريكي ستون الذي ربط ازدهار اليهودية بالتعايش كأقليات قومية داخل الحضارات التعددية كالهيلنية والحضارة الاسلامية.

على ان معارضة المشروع الصهيوني من موقع يهودي ديني كانت هي الابرز، فاليهودية الارثوذكسية اعتبرت كل قومية معادية للدين (ناطورى كارتا)، واليهودية الاصلاحية اعتبرت اليهودية ديانة وليست قومية.

وثمة مفارقة مدهشة(١١) وهي ان حمى العودة اليهودية التي تبناها المسيحيون لم تجد صدى كبيراً بين اليهود في بداية الامر، فقضية العودة الفعلية الجماعية لم تكن مطروحة أساساً على المستوى الديني اليهودي. وبالرغم من ان الدين اليهودي في احدى صوره، يؤمن بأنه "في الوقت الذي يحدده الرب بطريقته، عندما يصبح الانسان مؤهلاً للتحرر المطلق، فسوف يعاد اليهود الى فلسطين"، الا ان تأكيد حلم العودة لم يتخذ على أيدي الافراد، بل ان التلمود يقرر في بعض نصوصه ان اي شخص "يعود" الى فلسطين بغرض الاستيطان وليس بغرض التعبد يخالف بذلك الوصايا الربانية. من جانب اخر فإن حركة التنوير اليهودية(الهسكالاة) التي قامت في المانيا وصبت نقدها على التراث القومي الديني اليهودي المغرق في الغيبيات واللاتاريخية، هاجمت فكرة المسيح

المخلص واسطورة العودة، وحولت فكرة "جبل صهيون" الى مفهوم روحي او الى اسم للمدينة الفاضلة التي لا وجود لها الا كفكرة مثالية في قلب الانسان، وفي مرحلة ثانية هاجم المتدينون اليهود فكرة الصهيونية وبشدة لأنها وضعت نصب عينيها إحلال الفكرة القومية عاملاً موحداً لليهود أينما كانوا، بدلاً من تنفيذ الفرائض الدينية والتزام تعاليم التوراة التي حافظت على تميز ووجود اليهود بين باقي الامم كما يدعي المتدينون، فالصهيونية تحول اليهود الى امة كباقي الامم، وتشجعهم على التخلي عن الواجبات الدينية.

ويذكر، في هذا المجال، ان المؤتمر المركزي للحاخامين الامريكيين الذي عقد ١٨٥٥ في بتسبورغ اعلن "ان اليهود يشكلون جالية دينية فحسب"[١٢]

كما اعلن المؤتمر الوطني العام لممثلي الكنيس اليهودي في ختام اجتماعاته في بيتسبورغ عام ١٨٨٥ "ان امريكا هي صهيوننا"، وذلك على غرار الشعار الذي رفعه زعماء اليهود في المانيا قبل ذلك واعلنوا فيه ان "شتبتغارت هي اورشليمنا"[١٣]، وهو الخط الذي مهد لاعلان الحركة اليهودية الاصلاحية التي عارضت المشروع الصهيوني في فلسطين[١٤]. وأجبرت القيادة الصهيونية على نقل مقر انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول من ميونخ الى بازل[١٥]، كما أدانت لاحقاً نتائج مؤتمر بلتيمور التي لم تكن، من وجهة نظرها الا صدى عنصرياً للعنصرية النازية.[١٦]

وهناك شخصيات يهودية اخرى أظهرت تعاطفاً مع الصهيونية، بل ساهمت في صياغة بعض أفكارها الاساسية في الترويج لها. غير أنها، مع هذا، تحفظت إما على بعض الجوانب الايديولوجية او على الممارسات الصهيونية. ومن الأمثلة الدرامية على هذا آحاد هعام، أحد أهم فلاسفة الصهيونية، والذي بشّر بكثير من المقولات الصهيونية لكنه ـ مع هذا ـ بشّر بآراء اخرى تدل على بعض الخلافات الدقيقة العميقة مع الصهيونية، فعلى سبيل المثال، كان آحاد هعام يرى ان الدولة اليهودية مجرد وسيلة وليست غاية، لأن الغاية الحقيقية ـ حسب تصوره ـ هي تطوير الحياة الثقافية لليهود، والانبعاث

الروحي لليهود واليهودية. لذا عندما رأى ان كل طاقات اليهود بـدأت تتجـه نحو تأسيس "دولة صغيرة تصبح، مـرة اخـرى، كـرة قـدم في أرجـل جيرانهـا الاقويـاء" وجـد أن هـذا هـو إحـدى علامـات المرض، وليـس مـن علامـات النهضة، ولذا فقد جلس في أول مؤتمر صهيوني "حزيناً في ليلـة زفـاف"ـ علـى حد قوله. وكتب لأحد اصدقائه خطاباً يخبره فيه أنه اتضـح لـه ان الدمـار قـد تجاوز البناء: "مـن يعلـم مـا اذا كـانت هـذه ليسـت العلامـة الاخـيرة لشـعب يحتضر؟". وفي خطاب مفتوح، نشـر في جريـدة هـآرتس (٨سـبتمبر ١٩٢٢) أعرب المفكر الصهيوني عن حزنه لارتباط "اليهود بـالدم"، مؤكـداً ان تعـاليم الرسل والانبياء قد أنقذت اليهود من الدمار، ولكـن المستوطنين الصهاينـة في فلسطين لا يسلكون مسلكاً يهودياً: "يا إلهي، أهذه هي النهايـة؟ .. هـل هـذا هو حلم العودة الى صهيون، أن تدنس ترابها بدم الابريـاء؟ ان ا لله قـد انـزل بي العذاب اذ مد في حياتي حتى أرى، بعين رأسي، انني قد حدت عن جـادة الصواب.. اذا كان هوذا هو الماشيح، فإني لا أود رؤية عودته؟"(١٧)

ويتسم موقف آلبرت اينشتاين، العالم الرياضي الشـهير، مـن الصهيونيـة بنفس التحول، فقد كانت له مواقف مماثلة للصهيونية، ولكنه، فيما بعد، تبنى موقفاً معادياً للصهيونية. وفي عام ١٩٣٨ قال اينشتاين بأن " الطبيعة الاصليـة لليهودية تتعارض مع فكرة انشاء دولة يهودية بحدود وجيش وسـلطة زمنيـة." واعرب عن مخاوفه بخصوص "الضرر الداخلي الذي ستتكبده اليهودية"، اذا تم تنفيذ البرنامج الصهيوني: "إن اليهود الحاليين ليسوا هم اليهود الذيـن عاشـوا في فترة المكابيين"، ثم اشـار الى إن "العـودة الى فكـرة الامـة، هـو تحـول عـن الرسـالة الحقيقيـة للرسـل والانبيـاء". ولهـذا السـبب، وفي العـام نفسـه، فسـر انتماءاته الصهيونية وفقا لاسس ثقافية. إن قيمة الصهيونية ـ بالنسبة لـه،كمـا قال ـ تكمن أساساً " في تأثيرها التعليمي والتوحيـدي علـى اليهـود في مختلـف الدول"، وهذا تصريح مبني على الايمان بضرورة الحفـاظ علـى يهـود الشـتات وتراثهم،وإمكان التعايش بين اليهود وغير اليهود. وفي عام ١٩٤٦، مثّل أمـام

اللجنة الانجلو ـ اميركية وأعرب عن عدم رضاه عن فكرة الدولة اليهودية. وكما هو معروف، رفض اينشتاين ان يقبل منصب رئيس الجمهورية في الدولة الصهيونية حينما عرض عليه.(١٨)

هكذا يتضح مما سبق ان اسرائيل لم تتشكل لحل المسألة اليهودية كما تزعم الصهيونية السياسية، ولا تعبيراً عن فكرة الامة اليهودية الخالصة المطلقة كما تزعم الصهيونية الروحية، بل لحل المشكلة الغربية الرأسمالية في الشرق العربي كمشروع غربي حطم الجيتو اليهودي الربوي في اوروبا ليعيد تشكيله على هيئة ثكنة اسبارطية عسكرية تخدم مصالح الغرب في الشرق.(١٩)

وعندما يتساءل ليون لماذا لم يحاول اليهود العودة الى فلسطين قبل نهاية القرن التاسع عشر، فلإن هذه الهجرة ارتبطت بالمشاريع الغربية في أبعادها المتعددة:ـ

ـ تحويل اسرائيل الى قرصان حربي مؤهل عن طريق استخدام القوة للتأثير بصورة فعالة على مجرى الاحداث في منطقة الشرق الادنى ذات الاهمية البالغة للامبريالية.

ويضيف ايفانوف نقلا عن ميخائيل برتيشر صاحب كتاب ""دول آسيا الجديدة" إن التعاطف الغربي مع المسألة اليهودية تقرر في ضوء حاجة الغرب الى جسر مع المناطق التابعة وراء البحار في الشرق.

ـ مواجهة الخطر العربي الذي بدأت تباشيره بالظروف والحاجة الموضوعية التاريخية التي دفعت محمد علي للتفكير في إقامة أول دولة عربية مركزية.

والثابت تاريخياً ان نهوض مصر في عهد محمد علي وابنه ابراهيم كان له صداه الايجابي في الوطن العربي، خاصة مشرقه، الأمر الذي أثار مخاوف القوى الاستعمارية وتلك السائرة في ركبها، وهذا ما يعكسه بوضوح تقرير دي بو لوكميت ـ المستشار الفرنسي لمحمد علي ـ عقب زيارته لجيش ابراهيم باشا في بلاد الشام، اذ كتب يقول: "وهناك من ناحية اخرى أمر لا نستطيع حتى الان ان نتكهن بنتائجه، ونعني به تلك الحروب التي وضع أوزارها منذ

عهد قريب وما سوف تبثه في صفوف الامة العربية من شعور بالقومية وروح عسكرية على يد جيوش محمد علي الجرارة، مما يوقظ فيها الشعور بقوتها من جديد، ويولد في أبناء العرب الرغبة في أن يحكموا أنفسهم بانفسهم. وتحذيرا من اليقضة العربية التي لاحت تباشيرها وقتذاك، كتوصية لاتخاذ الاحتياط اللازم في مواجهة التحرك العربي باتجاه الوحدة والتحرر والاستقلال السياسي والاقتصادي، وجه البارون روتشيلد رسالة الى بالمرستون، في آذار ١٨٤١، جاء فيها قوله: "إن هزيمة محمد علي وحصر نفوذه بمصر ليست كافية، لأن هناك قوة جذب بين العرب، وهم يدركون ان عودة مجدهم القديم مرهون بامكانيات اتحادهم واتصالهم. إننا اذا نظرنا الى خريطة هذه البقعة من الارض فسوف نجد ان فلسطين هي الجسر الذي يوصل بين مصر وبين بقية العرب في آسيا وكانت فلسطين بوابة الشرق، والحل الوحيد هو زرع قوة مختلفة على هذا الجسر وفي هذه البوابة لتكون هذه القوة بمثابة حاجز يمنع الخطر العربي ويحول دونه. والهجرة اليهودية الى فلسطين، تستطيع ان تقوم بهذا الدور، وليست تلك خدمة لليهود ليعودوا الى ارض الميعاد، مصداقاً للعهد القديم فحسب، ولكنها أيضاً خدمة للامبراطورية البريطانية ومخططاتها. فليس مما يخدم الامبراطورية ان تتكرر تجربة محمد علي، سواء بقيام دولة قوية في مصر، او بقيام اتصال بين مصر والعرب الاخرين.[٢٠]

وبالاضافة الى روتشليد، يتوقف توماً عند الكتابات المماثلة لـ ناحوم سوكولوف وجورج جولر وجابوتنسكي وماكس نورادو وعنوانها الاساسي ليس افضل للغرب في الشرق من الغرب نفسه ممثلاً في اسرائيل.[٢١]

ان الوظيفة التاريخية لليهود، بمقتضى المعطيات السابقة، لم تلغ وانما اخذت برعاية الغرب شكلاً جديداً، فحل الدرع محل الذهب، وحل المحارب محل المرابي.

ولم يكن تساؤل لينين في غير مكانه عندما قال: "هل كانت مصادفة ان القوى الرجعية في اوروبا بأكملها وخاصة في روسيا تتكالب ضد اندماج اليهود."[22]

ففي هذه المنطقة من العالم التي تربط بين القارات الثلاث وبين أهم طرق التجارة والطرق العسكرية والتي كانت حتى عهد قريب تحت سلطة مركزية معادية للغرب، تذكر الغرب الرأسمالي الذي كان يضطهد اليهود، أن هؤلاء اليهود أصحاب حق تاريخي مزعوم في فلسطين، وما عليهم بالاستناد الى العهد القديم والاساطيل الاطلسية الا ان يعودوا الى ارض الاجداد، فيحولونها الى حصن مكابي جديد في خدمة البرجوازية العالمية. وبالرغم من الدور المميز الذي لعبته بريطانيا وأمريكا في انشاء اسرائيل، الا انْ فرنسا وروسيا القيصرية وألمانيا لم تكن غائبة عن أهمية اسرائيل بالنسبة لها شرق المتوسط.

فقد سبق لنابليون بونابرت ان وجه الى اليهود نداءاً عام ١٧٩٩ يدعوهم فيه الى استعادة حقوقهم المسلوبة في فلسطين،[23] كما تابع نابليون الثالث(١٨٥٢ - ١٨٧٠) الاهتمامات ذاتها على قاعدة الصراع الفرنسي - البريطاني - الالماني على المنطقة، وساهم في نشر كتاب موسى هس "روما والقدس" الذي جاء فيه ان فرنسا معنية بدعم اليهود في اقامة مستعمرات تمتد من السويس حتى القدس، ومن ضفتي الاردن حتى البحر المتوسط.[24]

ومن جهة روسيا القيصرية،[25] تشير الوثائق الى تعاون وثيق بين وزير الشرطة القيصرية الذي كان يترأس حزب المائة السود المعروف بمعاداته لليهود، وبين هرتزل؛ والى تعاون آخر تم ابرامه خلال الحرب الاهلية في روسيا خلال الاعوام ١٩١٩و١٩٢١ بين جابوتنسكي والعصابات البيضاء في اوكرانيا، انطلاقاً من فكرة هرتزل عن فائدة وضرورة اللاسامية من اجل نجاح الفكرة الصهيونية.

فقد ذهب هرتسل الى روسيا في اغسطس ١٩٠٣ لمقابلة فون بليهف، وذلك بعد أقل من أربعة أشهر على وقوع مذبحة كييف المروعة، التي ذاع بأن المسؤول عنها كان بليهف نفسه، وقد اقترح هرتسل اقامة تحالف يقوم على الرغبة المشتركة بإخراج معظم اليهود من روسيا، وفي المدى القصير إبعاد التأييد اليهودي عن الحركة الاشتراكية. وقد بدأ الوزير العنصري أول مقابلة (٨ اغسطس) بالقول بأنه يعتبر نفسه "مؤيد متحمس للصهيونية" وعندما استغرق هرتسل في وصف اهداف الصهيونية قاطعه بليهف قائلاً:

"انت تحاول اقناع المقتنع فعلاً"، وعقد جابوتنسكي معاهدة مع بيتليورا، الزعيم الاوكراني الرجعي الذي ذبحت قواته ١٠٠ الف يهودي في اعوام ١٩١٨ - ١٩٢١.[٢٦]

ولعل أكثر نماذج التعاون الصهيوني - الرجعي لفتاً للانتباه، هو إرتياح قادة الحركة الصهيونية لصعود موسوليني ثم الالتقاء معه، وصعود هتلر الى السلطة. فهم، كما يقول اسرائيل شاحاك[٢٧] كانوا يشاطرون هتلر الالتقاء بتفوق العرق، ومعارضة اندماج اليهود بين ابناء العرق الادنى، وقد نشر الحاخام اليهودي يواقيم برنز، الذي هاجر بعد ذلك الى الولايات المتحدة، كتاباً خاصاً بعنوان "نحن اليهود" احتفاء بثورة هتلر الالمانية في النهاية لأولئك الذين صنعوها وصاغوا صورتها. وينبغي عرض ما تعنيه بالنسبة لنا: لقد فقدت الليبرالية حظوظها. الليبرالية تلك الصيغة الوحيدة للحياة السياسية التي ساعدت على اندماج اليهود تتعرض للهزيمة الآن.

ان انتصار النازية يلغي الاندماج والزيجات المختلطة كخيار امام اليهود "ولا نشعر بالتعاسة نتيجة لذلك"، كما يقول الدكتور برنز، الذي يرى في حقيقة ارغام اليهود على تعريف انفسهم كيهود "تحقيق رغباتنا".

ويضيف: "نريد إحلال قانون جديد محل الاندماج: إعلان الانتماء الى الامة اليهودية والعرق اليهودي، ان دولة تقوم على مبدأ نقاء الامة والعرق الجديرة بتقدير واحترام اليهودي الذي يعلن الانتماء لبني جلدته ويشهر نفسه

بهذه الطريقة ان يكون قادراً على حمل ولاء منقوص للدولة. والدولة لا تريد من اليهود الا إعلان الإنتماء لأمتهم الخاصة، ولن ترغب بوجود متحملقين ومتزلفين يهوداً، بل تتطلب منا ا لايمان بمصالحنا الخاصة والولاء لها، لان الذي يحترم بني جلدته وعرقه هو الوحيد القادر على احترام الارادة القومية للامم الاخرى."

وكشفت الوثائق التي تركها النازيون خلفهم بعد سقوط برلين عن أشكال عدة من التعاون السياسي المباشر وغير المباشر بين النازية والصهاينة المتحمسين للهجرة، ومن بين هذه الاشكال تدريب اليهود على اقامة إدارات ذاتية في مناطقهم، على غرار الادارة الذاتية اليهودية لمدنية تيريزين،(٢٨) وكذلك الاتفاقية التي عرفت باتفاقية الـ هعفراه (٢٩) (كلمة عبرية تعني النقل) التي صرح النازيون بمقتضاها لليهود بالهجرة مقابل تسويق البضائع الالمانية والتأثير على الموقف السياسي للولايات المتحدة.

ويتوقف شمالي(٣٠) في السياق نفسه عند المحادثات التي عقدت في آب ١٩٣٣ في وزارة الاقتصاد الالمانية مع ممثل الحكومة واشترك فيها هوفيان مدير بنك انجلو فلسطين وممثلون عن هانوتيا وهي جمعية شكلتها الأوساط الاستيطانية الصهيونية في فلسطين، ونتيجة لتلك المحادثات أبلغ وزير الاقتصاد الالماني هوفمان عن استعداده لتوسيع الاساس العام للاتفاق المعقود مع شركة هانوتيا بهدف منح اليهود المهاجرين من المانيا الى فلسطين إمكانية أكبر لنقل ثرواتهم ولتعزيز تصدير السلع الالمانية الى فلسطين في الوقت ذاته.

ولقد ورد في نشرة لوزارة الخارجية الالمانية بتاريخ ٢٢حزيران ١٩٣٧، ما يلي: "حتى الان كان تشجيع هجرة اليهود من المانيا الى الحد الاقصى هو الهدف الاساسي للسياسة الالمانية تجاه اليهود وبغية تحقيق هذا الهدف تقدم التضحيات حتى في سياسة القطع الاجنبي. وعن طريق اتفاقية تحويل مع فلسطين (اتفاقية هعفارا) يسمح لليهود المهاجرين الى فلسطين بغية تأمين

اسباب العيش بالحصول على ترخيص بتحويل مبالغ محددة على شكل صادرات ألمانية اضافية الى فلسطين.

ومما كشفه، جون ودافيد كيمشي مؤلفا كتاب "الدروب السرية" في هذا المجال": "بأن المبعوثين اليهود الفلسطينين سافروا الى المانيا النازية، ليس من أجل انقاذ اليهود الالمان بل من أجل انتقاء الرجال والنساء الشباب، المستعدين والمتأهبين للتوجه الى فلسطين".

كما كتب الصحافي الالماني، هانس خينة يقول:[٣١] "حالما رفع الصهيونيون والاشتراكيون القوميون العرق والقومية العرقية الى مستوى الاشياء الاخرى كان من المحتم ان يمتد بينهم جسر مشترك." مضيفاً الى ذلك قوله بالاعتماد على معطيات وثائقية، بأن: "... رئيس مركز الاستخبارات لشؤون اليهود فون ميندلشتاين دعم بكل قوته نشاط المنظمات المتعلق بانشاء معسكرات تختص باعادة تربية اليهود الشباب وإعدادهم للاستفادة منهم في التعاونيات الزراعية في فلسطين. وقد تابع بإهتمام عمل الصهيونيين، وأعطى في قسمه أمراً بوضع خرائط خاصة يدون فيها نمو الصهيونية بين اليهود الالمان".

كما قام كورت جروسمان، في كتاب هرتزل السنوي (الجزء الرابع)، بدراسة الموضوع، ونشره تحت عنوان "الصهاينة وغير الصهاينة تحت حكم النازي في الثلاثينات"، وقد ألحق الكاتب بالمقال ثمان وثائق نازية تحمل كلها توجيهات للشرطة خاصة بتنظيم النشاط اليهودي في المانيا النازية. وأول هذه التوجيهات (رقم ١٨١٣٤/٣٥٤٢٠) صادرة من الشرطة السياسية في بافاريا في ١٨ يناير ١٩٣٥) وهي خاصة بمنظمات الشباب اليهودي. وجاء فيها ان اعادة بعث المنظمات الصهيونية "التي تدرب اليهود تدريباً مهنياً على الزراعة والحرف، قبل هجرتهم الى فلسطين، هو أمر في صالح الدولة النازية.

بينما جاء في توجيه آخر (رقم ١٨١٣٥/١٧١٨٦) بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٣٥، انه "يجب حل المنظمات اليهودية التي تدعو الى بقاء اليهود في المانيا

وقد منع مواطن صهيوني، اسمه جورج لوبنسكر، من القاء الخطب عن طريق الخطأ، ولكن التوجيه رقم ١٩٠٦/١٣٥١/١١ب، يصحح هذا الوضع، اذ صدر أمراً بالسماح له بممارسة نشاطه، لانه مدافع بليغ عن الفكرة الصهيونية وتعهد بأن يساعد على هجرة اليهود في المستقبل دون اي عوائق.(٣٢)

وقد اشارت الصحفية الاسرائيلية حنة اردنت الى الآثار الرئيسية للاتفاق المذكور بين السلطات النازية والوكالة اليهودية فكتبت تقول:(٣٣)

"ان النتيجة المباشرة لذلك هي انه في الثلاثينات، وفي الوقت الذي بذل فيه اليهود الاميركيون مساعي جديدة لمقاطعة البضائع الالمانية، كانت فلسطين تغرق بالبضائع التي تحمل العلامة التجارية (صنع في المانيا).

اما الاهتمام البريطاني باليهود، فقد بدأ مع كرومويل بغرض استخدامهم في الصراع على تركة اسبانيا والبرتغال بين انكلترا والاقاليم المتحدة(هولندا)"(٣٤)

وتواصل على امتداد القرن التاسع عشر والقرن العشرين بسلسلة من الاقتراحات والمشاريع حول توطين اليهود في فلسطين، ففي كانون الثاني ١٨٥٤ اعلن في البرلمان الانجليزي:

"ان العناية الالهية قد وضعت سورية ومصر في طريق انكلترا نحو المناطق الاهم في تجارتها الاستعمارية الخارجية: الهند والصين والارخبيل الهندي واوستراليا.. ان الاصبع الالهي يشير الى انكلترا ان تعمل بقوة لخلق ظروف ملائمة امام الشعب الملائم لهذه المهمة، والذي يمكن ان تستخدم طاقته دائماً وبصورة فعالة، اي بواسطة الابناء الحقيقين لهذه الارض، ابناء اسرائيل".(٣٥)

وكتب السياسي البريطاني المعروف شافتسبري في رسالة موجهة الى وزير الخارجية البريطاني بالمرستون يقول فيها: "إن من الضروري تحويل سورية الى دومينيون بريطاني" واشار الى ان ذلك بتطلب رأسمالاً ويداً عاملة اما الرأسمال فهو بطبيعته يرسل دائماً بدون رغبة كبيرة الى كل بلد لا تكون فيه الممتلكات والحياة في أمان.

واقترح شافتسبوري في ختام رسالته "لو أننا أمعنا التفكير في قضية عودة اليهود على ضوء إقامة او إستعمار فلسطين لاكتشفنا ان ذلك هو أرخص وأضمن طريق لتزويد هذه المنطقة القليلة السكان بكل ما هو ضروري".[٣٦]

و لم يقتصر الاهتمام البريطاني في هذه الفترة على رجال السياسة بل تعداها الى اوساط ادبية نافذة مثل اللورد الشاعر بايرون، صاحب قصيدة (لليمامة عشها وللثعلب وكره ولإسرائيل القبر) ووالترسكوت، الروائي المعروف، ولورنس اوليفانت، صاحب كتاب (ارض جلعاد) ١٨٨٠.

ومع حلول القرن العشرين كانت بريطانيا جاهزة لأخطر تصريحين، في هذا المجال:ـ

تصريح كامبل بنرمان، الذي اعتبر المشروع الصهيوني ضرورة غربية لفصل المشرق العربي عن المغرب العربي، وتبديد أية شروط تكرر تجربة محمد علي؛ وتصريح اللورد بلفور الذي جاء فيه:[٣٧]

"سواء كانت الصهيونية على حق ام على باطل، جيدة ام سيئة، فإنها ذات اهمية كبيرة لنا تفوق بكثير رغبات وآمال السبعمائة الف عربي الذين يسكنون هذه الارض القديمة" علماً بأن بلفور من المسيحيين المعروفين بعدائهم الديني لليهود، وعلماً بأن السير اودين مونتاجو، العضو اليهودي الوحيد في الحكومة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور، كتب مذكرة ضد إصدارالوعد يقول فيها:[٣٨]

"عندما يصبح لليهود وطن قومي، فإن الدعوة لحرماننا من حقوقنا، كمواطنين بريطانيين، ستزداد قوة، وبالتالي ستصبح فلسطين جيتو لكل يهود العالم، وسيصبح اليهود أجانب بوصفهم من مواطني الدولة الصهيونية. وقد وصف مونتجو الصهيونية بأنها "عقيدة سياسية مضللة، لا يمكن لأي مواطن محب لوطنه في المملكة المتحدة الدفاع عنها"، ثم أنكر وجود ما يسمى بالامة اليهودية او الجيش اليهودي.

ومثل بريطانيا، كانت الولايات المتحدة تتابع تطور المشروع الصهيوني في فلسطين مع تطور اهميتها وموقعها داخل المنظومة الرأسمالية العالمية.

فإدارة الرئيس ويلسون ضمت لويس برانديس، احد زعماء الصهيونية في امريكا، ووافقت على اعلان بلفور قبل إعلانه رسمياً، وذلك في برقية وجهها مستشار الرئيس الى وزارة الخارجية البريطانية في السادس عشر في تشرين أول ١٩١٧.

ومع ازدياد التقدم الامريكي داخل المنظومة الرأسمالية العالمية، وعلى حساب بقية البلدان الرأسمالية وبخاصة بريطانيا، كانت البصمات الامريكية تزداد على الحركة الصهيونية مع ازدياد اهمية هذه الحركة في التصورات الامريكية للشرق الاوسط نفطياً وسياسياً، الامر الذي ينسجم مع انتقال الزعامة الامبريالية من بريطانيا الى الولايات المتحدة، ويفسر مغزى الضغط الامريكي على اليهودية الاصلاحية الامريكية واخضاعها للحركة الصهيونية،(٣٩) وكذلك مغزى انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي في نيويورك في فندق بالتيمور ١٩٤٢، الذي عرف المؤتمر باسمه وانتقال المقر الرئيسي للصهيونية من لندن الى نيويورك ١٩٤٥.

إن التزام الولايات المتحدة بقيام الوطن القومي لليهود وتأكيد هذا الالتزام بدعم ادارة ترومان لقرار التقسيم ١٩٤٧ ثم الاعتراف باسرائيل فور قيامها، كان يعني في ضوء نتائج الحرب الثانية ووراثة الولايا ت المتحدة لمصالح حلفائها الاوروبيين، انه اذا كانت المسألة اليهودية مظهراً من مظاهر انتصار الرأسمالية الاوروبية فإن الصهيونية مظهر من مظاهر انتصار الرأسمالية في تطورها الامبريالي الامريكي.

لقد كانت المسألة اليهودية تتشكل في اطار الرأسمالية الاوروبية القومية الصاعدة حتى القرن التاسع عشر، ولم تأخذ طابعها الصهيوني الا مع تحول هذه الرأسمالية الى امبريالية وتحول الوظيفة التاريخية لليهودية، من وظيفة التاجر المرابي داخل اوروبا الى وظيفة المحارب خارجها.

فلـم تكـن الصهيونيـة امتـداداً للمسـألة اليهوديـة، الا بقـدر مـا كـانت الامبريالية امتداداً للرأسمالية، و لم تكن وظيفة المحارب اليهودي امتـداداً لوظيفـة التاجر اليهودي الا بقدر ما احتاجه الغرب في الحالتين للجيتـو اليهـودي، مـرة كجيتو للمرابين داخل الاسوار الاوروبيـة، ومـرة كجيتـو للمحـاربين خـارج هذه الاسوار.

هوامش الفصل الخامس

١ـ ايفانوف ، مصدر سابق، ص١٠٤

٢ ـ ليون، مصدر سابق، ص١٠٢.

٣ ـ رايان، مصدر سابق، ص٤٥/٤٦.

٤ ــ اميل توما، جذور القضية الفلسطينية، مركز الابحاث الفلسطينية، بيروت، ١٩٧٣، ص٥/٨.

٥ ـ المصدر السابق، ص٦٢/٦٣.

٦ ـ مكي، مصدر سابق.

٧ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٨٦/٩٥.

٨ ـ المسيري، مصدر سابق، ص٨٦/٩٥.

٩ ـ ليلننتال، مصدر سابق، ص٣٣.

١٠ ــ ريجينيا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥، ص١٢٢.

١١ ـ الشحات، مصدر سابق.

١٢ ـ غازي سميث، ندوة الصهيونية حركة عنصرية، مصدر سابق، ص٢١٧.

١٣ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٩٥.

١٤ ـ كلاوز هيرمان، مصدر سابق.

١٥ ـ المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، مصدر سابق، ص٦٠.

١٦ ـ سميث، مصدر سابق، ص ٢١٧.

١٧ ـ المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، مصدر سابق، ص٦٧.

١٨ ـ المصدر السابق، ص٧٠/٧١.

١٩ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص١٢٧/١٣٤.

٢٠ ـ فرسخ، (المجد)، عمان، ١٩٩٤/٨/٢٢.
٢١ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٤٨/٨٦.
٢٢ ـ المصدر السابق، ص٤١.
٢٣ ـ ريجينا الشريف، مصدر سابق، ص١٠٧/١٠٦.
٢٤ ـ المصدر السابق، ص١١٢/١١١.
٢٥ ـ ماكاي، مصدر سابق، ص١٣٤/١٣٩.
٢٦ ـ شاحاك، مصدر سابق، ص١٢٣.
٢٧ ـ المصدر السابق، ص١٢٥/١٢٤.
٢٨ ـ يفغيني يفسيف، الصهيونية الحقيقية والاختلاقات، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٠، ص٣٠/٢٥.
٢٩ ـ المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، مصدر سابق، ص٥٤.
٣٠ ـ نصر شمالي، المجد، عمان، ١٩٩٥/٧/٣١.
٣١ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٨٩.
٣٢ ـ المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، مصدر سابق، ص١٣٨.
٣٣ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٩١.
٣٤ ـ شمالي، ملاحظات اساسية، مصدر سابق، ص١٣٨.
٣٥ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٣٣.
٣٦ ـ المصدر السابق، ص٣٣.
٣٧ ـ ريجينيا الشريف، مصدر سابق، ص٦٧/٦٦.
٣٨ ـ المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، مصدر سابق، ص٦٧/٦٦.
٣٩ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٤٧.

الفصل السادس

نقد الصهيونية الروحية

١ ـ١ نقد المرجعية المقدسة

على الصعيد التاريخي

لم يكون اليهود خلال تاريخهم جماعة واحدة مستقرة في مكان واحدة انما كانوا جماعات مختلفة، مرتحلة دوماً الى جهات مختلفة، ما بين الرافدين وجزيرة العرب وكنعان وحاران ومصر.. الخ، حتى دولتهم التي قامت مع بداية الالف الاول قبل الميلاد لم تستمر في الوجود زمناً مناسباً يسمح بنضوج او تطور اجتماعي واضح محدد البصمات، يمكن للباحث تتبعه.

وانعكس ذلك في تنوع وتناقض المصادر التوراتية تبعا للشعوب والجماعات التي عاشوا بينها، كما انعكس في الغموض الذي أحاط بمعاني الالفاظ التوراتية، ومقصد التوراة الحقيقي منها، وهو أمر فيه جدال كبير بين الباحثين التوراتيين مما أدى ـ حتى الآن ـ الى تباعد شديد في تفسير النص الواحد، بل وأحياناً الكلمة الواحدة. إضافة الى ان التوراة تغص بأسماء اماكن قديمة على خارطة المنطقة، يصل عددها الى الالاف، لم يستطيع عالم جاد واحد حتى اليوم، ان يجزم بالمكان الحقيقي الصادق، ولو لعشر منها فقط، كما لم تعطنا البحوث الاركيولوجية ولا أي حفريات، دلائل صادقة على موضع قديم يمكن القول المؤكد انه موضع الان في فلسطين المظنون انها كنعان التوراتية.

وزيادة على ذلك، ونكاية في اخلاص الباحث الجاد، نجد مدونات التوراة قد ظلت زمناً طويلاً خالية من التنقيط والتشكيل، اضافة الى اختلاط النطق في الحروف العبرية ذات المخرج الواحد: الشفاه، الاسنان، الحنجرة، اللسان، الحلق، مع غياب الازمنة: الحاضر الماضي الناقص، الماضي التام، المستقبل السابق في الصيغة الاخبارية، ناهيك عن غياب الحروف المتحركة، ولم يتم وضع ذلك كله الا أيام الحشمونيين قبل الميلاد بحوالي قرنين من الزمان، وفق قواعد اللغة الآرامية، مما ادى الى لبس واخطاء لا مزيد عليها، مما يجعل قراءة اي كلمة اليوم في التوراة، موضع حذر وشك كبير.(1)

والاهم من ذلك كله حجم التباينات والتناقضات التي تضمنتها التوراة، فسفر التكوين يقدم قصة خلق العالم والانسان بروايتين مختلفين تماما .

في الرواية الاولى (من مطلع الاصحاح الاول الى مطلع الاصحاح الثاني) خلق الاله السماء والارض، وكانت الارض عديمة الشكل وكان ذلك اليوم الاول من ايام الخليقة. وفي اليوم الثاني، خلق قبة السماء "وفصل المياه التي فوقها عن المياه التي تحتها"، وفي اليوم الثالث فصل المياه التي تحت القبة عن اليابسة واسمى اليابسة "الارض" وأنبتت الارض العشب والبذور وأشجار الفاكهة. وفي اليوم الرابع خلق الشمس والقمر بالنجوم. وفي اليوم الخامس خلق الاسماك والطيور وكل مخلوقات الماء وحيوانات البحار ووحوشها. وفي اليوم السادس "عمل الله وحوش الارض والبهائم وجميع دبابات الارض. وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا. فخلق الانسان على صورته، وعلى صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم".(2)

ففي هذه الرواية، كان الانسان آخر ما خلق "على صورة" الخالق لكنه خلق ذكراً وأنثى في وقت معاً. وفي الحكايات الدينية اليهودية أن ادم كان ذكراً من اليمين وامرأة من الشمال (جانب الشر) ففصلهما الاله كما تفصل التوائم السامية، وفي حكاية اخرى أنهما خلقا ظهراً لظهر ملتصقة أكتافهما، فأخذ الاله بلطة وفصلهما. وكل هذه الحكايات من الواضح ان الغرض منها

الخروج من مأزق "على صورة الاله" و"ذكرا وانثى خلقهم" فالألوهة لا جنس لها.

اما رواية الاصحاح الثاني من نفس السفر، فعكس سابقتها التي اوردها الكهنة في الاصحاح الاول. وفي الرواية الاولى، كان الانسان آخر المخلوقات جميعا ، وخلق ذكراً وانثى في جسد واحد. اما في الرواية الثانية، فكان الانسان أول المخلوقات، وخلق ذكراً، أما الانثى فخلقت في النهاية، بعد الحيوانات والطيور، كملحق له، فقد قال: "الرب الاله ليس جيداً ان يكون آدم وحده، فاصنع له معيناً نظيره". وفكر الاله في كل شيء "الا المرأة" فجبل من الارض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء واحضرها الى آدم "لكن آدم" لم يجد معيناً نظيره "واذ ذاك فكر الاله في خلق الانثى، فأوقع سباتاً على آدم واخذ واحدة من اضلاعه وملأ مكانها لحما، وبنى الرب الاله الضلع التي اخذها من آدم امرأة واحضرها الى آدم".

ويقول فريزر: "إن التناقض الصارخ بين روايتي سفر التكوين يمكن تفسيره من كونهما مستمدتين من مصدرين مختلفين جمع بينهما محرر اوردهما جنباً الى جنب دون أن يعني كثياً بالتوفيق والمواءمة بينهما وتنعيم" ما بينهما من اختلافات حادة، فالرواية الاولى عن خلق العالم والانسان كما نجدها في الاصحاح الاول، مستمدة مما يعرف بالوثيقة الكهنوتية، أي ما ألفّه الكهنة اليهود إبان السبي البابلي وبعده، أما الرواية الواردة في الاصحاح الثاني عن خلق الانسان والحيوانات فمستمدة من وثيقة يهيوية (نسبة الى كهنة يهوه) سابقة زمنياً على الوثيقة الكهنوتية بعدة مئات من السنين".[٣]

فمن البين في هذه القصة التوراتية بشأن التكوين، أن هناك روايتين أصليتين تم دمجهما في قصة واحدة، وتشير الى ذلك دلائل شاهدة:

- مرة يقوم بفعل من افعال الخلق (ا لله) وهو في الاصل العبري (يهوه) كما في النص (في البدء خلق ا لله) و(قال ا لله) ومرة يقوم بأفعال اخرى للخلق زعيم المجمع الالهي (إلوهيم) الذي ميزنا باسم (الرب الاله) وصيغة

حديث الرب الاله تشير بوضوح سافر الى تشاوره المستمر مع اعضاء هذا المجمع (الوهيم).[٤]

وبالطبع لم تكن شواهد التداخل بين روايات مختلفة تم جمعها، أمراً واضحاً في قصة الخلق وحده، فهناك دلائل اخرى في روايات اخرى تشير الى هذا الامر بوضوح، ففي قصة نوح نجد رواية تقول ان الله قد أمر نوحاً أن يأخذ معه في الفلك من كل زوجين اثنين "ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين، تدخل الى الفلك لاستبقائها معك، تكون ذكراً وأنثى - تكوين ٦:١٩" بينما نجد رواية اخرى ترتفع بهذا الرقم فتقول: "من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا وانثى - تكوين ٢:٧"[٥]

ونفس التناقض نجده في تعليل تسمية مدينة (بيت ايل)، فهو في رواية ينسب الى يعقوب ابن اسحق عندما نام فأتاه الله في المنام، فقال متيقناً أن هذا المكان مسكن الاله فسماه بيت الاله او بيت ايل "ودعا اسم ذلك المكان بيت ايل، ولكن اسم المدينة أولاً كان لوز- تكوين ٢٨: ١٩"[٦] هذا بينما نعلم من التوراة ذاتها ان المدينة كانت تحمل اسم بيت ايل قبل يعقوب وقبل ابيه اسحق وقبل جده ابراهيم، حيث نعلم ان ابراهيم عندما هبط أرض فلسطين غريبا ،"ثم نقل من هناك الى الجبل شرقي بيت ايل ونصب خيمته، وله بيت ايل من المغرب وعلى من في المشرق - تكوين ١٢: ٨".

وفي قصة يوسف نجد يهوذا احد الاسباط هو صاحب اقتراح بيع يوسف للاسماعيليين بعشرين مثقالا (تكوين ٣٧: ٢٦: ٢٨) بينما في موضع اخر نجد رأوبين اخيهم يقترح إلقاء ه في الجب (تكوين ٣٧: ٢١: ٢٢: ٢٤" ثم تجد نفسك هنا في متاهة: هل ألقوه أم باعوه، ومن الذي أنقذه او اشتراه، تجار اسماعيليون ام مديانيون، التضارب هنا يصل قمته فلا تخرج بطائل.[٧]

اضافة لفقدان الكتاب المقدس صفته كمعيار تام السلامة للملتزمين، حيث ان الكتاب المقدس يشير الى العجلات كسلاح معلوم، وكوسيلة انتقال اعتيادية عند دخول (يوسف) الى مصر، والمفترض - حسب نظرية فليكوفسكي - ان هذا

الدخول قد حدث منـذ زمـن سبق الاسـرة الثانيـة عشـرة، وجـاء ذلـك في عـدة نصوص توراتيـة، جـاء في تصـرف الفرعـون بعـد ادراكـه لقيمـة يوسـف التنبؤيـة "وأركبه في مركبته الثانية، ونادوا أمامه: اركعوا، وجعله على كل أرض مصـر ـ تكوين ٤١: ٤٣" ثم عند وصول يعقوب الى مصر "شد يوسف مركبته وصعـد لاستقبال يعقوب لابيه ـ تكوين ٤١: ٤٣" ثم عند موت يعقوب وخروج يوسف من مصر ليدفن اباه في ارض كنعـان "فصعـد يوسـف ليدفـن ابـاه.. وصعـد معه مركبات وفرسان، فكان الجيش كثيراً جداً ـ تكوين٧:٥ ـ ٩"(٨)

على الصعيد التـاريخي الـذي يتصـل بتدويـن التـوراة نفسـها لم تتعـرض نصوص دينية للشك والبلبلة في سياقها وعناصرها ورموزهـا وظروفهـا، كمـا تعرضت لذلك التوراة التي كتبت بعد ابراهيم الخليل بألف وثلاثمائة عام وبعـد عهد موسى بأكثر من سبعة قرون.

اما المرات الثلاث الـتي تعرضـت فيهـا التـوراة لـتزويرات كبـيرة، فهـي عندما اعد الكهنة والملك يوشع (يوشيا) سفر الشريعة حوالي سنة ٦٠٠ ق.م.

وعندما أعد الكهنة من مدرسة حزقيال واشعيا الثاني ما عرف بالقانون الكهنوتي وعندما أعد عزرا ونحميا التوراة نفسها اثنـاء الاسـر البـابلي، حيـث تشير دائرة المعارف البريطانية الى ان عـزرا هـو الـذي نشـر الشـريعة اليهوديـة اعتماداً على التوراة نفسها.

ولعل اكبر تزويرات التوراة إثارة من حيث اهميتها وجساسيتها الدينية، هي التزويرات التي طالت علاقة موسـى بـالتوراة فقـد بـات معلومـاً أن نسـبة الاسفار الخمس الاولى الى موسى هو افتراض ايمـاني ينسـب تأليفهـا الى النـبي موسى، حتى صار ذاك الافتراض عقيدة يهودية منذ عهـد فيلـون السـكندري ويوسـفيوس في القـرن الاول قبـل الميـلاد، اللـذان عـاصرا المسـيح، وأعلنـا ان موسى هو مؤلف التوراة، وهي العقيدة التي ظلت تأخذ بها الكنيسة الى زمـن قريب، ولا تزال سائدة في كثير من الكنائس.(٩)

بل أصبح من العلمية القطع بتأليفه على يد عدد من الكتاب الذين اختلفت مشاربهم وامزجتهم وثقافتهم ومواقعم الاجتماعية وتوجيهاتهم العقائدية.

ومثل ذلك تأكيدات توماس هوبز من ان تدوين التوراة تم بعد موت موسى بزمن طويل.وكذلك ما جاء في الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس، الصادرة عام ١٩٦٠ "ما من عالم كاثوليكي في عصرنا، يعتقد ان موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة، أو أنه اشرف حتى على وضع النص، لان ذلك النص قد كتبه عديدون بعده، لذلك يجب القول: ان ازدياداً تدريجياً قد حدث، وسببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية.

ومن اليهود انفسهم الذين كتبوا ضد يوسيفيوس: داكوستا في كتابه اختيار التقاليد الفريسية ١٦٢٤ ومقارنتها بالشريعة المكتوبة، وفيه اعتبر الشفهية اليهودية بدعة فريسية.

وسبنيوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) الذي انتهى الى انكار اي احتمال يمكن بموجبه نسبة التوراة الى موسى، وقدم على ذلك شواهد عديدة، وقدم عدداً من القرائن التي تشير الى ان كتب العهد القديم بدءً من سفر التكوين وحتى سفر الملوك الثاني، قد كتبها عزرا الذي عاش في القرن الخامس قيل الميلاد.

وقال في كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة:ـ[١٠] "أخشى وأنا مقدم على ما أنا بسبيله ان يكون جهدي مضيعاً وبعد فوات الاوان. فالناس قد وصلوا الى ذروة من التخشب ورفض كل معارضة او مناقضة لما اعتنقوه من آراء يستميتون في الدفاع عنها تحت اسم الدين. وهذا ضرب من الانحياز الفكري بلغ من شيوعه وتسلطه على العقول ان القلة النادرة من الناس هي التي باتت لديها القدرة على الاصغاء لصوت العقل، لكني مقدم على المحاولة، على أي حال، ولن أدخر وسعاً في القيام بها، لأنه لا وجود لأي سبب ايجابي يجعلني يائساً من نجاحها.

وحتى اعالج الموضوع بطريقة منهجية، سأبدأ بمناقشة الافكار التي أرسيت في عقول الناس عن التوراة ومن ألفها، وبالضرورة، سأتحدث عن موسى، الذي يوجد شبه اجماع عالمي على انه مؤلف التوراة. فالفريسيون يعتقدون إعتقاداً راسخاً بهوية موسى الى الحد الذي يجعلهم يصمون كل من خالفهم الرأي بالهرطقة، وذلك هو السبب في ان ابن عزرا، وهو رجل مستنير واسع المعرفة، وعلى حد علمي، أول من عالج هذه المسألة، يخشى المجاهرة بأفكاره، فيكتفي بالتلميحات الغامضة، وهي تلميحات لن أتورع أنا عن إيضاحها، وبذا ألقى ضوءاً كاملاً على المسألة.

"وكلمات ابن عزرا، التي وردت في تعليقه على سفر التثنية، هي ما يلي:

"عبر الاردن وكل ذلك.. فإن كان ذلك فهمك لسر الاثنى عشر .. بالاضافة الى ذلك كون موسى كاتب الشريعة.. والكنعانيون كانوا وقتها في الارض.. سوف تتكشف على جبل الرب.. اذ ذاك ستقف على الحقيقة.

"بهذه الكلمات القليلة، يلمح ابن عزرا ويبين في الوقت ذاته ان موسى ليس من كتب التوراة (الاسفار الخمسة الاولى من "العهد القديم") وانها كتبت بعده بزمن طويل طويل، وان ما كتبه موسى كان مختلفاً تماماً الاختلاف عما بين ايدينا الان.

"وللبرهنة على ذلك، يوجه ابن عزرا الانتباه الى ما يلي:

"أولا : ان مقدمة سفر التثنية (وهي الواردة بصيغة المتكلم للايحاء بأن كاتبها موسى) لم يكن من الممكن ان يكتبها موسى، حيث ان المقطوع به انه لم يعبر الاردن ابداً".

ويقول سبينوزا انه من المقطوع به ان موسى لم يعبر الاردن اطلاقاً استنادا الى ما ورد في التوراة ذاتها:

"ذهب موسى وكلم بهذه الكلمات جميع اسرائيل، وقال لهم انا اليوم ابن مائة وعشرين سنة . لا استطيع الخروج والدخول بعد، والرب قد قال لي لا تعبر هذا الاردن."(تثنية ١:٢١ و٢)

"وكلم الرب موسى قائلاً اصعد الى جبل عباريم هذا جبل نبو الذي في أرض مؤاب الذي قبالة اريحا وانظر الى ارض كنعان التي انا اعطيها لبني اسرائيل ملكاً.. فإنك تنظر الارض من قبالتها (من خارجها) ولكنك لا تدخل الى هناك الى الارض التي انا اعطيها لبني اسرائيل.""تثنية ٣٢: ٤٨ و٤٩و٥٢"

"وصعد موسى.. وقال له الرب هذه هي الارض التي اقسمت لابراهام واسحق ويعقوب قائلا لنسلك اعطيها قد أريتك اياها بعينيك ولكنك الى هنا لا تعبر."

ثانيا : ان سفر التثنية يرد فيه القول: "وكتب موسى هذه الشريعة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت العهد ولجميع شيوخ اسرائيل وامرهم قائلا .. الى اخر الكلام "تثنية ٣١: ٩ و١٠"، وهذا كلام لا سبيل - كما هو واضح - الى نسبته لموسى، فهو قول كاتب اخر يروي ما فعل موسى وما قال.

ثالثا : ورد في سفر التكوين أيضاً القول بأن ابراهام دعى اسم الموضع الذي أمره الرب ان يقدم ابنه اسحق فيه ضحية للرب: "يهوه يرأه" بحيث بات الموضع يدعى اليوم جبل "يهوه سوف يرى" وهذه تسمية لذلك المكان لم تطلق عليه الا بعد بناء الهيكل في عصر سليمان (٩٦٠-٩٦٢ ق.م) ولم يكن اختياره في عصر موسى، فموسى لم يحدد موقعاً اختاره الرب، و"تكلم الرب مع موسى وجها لوجه"، و"أما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الارض"، و"وحمي غضب موسى على الشعب" و"موسى عبد الرب مات"، و"لم يقم بعد نبي في اسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه".

الا أن التوراة نفسها تقدم لمن يبحثها شواهد تقطع بأن تلك النسبة الى موسى باطلة تماما، ومن تلك الشواهد على سبيل المثال:[١١]

ـ هناك عبارات تتعلق بموسى في التوراة، ويستحيل ان تصدر عنه وذلك مثل الاية التي تقول: "واما الرجل موسى فكان حليماً جداً من جميع الناس الذين على وجه الارض ـ عدد١٢ : ٣" فهنا واضح تماماً أن الكاتب شخص اخر. ومثل تلك آية أخرى تقول: "وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً في ارض مصر، في عيون فرعون وعيون الشعب ـ خروج ١١: ٣" هذا ناهيك عن الخبر الخاص بوفاة موسى والذي يقول: "فمات هناك موسى عبد الله في ارض موآب حسب قول الله، ودفنه في الجواء في ارض موآب ـ تثنية٣٤: ٥"، وبالطبع يستحيل ان يكتب موسى عن نفسه انه قد مات، بل ويحدد موضع دفنه.

ـ انك تجد في التوراة أسماء لمواضيع جغرافية يستحيل ان يكون لدى موسى علم بها، لانها في عمق ارض فلسطين، وموسى مات و لم تطأ قدمه أرض فلسطين، إضافة الى أن اكثر تلك الاسماء لم تكن قد سميت زمن موسى، بل تمت تسميتها حسب ظروف ومستجدات حدثت بعد موسى بثلاثة او اربعة قرون، مثل اسم مدينة دان "تكوين ١٤: ١٤، تثنية ٣٤: ١". ومثل مجموعة القرى المعروفة باسم يائير "عدد ٣٢: ٤١، تثنية ٣: ١٤" وهي القرى التي لم تظهر أصلاً في الوجود الا في عصر القضاة بعد زمن موسى بقرون (انظر القضاة ١٠: ١٤).

ـ وفي قصة يوسف خطأ تاريخي هائل، يطلق على فلسطين ارض العبريين (تكوين ٤٠: ١٥) وهو الاسم الذي لم يطلق الا بعد ذلك بزمان، بينما قبل ذلك بتأكيد التوراة نفسها ـ كانت تسمى ارض الفلسطينيين، وارض الكنعانيين.

ـ وفي سفر التكوين سقطة فاضحة تؤكد كتابة التوراة بعد قيام الملكية المركزية لاسرائيل، اي بعد اربعة قرون او يزيد من زمن النبي موسى،

والسقطة تتضح في حديث التوراة، وقولها ان ما ترويه عن زمن موسى، كان "قبل ان يملك ملك من ابناء اسرائيل - تكوين ٣٦: ٣١، عدد ٢٤:٧" وهي جملة لا يكتبها الا شخص عاصر العهد الملكي وعرف بقيام المملكة. إنها بالقطع لا يمكن ان تكتب الافي العصر الملكي لاسرائيل.

على الصعيد العلمي

ان الداروينية، مقلصة الى صيغة مجردة، هي دفة قفز صالحة تماماً الى هذا الشكل الجديد للابولوجيتيقيا، وليس مدهشاً نظراً لأهمية الحاجات الايدولوجية المطلوب تلبيتها، ان يوفر هذا الشكل الامكانات الاكثر تنوعاً، وهي،كما يقول لوكاش:[١٢]

أولاً: نرى ظهور تصور (واحدى)(علمي)، فالمجتمع يظهر قطعة من الكون وقوانينه مجانسة تماماً، حيث السوسيولوجيا الجديدة تستخدم صيغ داروين لتصفية التأويل التاريخي من العلوم الاجتماعية.

ثانياً: المقولات الاقتصادية والطبقات تختفي من السوسيولوجيا، يحل محلها صراع العروق من اجل الحياة.

ثالثاً: الاضطهاد، اللامساواة، الاستثمار.. الخ تتخذ شكل (ظاهرات طبيعية) (قوانين للطبيعة)، لا يمكن بالتالي تلافيها او الغاؤها.

ومن البديهي ان ليس لهذه المفاهيم، التي حاولت الصهيونية، توظيفها أية روابط بالعلم او بالقومية او بالتاريخ او بواقع الحال نفسه داخل اسرائيل.

فعلى الصعيد العلمي، وانطلاقاً من الدراسات العرقية والسيكولوجية توصل العالم الى حقيقة واحدة فقط، هي أن جميع الاجناس البشرية الحالية متكافئة من حيث التكوين العضوي وان التقدم والتخلف لا يرتبط بهذا التكوين، بل بدرجة التطور الاجتماعي - الاقتصادي - الثقافي.

كما ان سفر التكوين نفسه، لا يفتقد الى الطابع العلمي كسفر قديم فحسب، بل ويبدو بالياً ومتخلفاً كثيراً مقارنة بالكتب المقدسة الاخرى، حسب قراءات بوكاي والاب شاردان.

يقول بوكاي انطلاقاً من الاصحاح الاول من سفر التكوين:[١٣]

"في البدء خلق الله السماء والارض، وكانت الارض خربة وخالية والظلمات تغطي اللجة وروح الله يرف على المياه".

"ليكن نور فكان النور. ورأى الله ان النور حسن وفصل بين النور والظلمات. ودعا الله النور نهاراً والظلمات ليلاً، وكان مساء وكان صباح: اليوم الاول"

نستطيع ان نقبل تماماً أن في مرحلة ما قبل خلق الارض كان ما سيصبح الكون، كما نعرفه، غارقاً في الظلمات، ولكن الاشارة الى المياه في تلك المرحلة أمر رمزي صرف، وربما كان ترجمة لاسطورة وهناك ما يسمح بالإعتقاد بوجود كتلة غازية في المرحلة الاولى لتكون الكون، فالقول بوجود الماء في تلك المرحلة مسألة غير علمية.

اما بالنسبة للنور، فإن الضوء الذي يقطع الكون، هو نتيجة ردود افعال معقدة تحدث في النجوم، فيما النجوم، حسب قول الاصحاح، لم تكن قد تشكلت بعد في هذه المرحلة، حيث ان انوار السموات لا تذكر في سفر التكوين الا باعتبارها ما خلق الله في اليوم الرابع حيث فصل بين النهار والليل، ولكن من غير المنطقي ان تذكر النور في اليوم الاول على حين تذكر وسيلة انتاج هذا النور في اليوم الرابع يضاف الى ذلك (ان وضع الليل والنهار في اليوم الاول هو امر مجازي صرف)، فالليل والنهار باعتبارهما عنصرين ليوم غير معقولين، الا بعد وجود الارض ودورانها تحت ضوء نجمها الخاص بها: اي الشمس.

ويضيف بوكاي حول قصة الطوفان ان الاصحاحات ٦و٧و٨ من سفر التكوين تقدم روايتين مختلفتين غير موضوعتين جنباً الى جنب، ففي أحد

المقاطع: لما عم فساد البشر قرر الله تدميرهم مع كل المخلوقات الحية الاخرى. فحذر نوحاً وأمره ببناء السفينة التي سيدخل بها وزوجته وأولاده الثلاثة بزوجاتهم الثلاث وكائنات حية اخرى. ويختلف المصدران بالنسبة للكائنات الحية، هناك مقطع من الرواية (وهو كهنوتي الاصل) يشير الى ان نوحاً قد اخذ زوجاً من كل نوع، ثم يحدد المقطع التالي (وهو من الاصل اليهودي) ان الله قد أمر بأخذ سبعة من كل نوع ذكر وانثى من الحيوانات المسماه بالطاهرة، وزوجاً واحداً من الحيوانات المسماة بغير الطاهرة.(١٤)

لكن بعد ذلك يتحدد ان نوحاً لن يدخل الى السفينة فعلاً الا زوجاً من كل نوع من الحيوانات. ويؤكد المختصون، ان المعنى به هنا مقطع معدل من الرواية اليهودية.

وهناك فقرة (وهي من الاصل اليهوي) تذكر أن عامل الطوفان هو ماء المطر ولكن هناك فقرة اخرى (وهي كهنوتية الاصل) تقدم سبب الطوفان على انه مزدوج اي ماء المطر والينابيع الارضية.

تغطت الارض حتى قمم الجبال وأعلى منها بالماء، وتدمرت فيها كل الحياة وبعد سنة خرج نوح من السفينة التي رست على جبل آرارات بعد الانحسار.

ولنضف أيضاً أن للطوفان، حسب هذه النصوص، مدتين مختلفتين: اذ تقول الرواية اليهوية أربعون يوماً فيضاناً، على حين يقول النص الكهنوتي مائة وخمسون يوماً، ولا تحدد الرواية اليهودية تاريخ وقوع هذا الحدث من حياة نوح، ولكن الرواية الكهنوتية تحدده حين كان عمر نوح ٦٠٠ سنة. وتعطى نفس الرواية اشارات عن موقعه الزمني بالنسبة لآدم وبالنسبة لإبراهيم وذلك من خلال قائمة الانتساب. وحسب الحسابات المعمولة بعد الرجوع الى اشارات سفر التكوين، والتي تقول ان نوحاً قد ولد بعد ١٠٥٦ عاماً من آدم، فإن الطوفان يكون قد وقع بعد ١٦٥٦ عاماً من خلق آدم. وبالنسبة الى إبراهيم فبحدد سفر التكوين الطوفان بـ ٢٩٢ سنة قبل ميلاد هذا الاب الاول. لكن، كما يقول سفر

التكوين، يخص الطوفان كل الجنس البشري وكل الكائنات الحية التي خلقها الله قد اعدمت على الارض حسب هذه الرواية.

اما قصة الخليفة فتبدأ بعد الطوفان كما يذكر العهد القديم: "وصعد لوط فسكن المغارة هو وابنتاه.. وقالت البكر الصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الارض رجل ليدخل علينا كعادة كل الارض، هلم نسق ابانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً.. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما"

ان البشرية، والامر هكذا، تكون قد اعادت تكوين نفسها ابتداء من اولاد نوح وزوجاتهم، بحيث انه، عندما يولد ابراهيم بعد ذلك بثلاثة قرون تقريبا، فإنه يجد الانسانية قد اعادت تكوين نفسها في مجتمعات. كيف يمكن لإعادة البناء هذه ان تتم في زمن قليل الى هذا الحد...؟ ان هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن النص أية معقولية.

اكثر من ذلك فالمعطيات التاريخية تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة، والواقع ان عصر ابراهيم يحدد بالسنوات ١٨٠٠ ـ ١٨٥٠ق.م تقريباً. فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من ابراهيم، كما يوحى بذلك سفر التكوين في الانساب فإن الطوفان يقع في القرن ٢١ أو٢٢ ق.م. وذلك هو العصر الذي كانت قد ظهرت من قبله في نقاط مختلفة من الارض حضارات انتقلت اطلالها للاجيال التي تليها. إن المعارف التاريخية الحديثة تسمح بتأكيد هذا.

اما رأي الاب دي شاردان، بالنسبة للتوراة، كما نقله مفيد عرنوق، فيمكن تلخيصه في النقاط الخمس التالية: (١٥)

١ـ رفض مبدأ التكوين المبني في التوراة على اساس (كن فيكون) وان هذه الكينونة هي من ارادة الله مباشرة.

٢ ـ القول بمبدأ التطور، وبذلك لا يكون الله قد شارك في عملية الخلق، فالله فقط خلق الوجود المادي الروحي وهذا الوجود تفاعل مع ذاته والبيئة وأعطى المخلوقات ومنها الانسان.

٣ ـ *على أساس التطور المادي الروحي*، تعتبر قصة التكوين التوراتية خرافة، من مخيلة الإنسان البدائي الذي لم يكن باستطاعته فهم ظواهر الوجود فهماً فلسفياً عملياً واضحاً.

٤ ـ سقوط التواريخ الواردة في التوراة من حيث عمر الانسان الذي لا يتعدى بموجب التوراة اكثر من اربعة الاف سنة بينما العلم الحديث يرجعه الى ثلاثة ملايين سنة ونيف.

٥ ـ وبسقوط تاريخ الخليقة، تسقط قصة آدم وحواء، كما تسقط قصة نوح وسلالته.

١ ـ٢ مرجعية الأنا المقدسة.. مرجعية شرقية وليس يهودية

ورد بإحدى رسائل انجلز الى ماركس: "أن الكتابات اليهودية المسماة بالمقدسة هي نفسها الكتابات الدينية العربية القديمة وعاداتهم القبلية"، فالجماعات اليهودية القديمة سواء جاءت بكتابها من عسير (غرب الجزيرة العربية بدلالة مقابلات لغوية لأماكن ومناطق وردت في التوراة ولا تزال قائمة في عسير، كما يبرهن كمال صليبي او جاءت من اليمن بدلالة مماثلة كما يذكر كاتب عربي آخر هو الباحث فرج الله صالح ذيب.[١٦] او جاءت من مصر كما يذكر فرويد في موسى والتوحيد، فهذه الجماعات عربية تميزت بطابع رعوي بدائي عنيف وتأثرت وأثرت بمن حولها، كما جرى توظيفها كبقية القبائل المتنقلة في حروب الامبراطوريات والممالك الكبرى السائدة في مصر وبابل وفارس وآشور.

والاهم من كل ذلك، ان المرجعية المقدسة لهذه الجماعات لم تكن يهودية بقدر ما كانت تحصيل حاصل الثقافات العربية المشرقية ومن ذلك:

التأثيرات المصرية

يرد فرويد التوراة الى مصر، والى ديانة التوحيد التي اعلنها اخناتون في المرحلة التي وصفت بمرحلة (نمط الانتاج الاسيوي) التي رافقت بناء السدود

الكبرى وحاجة مصر الى توحيد الالهة من أجل توحيد الاقطاعيات والمعابد والالهة المتعددة.

ويضيف ان موسى مصري الاصل تربى في البلاط الفرعوني وتسلم مراتب قيادية منها قيادة الحملة المصرية على الحبشة التي سجل فيها ظفراً كبيراً وتزوج هناك من (تربيس) بنت ملك الحبشة كما كان يؤمن بديانة التوحيد التي اعتنقها (اخناتون) فرعون مصر(١٣٧٩ - ١٣٦٣ ق.م) والقائمة على عبادة الاله الواحد عن طريق نشر الاخاء العالمي. وما خروجه الى ارض كنعان التي اطلق عليها كتبه التوراة (خروج بني اسرائيل) الا حملة مصرية مؤلفة من جماعة من الجنود ومعهم فلول من بقايا الهكسوس الذين كانوا يدينون بالتوحيد أيضاً.(١٧)

ويسوق فرويد عدة دلائل على قراءته هذه "إن ما يسترعي انتباهنا في شخصية موسى، في المقام الاول، هو ان اسمه بالعبرية يلفظ "موشي". فما أصل هذا الاسم ومعناه؟

معلوم أن قصة "سفر الخروج" تقدم لنا من الاصحاح الثاني جواباً، فقد جاء فيها ان اميرة مصرية رعت الطفل موسى بعد ان انتشلته من النيل، مبررة اشتقاقيا اختيارها لهذا الاسم بكونه قد"انتشل من الماء". بيد ان هذا التفسير مغلوط قطعا . فأحد واضعي "المعجم اليهودي" يؤكد ان التأويل التوراتي لإسم "من انتشل من الماء" هو اشتقاق شعبي للكلمة يتعارض أصلاً مع الصيغة العبرانية المتعدية: موشي، التي يمكن ان تعني على أبعد تقدير "الساحب ثانية". وهذه الحجة تستند أيضاً الى الواقعتين التاليتين:-

١- من غير المعقول الافتراض بأميرة مصرية معرفتها بأصول الاشتقاق من العبرية.

٢ - من المؤكد تقريباً أن الماء الذي انتشل منه الصبي لم يكن ماء النيل.

وبالمقابل، كان هناك على الدوام، ومن أكثر من جهة، من افترض بأن اسم موسى قد اقتبس من اللغة المصرية. سأنقل هنا مقطعاً مترجاً عن مؤلف حديث لـ"ج.هـ. بريستد"، واضع "تاريخ مصر" والذي يعتبر حجة في الموضوع: "من المهم ان نلاحظ ان "موسى" كان مصرياً، فالكلمة المصرية "موسى" تعني طفل. وهي اختصار لبعض صيغ من الكلمة عينها أكثر كمالاً، نظير "آمونـموسى"، أي "آمون ـ الطفل"، علماً بأن هذه الاسماء نفسها هي في الاصل اختصار لصيغ كاملة: "آمون" (انجب) طفلاً أو بتاح (انجب) طفلا، وسرعان ما حلت كلمة "طفل" محل الاسماء الكاملة المركبة، وهكذا تتكرر كلمة "موسى" بكثرة في الاوابد المصرية. ولا شك في ان والد موسى قد اعطي ابنه اسما تدخل في تركيبه لفظة آمون او بتاح، فأسقط فيما بعد اسم الاله وبقي اسم الطفل ببساطة:"موسى (موسى)". (اما حرف السين الموجود في نهاية كلمة موسى "فقد أضيف اضافة في الترجمة اليونانية للعهد القديم، وهو ليس من اللغة العبرانية التي يلفظ بها هذا الاسم "موشى". انني اذ انقل هنا حرفياً المقطع الآنف من كتاب بريستد، لا أشعر في نفسي بأي استعداد لتحمل مسؤولية ما ورد فيه من تفاصيل. وان شيئاً من الدهشة ليعتورني أيضاً نظراً الى ان تريستد قد اغفل، في تعداده، ذكر اسماء مماثلة متقبسة عن أسماء الالهة تتردد في قائمة ملوك مصر: احموس،تحوتموس، رعموس(رمسيس).

ومن الدلائل الاخرى التي يوردها فرويد في هذا السياق، ان موسى كان يثقل اللسان بمعنى انه لم يكن يعرف لغة القبائل التي هرب يها.

وتحت تأثير فرويد، كما يبدو، ذهب الدكتور احمد سوسه الى أن ابنة فرعون هي التي اطلقت عليه اسم موسى (ولما كبر الولد جاءت به الى ابنة فرعون فصار لها ابناً ودعت اسمه موسى وقالت اني انتشلته من الماء). (فإذا كان معنى الاسم المشتق من اللغة العبرية هو المنتشل من الماء وهو المقصود من الاسم ـ في التوراة ـ فهل كانت ابنة فرعون الذي سمته بهذا الاسم تجيد اللغة العبرية لتطلق عليه اسماً عبرانياً، وهل يعقل إيواؤه لو كانت تعلم انه (عبري)

وهم مطلوبون لفرعون؟ بالاضافة الى ان اللغة العبرية لم تكن قد تميزت كلغة الا بعد موت موسى بعدة قرون. وهذا يؤكد ان الاسم مشتق من اللغة المصرية القديمة كما اوردنا).

وتابع سوسه فرويد باستنتاجه بأن خروج اليهود من مصر ليس الاحملة مصرية لجماعة تؤمن بالتوحيد الذي ورثوه عن اخناتون.[١٨]

ومثل سوسه تابع القمني قراءة فرويد بقوله. وقد تعامل[١٩] (سيجموند فرويد) مع اسم (موسى) كما تعامل (جيمس هنري برستد)، وأكد أنه اسم مصري، وانه بالترجمة الدقيقة يجب نطقه صحيحاً (مس)، ومن ثم افترضوا انه كان يسبقه اسم إله مصري، باعتبار (مس) في المصرية القديمة تعني (يلد) او (انجب) غراراً على اسماء مثل (تحوت مس) اي الاله تحوت انجب ولدا، و(رع مس) اي اله الشمس انجب ولدا، و(أح مس) اي اله القمر انجب ولداً.

وإذا دققنا النظر في رواية التوراة، سنجد القول "ودعت اسمه موسى قائلة: اني انتشلته من الماء" لا يحتاج الى تخريجات، لان (الماء) باللسان المصري القديم (مو) معناه (ابن الماء) وهو اسم مركب يتناسب مع الموقف حيث وجدته ابنة الفرعون في سفطة على سطح الماء، و لم تجد اسماً يناسبه ــ وهي لا تعلم له نسبا ــ سوى تلك التسمية البليغة، وهي بدورها تسمية مصرية قحة.

ومن المظاهر والطقوس المصرية الاخرى التي تخدم قراءة فرويد عن الاصل المصري للموسوية، الدلالات الرمزية لأهم المسوغات والطقوس اليهودية، مثل:

١ـ الختان، وهو معطى رمزي لقربان الخطيئة.

٢ ـ تحريم الخنزير، الذي تستر به ست لقتل اوزيريس.

وهو هنا الصورة المقابلة لهولة الماء التي صارعها مردوك، وللوعل البري الذي قتل ادونيس ـ تموز.

ومن المفارقة حقاً استمرار هذا التحريم الذي بات يتناقض مع اليهودية الرعوية .

٣ ـ الثابوت المقدس، وهو رمز لروح الرب التي تحلق فوق جنوده في المعارك وتنصرهم، بل ان باحثاً متحيزاً لليهود هو ايفار لسنر يعترف بأن ثابوت العهد يعود الى مساكن آلهة النيل المتنقلة.

وتابوت العهد او الشهادة:[٢٠] هو تابوت أمر الاله "يهوه" نبيه "موسى" بصنعه وفق مواصفات محددة، فيما تزعم التوراة، بهدف ان ينزل الاله ويستقر فيه، فيحمله اليهود معهم اينما حلوا او ارتحلوا، ليتمكن من الاطلاع على احوالهم عن كثب، ومن ثم يتمكن من مد يد العون الفورية لنصرتهم على اعدائهم، وعند حط الرحال كان هذا التابوت يوضع في خيمة خاصة سميت خيمة الاجتماع، حيث يجتمع فيها موسى بربه بعيداً عن أعين المتطفلين، وهناك يتشاور الرب والنبي، ويتلقى النبي توجيهات الرب وأوامره. وقد استطاع الفلسطينيون عند دخول اليهود بلادهم، ان ينتزعوا هذا التابوت من اليهود خلال معركة عنيفة، فكانت النتيجة ان الرب الر اقد في التابوت لم يميز بين الفلسطينيين واليهود، وانما وقف الى جانب من يحملونه في رحلهم، وانحاز للفلسطينيين الذين امكنهم الاحتفاظ بتابوته، فنصرهم على اليهود، ولم يتمكن اليهود من استعادة النصر الا عندما استطاع داود النبي استعادة التابوت بعد معركة شرسة مع الفلسطينيين. وقد وردت اشارة لهذا التابوت في القرآن الكريم، حيث قالت الآيات عن داود: (أن آية ملكه، أن يأتيكم التابوت، فيه سكينة من ربكم). (البقرة ٢٤٨)

٤ ــ "المنارة المقدسة" التي صنعها موسى تنفيذا لتعليمات يهوه: "وتصنع منارة من ذهب نقي. قاعدتها وساقها.. جميعها خراطة واحدة من ذهب نقي وتصنع سرجها سبعة". (خروج ٢٥: ٣١: ٣٧)

والمنارة هي الشمعدان ذو الافرع السبعة الذي قال الكهنة ان يهوه أراده من سبعة أفرع تقديساً لأيام الخلق السبعة: الايام الستة التي خلق فيها

العالم، والسبت المقدس، اليوم السابع الذي فيه ثلاثة "اسرار" وهي التي تفصح عن تفرد الشعب المختار وتعبر عن خصوصيته في علاقته بالاله.

وتقول الحكاية الاقدم من تفسيرات الكهنة، الواردة في الزوهار، أن "افرع المنارة السبعة، كالكواكب السبعة، تتلقى الضوء من الشمس". وهذا القول يفصح عن ان المنارة ترجع الى عبادة الاله الشمس، السابق لتطور مفهوم الالوهة عند الكهنة اليهود في عصر السبي). "والمعروف ان المنارة كانت توضع في الهيكل بإتجاه غرب/ جنوب ـ غرب، اي بإتجاه اون في هليوبوليس، مركز عبادة الاله الشمس (رع ـ آتون) الذي كان موسى من كهنته".

"والواقع ان ما يجب ان نؤكده عليه هو ان ايام الخلق السبعة في حكاية سفر التكوين مبنية على رمزية المنارة المقدسة، وهي من الآثار التي تبقت في اليهودية من عبادة الاله الشمس في هليوبوليس، وليست مستمدة من ملحمة الخلق البابلية التي اعطت دور الخالق لإله الرعد مردوخ الذي هزم التنينة تيامات (التنين لوياتان، تنين الفوضى الاولى الذي قضى عليه يهوه كما قضى مردوخ/حدد على التنينة) ومزقها ارباً"[٢١]

٥ ـ رأس الجبل والتبة المقدسة

وفيما يخص "رأس الجبل" نلاحظ في سفر الخروج ان لقاءات موسى بيهوه كانت دائما على جبل، اول لقاء كان عند "جبل الله حوريب"(خروج ٢: ١). وفي رفيديم، قام موسى بدور الاله عندما "أتي عماليق وحارب اسرائيل" في ذلك المكان: "قال موسى ليشوع انتخب لنا رجالاً واخرج حارب عماليق، وغداً أقف أنا على رأس التلة (التبة المقدسة في هليوبوليس) وعصا الله في يدي. ففعل يشوع كما قال له موسى ليحارب عماليق، وأما موسى وهارون وحور فصعدوا على رأس التلة، وكان اذا رفع موسى يده ان اسرائيل يغلب واذا خفض عماليق يغلب"(خروج ١٧: ٨-١١). وعندما ارتحلوا من رفيديم وأتوا الى برية سيناء نزلوا مقابل الجبل. وأما موسى فصعد الى الرب (على الجبل) وناداه الرب من الجبل... وقال لموسى ها أنا آت اليك في ظلام السحاب" (خروج ١٩: ٢ و٣و٩). وبعد

ذلك اللقاء صعد موسى ومعه اشراف اسرائيل الى رأس الجبل ثانية" ورأوا إله اسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الازرق الشفاف وكذات السماوات في النقاوة. ولكن (الاله) لم يمد يده الى اشراف اسرائيل بأذى فرأوا ا لله وأكلوا وشربوا"(خروج ٢٤: ٩-١١). وبعدها "قال الرب لموسى اصعد الى الجبل (ثانية) وكن هناك، فاعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم. فصعد موسى الى الجبل، فغطى السحاب الجبل. وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة ايام. وفي اليوم السابع دعي موسى من وسط السحاب. وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني اسرائيل، ودخل موسى وسط السحاب وصعد الى الجبل، وكان موسى في الجبل اربعين نهاراً واربعين ليلة. (خروج ٢٤: ١٢-٨).

وفي الديانة المصرية كان "رأس التلة" او "الارض العالية" او "التبة المقدسة" من "الاسرار العليا". ففي اسطورة الخلق المصرية كان أول ظهور للارض من المياه الاولى او "الغمر العظيم" هو تلك التبة المقدسة، في لاهوتية آتون رع، كان ظهور التبة (الارض العالية) في اون ـ هليو بوليس كما تمسك كهنته دائماً، وكان موسى منهم، فوق ذلك الموقع العالي المقدس. ففي اسطورة الخلق، يخرج آتون رع من خضم فوضى المياه الاولى (غمر التوراة العظيم) ليوجد الكون والبشر وسائر المخلوقات، وحتى يجد موطئاً لقدمه، يأخذ في إعطاء الارض شكلاً بلا حدود، فيكون أول ما يخلق من الارض اذ ينطق الاله باسمه، التبة المقدسة.[٢٢]

٦ ـ غياب فكرة البعث: فالثواب والعقاب في التوراة دنيوي.

نقرأ في سفر ايوب، الاصحاح ١٤ للشجرة أمل ان قطعت تعود فتخلّف ومن رائحة الماء تفرخ وتنبت زرعاً كالغرس، اما الرجل فيموت ويبلى الانسان، يسلم الروح، فأين هو، تنفذ المياه من البحر، والنهر يجف، والانسان يضطجع ولا يقوم".

وفي سفر إراميا (٥- ٣٩) "ينام الموتى نوماً ابدياً ولا يستيقظون."

وعند اشعيا(٤٣ ـ ١٧) "يضطجعون معاً لا يقومون، خمدوا كفتيلة انطفأت" وفي المزمور ٦ "يارب نج نفسي، خلصني من اجل رحمتك، لانه ليس في الموت ذكرك، في الهاوية من يحمدك؟ ... هل يحدث في القبر برحمتك؟ او بحقك في الهلاك؟ هل تعرف في الظلمة عجائبك؟ وبرك في ارض النسيان؟".

ويوضح فرويد في (موسى والتوحيد) اسباب ذلك بقوله: "من المدهش ان الديانة اليهودية لم تتحدث عن اي شيء بعد القبر، ويختفي هذا الاندهاش اذا عدنا من الديانة اليهودية الى ديانة اتون، فغياب العالم الاخر كان عند اخناتون موجها ضد الديانة الشعبية لاوزيريس ولم تظهر فكرة البعث اليهودي الا بعد الاسر البابلي. وفي كتاب دانيال في مرحلة متأخرة وعلى خلفية التحالف مع قورش واستحقاقات ذلك التحالف، فتحول الشيول الى عالم خالد،[٢٣] ذلك الذي أصبح مسيحاً للرب ويستحق مصيراً أفضل. بالطبع قبل قورش الهدية ممتناً شاكراً ، فظهر في التوراة سيراً على منطق الديانة الزرادشتيه ولاول مرة، حديث حول قيامة الاموات وكثير من الراقدين في تراب الارض يستيقظون.

"هؤلاء الى الحياة الابدية، وهؤلاء الى العار، الى الازدراء الابدي استيقظوا وترنموا ياسكان التراب هلم يا شعبي ادخل مخادعك.(اشعيا ٢٦-١٩).

واضع روحي فيكم فتحيون، واضعكم في ارضكم فتعلمون انني انا الرب، تكلمت وفعلت.(حزقيال:٣٧- ١ : ٤).

وهكذا، كما تكفل اشعيا بإشاعة أن يهوه هو إله قورش وناصره، تكفل دانيال بمهمة اخرى [٢٤] فقام برد تحية قورش بأحسن منها، فأدخل الى اليهودية عقيدة جديدة لم تكن فيها أبداً من قبل، اخذها عن ديانة كورش (الزرادشتيه) ليكون هذا المزج الديني كفيلاً بتحقيق الاهداف المرجوة فقد ظل اليهود طوال عهودهم يعتقدون ان الموتى جيمعاً يرحلون الى العالم التحت ارضي، صالحهم وطالحهم، ذلك العالم الذي اسمته التوراة (الهاوية) و(شيول) واكدت التوراة هذا المعنى، فهي تقول: "من جهة أمور البشر، فإن الله يمتحنهم ليريهم انه كما البهيمة هم، موت هذا كموت ذاك، وقسمة واحدة للكل"(ص٣-١٦ : ٢٢).

التأثيرات البابلية والسومرية

أ ـ اسطورة الطوفان

قبل استعراض التأثيرات البابلية الواضحة في قصة الطوفان التوراتية، لا بد من التوضيح أيضاً بأن قصة الطوفان في أصلها البابلي واشتقاقها التوراتي لم تكن غريبة عن اساطير الشعوب القديمة، فالطوفان عند الفرس القدامى كان نتيجة طوفان حدث من ذوبان ثلج كثير خلال شتاء قاس وأن (اهورا مازدا) نصح الانسان الاول (يم) ان يلجأ الى قلعة فأخذ (يم) الصالحين ومن الناس وكل انواع الحيوانات والنباتات والتجأ الى قلعة فأتى الطوفان وقضى على الدور الذهبي الذي لم يكن يعرف الانسان فيه الشيخوخة ولا الموت.

وتقول الاساطير اليونانية ان الاله (برومنيه) هو الذي اخبر ابنه (ديكاليون) بأن الاله "زوس" قد قضى بفناء انسان العصر البرونزي ففر (ديكاليون) مع زوجته ونجا.[٢٥]

وهناك قصة شائعة اخرى من الهند تقول: أن حوتاً من حيتان البحر أخبر الالهة (ضو) بخبر الطوفان ونصح بأن يصنع الفلك فلما حدث الطوفان سحب الفلك نحو الشمال وأرساه بالقرب من جبل حيث انتظر (منو) انحسار الماء وبعد ان قرب قربانا بعث الله اليه امرأة تزوجها ومن نسلها عمرت الارض من جديد.[٢٦]

وفيما يلي مقارنة لحكاية الطوفان في ملحمة جلجامش وسفر التكوين بالتوراة حسب شفيق مقار[٢٧]

ملحمة جلجامش

١ ـ سبب الطوفان: ـ غضب الاله على البشر

"يا انليل، يا أحكم الالهة، كيف لم تتمهل وكيف لم تستشر؟ لم تسرعت وأحدثت الطوفان؟ كان الأجدر بك ان تعاقب الخاطيء على خطيئته

وتحمل من تخطى الحد بوزره، وتعاقب فلا تتمادى لئلا يتمادى الشرير في الشر. ولا الكل تأخذ بجريرة البعض.

"ليتك، بدلا من الطوفان، سلطت السباع، وليتك، بدلا من الطوفان سلطت الذئاب، أو ليتك جلبت القحط أو اطلقت الوباء والطاعون، بدلاً من الطوفان، لتأديب البشر.(سفر التكوين ٦: ٥-٧)

"ورأى الرب ان شر الانسان قد كثر على الارض. وان كل تصور أفكار قلبه انما هو شرير كل يوم. فحزن الرب لانه عمل الانسان في الارض. وتأسف قلبه فقال الرب امحو عن وجه الارض الانسان الذي خلقته. الانسان مع بهائم ودبابات الارض وطيور السماء لأني حزنت اني عملتهم".

٢ ـ اختيار الرجل الصالح لينجو وينقذ الاحياء

"دونا عن كل البشر، اختار الاله الحكيم "إيا" الرجل الصالح اوت ــ نبشتيم، فناداه من كوخه تخل عن كل ما تملك وانج بحياتك" جلجامش.

"واما نوح فوجد نعمة في عيني الرب. فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد اتت امامي لأن الارض امتلأت ظلماً منهم فها أنا مهلكهم مع الارض، ولكن اقيم عهدي معك"(سفر التكوين ٦: ٨و١٣و١٨).

٣ ـ النجاة بالفلك وانقاذ الحيوانات والطيور

"وابن لك فلكاً، واحمل في الفلك بذرة كل ذي حياة" (جلجامش).

"اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر. ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل الى الفلك لاستبقائها معك. تكون ذكراً وانثى. ومن الطيور كأجناسها. ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الارض كأجناسها" (سفر التكوين ٦: ١٤ و١٩و٢٠)

٤ ـ بناء الفلك

"الفلك الذي ستبنيه يجب ان تضبط مقاساته، وتختمه".

"فبنيت الفلك، وختمته، فحشوت ما بين ألواحه بستة شارات من القار وثلاثة من شارات من القطران".

"وجعلت علو جدران الفلك مائة وعشرين ذراعاً وطول جانب من جوانب سطحه مائة وعشرين ذراعاً وجعلت فيه ستة طوابق غير السطح وقسمت كل طابق تسعة اقسام" جلجامش.

"تجعل الفلك مساكن. وتطليه من داخل ومن خارج بالقار".

"وهكذا تصنعه. ثلثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله"(تكوين ٦: ١٤: ١٦).

٥ ـ المدة التي استغرقها بناء الفلك

"واكتمل بناء الفلك في اليوم السابع وحل أجل الموعد المعين"(جلجامش).

"لأني بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الارض.. وأمحو عن وجه الارض كل قائم عملته".

وحدث بعد الايام السبعة أن مياه الطوفان صارت على الارض.(تكوين ٧: ٤ و١٠)

٦ ـ دخول الفلك

"وضرب لي الاله موعداً معيناً بقوله:حينما ينزل الموكل بالعواصف في السماء مطر الهلاك، ادخل الفلك واغلق بابك".

"وحملت في الفلك كل ما كان عندي من المخلوقات الحية اركبت في السفينة جميع اهلي. واركبت فيها حيوان الحقل وحيوان البر. وتطلعت الى حالة الجو فكان مكفهراً مخيفاً، فدخلت الفلك واغلقت بابي"(جلجامش).

"في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنية معهم الى الفلك، هم وكل الوحوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور ذي جناح دخلت الى نوح في الفلك اثنين من كل جسد فيه روح حيوة. واغلق الرب عليه"(تكوين ٧: ١٣-١٦).

٧ ـ كيف حدث الطوفان

"وفي الليل انـزل الموكـل بالعاصفـة مطـراً مهلكـاً، ولمـا ظهـرت أضـواء السحر علت من الافق البعيد غمامة مظلمة. ومن قلب الغمامة أرعد الاله ادد (حدد) ونزع الاله ايركال اعمدة العالم السفلي واعقبه الاله ننورتا الذي هـدم سدود العالم السفلي"(جلجامش).

"وانفتحت طاقات السماء وانفجرت ينابيع الغمر العظيم".(تكوين ١١:٧)

٨ ـ غمة الطوفان وموت البشر والاحياء

"زلزلت رعود الاله أدد (حـدد) السـماء وحولـت كـل نـور الى ظـلام وتحطمت الارض كما تتهشم الجرة وارتفعت المياه حتى غطـت قمـم الجبـال، وانتحبت الاله عشتار بصوتها الشجي تندب البشر. واحسرتها لقـد عـادت ايام الفوضى الاولى وعاد البشر الى طين".

"وكان الطوفان فتكاثرت الميـاه ورفعـت الفلـك. فـارتفع عـن الارض. وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الارض فغطت جميع الجبـال الشـامخة الـتي تحت كل السماء، وخمـس عشـرة ذراعـاً في الارتفـاع تعـاظمت الميـاه عشـرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فغطت الجبال. فمات كـل ذي جسـد كـان يدب علـى الارض. ومـن الطيـور والبهـائم والوحـوش كـل الزحافـات الـتي كانت تزحف على الارض وجميع الناس. كل ما في انفه نسمة روح حيوة من كل ما في اليابسة مات، فمحا الله كل قائم على وجه الارض. الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء، فامحت الارض. وتبقى نوح والذين معـه في الفلـك فقط" (تكوين ٧: ١٧-٢٣).

٩ ـ مدة الطوفان

"ومضت ستة ايام وسبع امسيات و لم تزل زوابع الطوفان تعصف، ولمـا حل اليوم السابع، خفت شدة الزوابع وهدأ البحر وسكنت العاصفة. وغيـض عباب الطوفان. وتطلعت فوجدت السـكون في كـل مكـان وكـل البشـر قـد عادوا الى طين.

"كان المطر على الارض أربعين يوماً وأربعين ليلة. وكان الطوفان أربعين يوماً على الارض، وتعاظمت المياه على الارض مائة وخمسين يوماً".(تكوين ٧: ١٢ و١٧ و٢٤)

"ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل التي معه في الفلك. واجاز الله ريحاً على الارض، فهدأت المياه، انسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء. فامتنع المطر من السماء، ورجعت المياه عن الارض رجوعاً متوالياً وبعد مائة وخمسين يوما نقصت المياه."

١٠ - فتح الكوة

"فتحت كوة طاقتي، فسقط النور على وجهي، سجدت واخذت ابكي، انهمرت الدموع على وجهي"(جلجامش).

"وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها.(تكوين ٨: ٦)

١١ - الرسو على الجبل وارسال الطيور

"استقر الفلك على جبل نصير، وامسكت صخور الجبل بخشب الفلك فلم تدعه يجري. وفي اليوم السابع اخرجت حمامة فأطلقتها. لكنها عادت لانها لم تجد موضعاً يحط فيه، فأخرجت غراباً وأطلقته، فذهب و لم يعد اذ وجد المياه قد احسرت فأكل وحام وحط و لم يعد.(جلجامش)

"واستقر الفلك في الشهر السابع على جبل اراراط. وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً الى الشهر العاشر. وارسل نوح الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الارض. ثم أرسل الحمامة.. لم تجد مقراً لرجلها ورجعت اليه، فلبث سبعة ايام اخر وعاد فأرسل الحمامة. فأتت اليه الحمامة عند المساء واذا ورقة زيتون خضراء في فمها فعلم نوح ان المياه قد قلت عن الارض، فلبث سبعة ايام اخر وارسل الحمامة فلم تعد.(تكوين ٨: ٤-٢١)

١٢ - الخروج من الفلك وبناء المذبح

"آنذاك اخرجت كل من بالفلك وكل ما كان به، وقدمت قرباناً للالهة، وسكبت ماء مقدساً على قمة الجبل وأقمت سبعة وسبعة قدور

للقرابين و كدست تحتها القصب وخشب الارز، والآس، فتنسم الالهة شذاها وتنسموا عرفها الطيب".(جلجامش)

"وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين جفت الارض. وكلم الله نوحاً قائلاً خرج من الفلك انت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وكل الحيوانات التي معك.. وبنى نوح مذبحاً للرب وأصعد محروقات على المذبح فتنسم الرب رائحة الرضى." (تكوين ٨: ١٤-٢١)

١٣ - الندم على الطوفان

جلس الالهة منكسي الرؤوس يندبون. وقالت عشتار لقد جلبت الدمار على البشر لأني نطقت بالشر في مجمع الالهة. فما الذي كان دهاني حتى أنطق بالشر وانا الذي ولدت هؤلاء البشر؟ (جلجامش)

"وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الارض.. ولا أعود أميت كل حي كما فعلت"(تكوين ٨ :٢١)

١٤ - ميثاق عقد اللزورد وقوس قزح

"ورفعت الالهة العظيمة عشتار عقد الجواهر الذي صنعه لها الاله انو وقالت: اشهدوا علي أيتها الالهة: كما لا أنسى عقد اللازورد هذا الذي في جيدي، سأظل أذكر ما حدث في هذه الايام ولن أنساه أبداً. اما انليل فحذار ان يقترب من قرابين اوت – ينشتيم لانه لم يترو فأحدث الطوفان وجلب الهلاك على البشر"(جلجامش).

"وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً: "وها انا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم، الطيور والبهائم وكل حوش الارض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الارض، أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض ثانية كل ذي جسد بمياه الطوفان. ولا يكون هناك ثانية طوفان يخرب الارض. وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الانفس الحية التي معكم الى أجيال الدهر. وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الارض. فيكون

متى انشر سحاباً على الارض وتظهر القوس في السحاب أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد. فلا تكون المياه ثانية طوفاناً يهلك كل ذي جسد. فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الارض.(تكوين)

وعدا عن التوافق بالتعابير في القصتين فإن ثمة توافقاً في المفهوم من حيث أسباب الطوفان؛ ففي القصتين البابلية والتوراتية قد حدث الطوفان قصاصاً للبشر على أعمالهم الشريرة يهدف الى إبادة الجنس البشري الخاطىء مع الابقاء على الرجل الصالح وعائلته ـ اوتونابيشتيم البابلي ويقابله نوح التوراتي . هذا ونسجل إختلافاً بين القصتين من حيث موقف الاله. فنلاحظ في الاسطورة البالبلية ان الاله انليل هو. الذ ي قرر افناء الانسان غير ان "أيا" إله الحكمة وخالق الانسان أسدى النصح الى اوتونابيشتيم ليصنع فلكاً وينجو به من الطوفان المقرر، مما أثار حفيظة الاله انليل عندما رأى ان اوتونابيشتم قد نجا من الكارثة.

كما نلاحظ ان الاله أيا عتب على انليل لتقريره افناء البشرية دون اي ترو، بينما في القصة التوراتية يقرر الاله افناء البشرية والابقاء على نوح دون تردد او محاكمة ذاتية[٢٨].

ب ـ هابيل وقابيل

نقرأ في سفر (التكوين ـ٤)

"وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين. وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب. ثم عادت فولدت اخاه هابيل راعياً للغنم، وكان قايين عاملاً في الارض. وحدث من بعد ايام أن قايين قدم من أثمار الارض قربانا للرب، وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب الى هابيل وقربانه ولكن الى قايين وقربانه لم ينظر، فاغتاظ قايين جداً وسقط وجهه. فقال الرب لقايين، لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك؛ إن أحسنت افلا رفع، وان لم تحسن فعند الرب خطية رابضة وإليك اشتياقها وانت تسود عليها.

وكلم قايين هابيل اخاه. وحدث اذ كانا في الحقل ان قايين قام على هابيل اخيه وقتله. فقال الرب لقايين: أين هابيل اخوك. فقال لا أعلم. أحارس انا لأخي. فقال:ماذا فعلت. صوت دم اخيك صارخ الى من الارض. فالآن ملعون انت من الارض التي فتحت فاها لتقبل دم اخيك من يدك. متى عملت الارض لا تعود تعطيك قوتك. تائهاً وهارباً تكون في الارض، فقال قايين للرب: ذنبي للرب، ذنبي أعظم من أن يحتمل. إنك طردتني اليوم عن وجه الا رض ومن وجهك اختفي وأكون تائهاً وهارباً في الارض. فيكون كل من وجدني يقتلني. فقال له الرب. لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده. فخرج قايين من لدن الرب وسكن في ارض تود شرقي عدن."

وبمقارنة ما ورد في هذا السفر، مع المناظرة السومرية، التي تفيد ان الاله "انليل" رئيس مجمع الالهة السومري عزم على خلق جميع اصناف الاشجار والحبوب ليعم الخير في البلاد. ومن اجل ذلك خلق الاخوين "اين ميش" اي الصيف الراعي و"اينتن" اي الشتاء ــ الفلاح. وفي اسطورة اخرى خلق الأختين "ولهار" و"أشنان".

نجد ان المناظرتين السومريتين، أي "اينتن واينميش" و"لهار واشنان"ــ وهما في الاسطورة الاولى أخوان وفي الاسطورة الثانية اختان ونتيجة المناظرة كان حكم الالــه الى جانب الزراعة الممثلة بالفلاح مما أنهى الخصام بين المتناظرين وأدى الى الوئام بين الاخوين او الاختين.

ان القصة السومرية تحكي لنا اول ظهور الاعمال الزراعية في وادي الرافدين، في الوقت الذي كان فيه الانتاج يتمركز حول تربية الماشية والرعي.

وبعد المناظرة بين الاخوين، نرى الاله ينتصر في القصتين للزراعة الممثلة بالفلاح وعلى إثر هذا الحكم تنتهي المناظرة والخصومة ويخضع الراعي للفلاح. وهذه النتيجة تعني انتصار فكرة الزراعة واستقرارها.

وبالمقارنة بين هاتين القصتين ذات المضمون الواحد، مع القصة التوراتية، نرى أن مصدر القصة التوراتية مأخوذ عن القصة السومرية مع تحوير في النتائج كما يلي:- ان شخوص القصة التوراتية هي الراعي هابيل بالفلاح قايين واما الحكم فهو الرب.

- يقع الخصام بين قايين وهابيل على غرار الخصام الوارد في القصة السومرية.

- بفعل هذا الخصام، يحتكم الاخوان الى الرب.

- الرب ينتصر لهابيل الراعي خلافاً لحكم الالهة كما ورد في القصة السومرية اي الانتصار الى الفلاح. (٢٩)

التأثيرات الكنعانية

بالاضافة الى الطقوس والاعمدة المقدسة والاماكن المرتفعة التي ورثها العبرانيون من الكنعانيين (٣٠).

فإن الاله حدد، الذي حوله اليهود الى يهوه، كان أهم تأثير كنعاني في التوراة، فصفات حدد اخذت بحرفيتها ليهوه: "قاهر المياه، المرعد، مزلزل الارض، مكسر اشجار الارز، اله البروق. اله الخصب. اله راكب السحاب . الاله قاهر التنين ومخضعه. الاله الذي توج ملكاً على كل الالهة وملكاً على كل الارض بعد انتصاره على التنين والبحر" حرفاً بحرف، وصفة بصفة، لكن هناك خاصية بعينها من خواص حدد إهتم بها الكهنة وهي كونه اله التملك ورب العهود والمواثيق والتعهدات.(٣١)

ومن الواضح في "العهد القديم" ان ديانة حدد كانت من الديانات التي جمعها الكهنة اليهود في ذلك الكتاب، ومن الواضح ايضاً أنهم عندما أخذوها، لم يكن ذلك من "الاباء" رأساً كتراث ديني جاءهم من "اسرائيل القديمة" التي تحدث عنها الحاخام مرجنشترن، بل من الكنعانيين والفينيقيين

الذين انتقلت اليهم من الآراميين المهاجرين فأدمجوها في صلب ديانتهم في ظل كبير الهتهم "إيل".

وفي ذلك التجمع للديانات في "العهد القديم" تركت عبادة حدد، او "البعل" كما يرد اسمه تكرارا في مختلف الاسفار، بصمات غائرة واضحة في لحم عبادة يهوه. وسنقارن هنا ـ بالاستناد الى مقار- بعض ما ورد في نصوص رأس شمرا من أوصاف بعل حدد، وما ورد في "العهد القديم" من اوصاف يهوه(٣٢).

حدد الاله البطل الذي قهر جبروت المياه وتحكم فيها واخضعها ووزعها.(رأس شمرا)

"صوت الرب على المياه، والرب فوق المياه الكثيرة."(المزمور٢٩)

"ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم؟ (انا يهوه) جزت عليه حدي وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلت الى هنا تأتي ولا تتعدى وهنا تتخم كبرياء لججك."(ايوب:٣٨: ٨-١١)

"اله الرب يزلزل البرية"(المزمور ٢٩)

"ارتعدت الارض وذابت الجبال مثل الشمع"(المزمور ٢٩)

"صوت الرب مكسر الارز، ويكسر الارز في لبنان" (المزمور ٢٩)

"اضاءت بروقة المسكونة"(المزمور ٩٧) مقابل إله البروق في نصوص رأس شمرا.

"من بيت الرب يخرج ينبوع ماء ويسقي. وجميع أنهار يهوذا تفيض ماء، وتقطر الجبال نبيذاً جديداً والتلال تفيض لبناً.(يوئيل ٣: ١٨)

"الرب الجاعل السحاب مركبته"(المزمور١٠٤)

الاله قاهر التنين ومخضعه بسيفه.

الاله نصب ملكاً وصار ملكه الى الابد.

الاله توج ملكاً على كل الالهة بعد ان قتل التنين وقهر المياه(البحر)

"اتستطيع انت (يا ايوب) ان تصطاد لوياثان بشص او تضغط لسانه بحبل (كما فعلت انا يهوه)؟ هل تستطيع ان تجعله (كما فعلت انا) يقطع معك عهداً فتتخذه عبداً مؤبداً؟ ليس من شجاع يجرؤ فيوقظه فمن يقف في وجهي انا إذن؟ (ايوب ٤١: ١-١٠)

"في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان الحية الهاربة الحية التحوية ويقتل التنين الذي في البحر.(اشعيا ٢٧: ١) مقابل الإله قاهر التنين وقاتله في البحر في نصوص رأس شمرا.

"الرب قد ملك، الرب مزلزل الارض.(مزمور ٩٩)

"الرب ملك كبير على كل الالهة اذ له (اذ قهر) البحر".(مزمور ٩٥)

"الرب لبس القدرة، ائتزر بها. الرب قد ملك" (المزمور ٩٣)

"الرب قد ملك. فلتبتهج الارض" (المزمور ٩٧) مقابل "الإله توج ملكاً"، "نصب ملكاً" في نصوص رأس شمرا.

موسى والبطل النموذجي الشرقي

وبالتدقيق في قصة موسى، وخاصة ولادته، نجد صورة دارجة لنموذج البطل المتكرر في مختلف الاساطير القديمة، وخاصة الاساطير المصرية والبابلية التي كانت بحق المصدر الاساسي للتوراة.

إن قصة موسى، التي تبدأ من حيث وضعته أمه في سفط من البردي على حافة النهر، خوفاً عليه من القتل، وعثرت عليه ابنة فرعون. فرقت له رغم علمها انه طفل إسرائيلي وتبنته، وأرسلته مع امه كمرضعة له بالاجر[٢٣] "ولما كبر الولد جاءت به الى ابنة فرعون، فصار لها ابنا، ودعت اسمه موسى، وقالت اني انتشلته من الماء. (خروج ٢: ١٠)

تبدو كصورة عن ولادة اوزيريس وسرجون مؤسس بابل، الذي يقول عن نفسه: "انني سارجون، الملك القوي، ملك اجاد، كانت امي رقيقا، ابي لم اعرفه بينما كان شقيق والدي في الجبال. وفي المدينة التي نشأت فيها (ازوبيراني) وتقع على شاطىء الفرات، حملت بي امي الرقيق، حملتني سراً،

ووضعتني في سلة البردى واغلقت فوهة السلة بالقار وأدلتني الى الماء و لم يغرقني النهر، لكن حملني أبي (اكي) السقاء الذي كان يسحب الماء ورباني كابنه، وجعلني (اكي) بستانيه، وعندما كنت بستانياً وقعت عشتار في حبي وصرت ملكاً وحكمت كملك مدة خمس واربعين سنة."

قصة الخلق التوراتية واساطير الشرق

عند الهندوس يقوم اندرا إله الحرب بقتل التنين فريترا ويفصل السماء عن الارض. وفي اسطورة الخلق المصرية ــ وخاصة عقيدة منفيس، ان خلق العالم بدأ بـ كلمة تقابل أو تسبق اللوجوس (الكلمة المقدسة عند الاغريق).

ومن المعروف أن بداية خلق الكون في الاسطورة المصرية هي انبثاق الارض من الماء وردت على نحو طبيعي في أذهان سكان وادي النيل الذين استلمهوها في بعض الاحيان من ظهور جزر طينية بعد فيضان النيل.

وفي الاسطورة المصرية عن الخلق، هليوبوليس، ان الاله، الخالق الاول (اتوم) خرج من عماء المياه (نون) وظهر فوق تل وأنجب بدون زواج الاله شو (يقابل مردوك، عند البابليين والسومريين، كما يقابل المسيح).وقد قام شو كما مردوك بفصل السماء (الاله نوت) عن الارض جب. وبمقارنة الاسطورة المصرية مع سفر التكوين، نجد ما يلي:-[٣٤]

في اسطورة التكوين:

كانت الارض لا شكل لها وخاوية وكان هناك "الغمر العظيم" وكانت على وجه الغمر ظلمة وكانت روح ا الله ترفرف فوق المياه.(تكوين ١: ٢)

"وجعل الرب الظلمة سترة حوله مظلته ضباب المياه وظلام الغمام"(المزمور١٨: ١١)

وفي اسطورة الخلق المصرية

لم تكن ارض. لم يكن شيء. لم يكن الا الخواء وانعدام الشكل بلا حدود.

كانت هناك فقط هاوية المياه الاولى العميقة.

وعلى سطح المياه الاولى كان الظلام وكانت روح الاله كامنة في المياه وترفرف فوقها.

وكان الاله خبيئاً غير مرئي لا تتوصل عين الى شكله.(كتاب الموتى)

أما اسطورة الخلق البابلية والسومرية فكانت أكثر وضوحاً في سفر التكوين، فكلتاهما البابلية والتوراتية تشير الى وجود عماء مظلم هو الماء كما ان الكلمتين المستعملتين للعماء متشابهتان في كلا المصدرين.

تقول التوراة: "وكانت الارض خربة وخالية على وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه." وتتفق قصة الخليقة البابلية مع رواية التوراة بفصل المياه الاولى. فقد فصل الاله مردوخ جسم تيامة (الماء المالح المؤنث) وكون من نصفه السماء وصنع من شطره الثاني الارض بهيئة قبة."

وهناك تشابه بين المدونات السومرية والبابلية وبين مدونات التوراة في صفة كون الانسان خلق على صورة الاله، فقد عزا السومريون والبابليون الى آلهتهم صفات البشر جميعها، فلها عواطف وميول مثل ما للبشر وهي تعيش وتأكل... ومن ظواهر صفة التشبيه تأليه الملوك في حياتهم وبعد مماتهم والتي نلمسها لدى اليهود بشكل واسع النطاق، فليس من زعيم لهم الا وله صفات الالوهية!!

ومما يثير الدهشة والغرابة ان المكتشفات الاخيرة قد دلت على ان قصة آدم وحواء وجنة عدن التي وردت في التوراة، قصة قديمة ترجع جذورها الى ما قبل التوراة وجدت مصورة على نقش سومري يشاهد فيه رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين وامرأة حاسرة الرأس جالسين الواحد أمام الاخر، وقد ثبتت شجرة بينهما شجرة النخل تدلى عذقان من التمر من طرفيها، ويشاهد الرجل ماداً يده اليمنى نحو العذق ليقتطف من تمره، كما تشاهد المرأة وهي مادة يدها اليسرى نحو العذق الذي أمامها، وفي المشهد حية منتصبة خلف المرأة تغريها في الأكل من هذا التمر المحرم عليهما أكله، ومما يذكر أن هذا النقش التاريخي وضع قبل التوراة بزهاء الفي عام. [٣٥]

وبمقارنة الرواية التوراتية مع السومرية والبابلية نجد ما يلي:-[٣٦]

١- يقول التكوين السومري، في البدء لم يكن في الوجود سوى محيط بدئي مظلم، وهذا الغمر كان هو (نمو) وقام الاله الهواء الريح (انليل) بالفصل في هذه المياه بين سماء وارض .

ويقول التكوين البابلي: في البدء كان غمر مظلم انثى هي (تيامت)، شقها (مردوخ) كما تشق الصدفة الى قسمين: سماء وارض.

ويقول التكوين البابلي: في البدء خلق ا لله السماوات والارض، وكانت الارض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح ا لله يرف فوق المياه.. وقال ا لله ليكن جلد في وسط المياه، ولكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل ا لله الجلد، وكان كذلك. ودعا ا لله الجلد سماء.

٢- يقول التكوين البابلي: ان (مردوخ) أظهر اليابسة على الماء، وصنع شيئاً من التراب، وخلطه مع الحصير وهذا كون لوحاً صلباً فوق المياه، وهو الارض.

ويقول التكوين التوراتي: لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد، ولتظهر اليابسة، وكان كذلك، ودعا ا لله اليابسة أرضاً.

٣- ويقول التكوين السومري: ان انليل شاء ازالة الظلمة من على الغمر(فأظهر للعيان) بالنورين العظيمين، الشمس والقمر.

ويقول التكوين البابلي: "ان (مردوخ) سلط القمر على الليل، وجعله زينة في الليل، به يعرف الناس مواعيد الايام، كذلك جعل الشمس للنهار."

ويقول التكوين التوراتي: وقال ا لله ليكن نور، فكان نور، ورأى ا لله النور أنه حسن، وفصل ا لله بين النور والظلمة، ودعا ا لله النور نهاراً والظلمة ليلاً... وقال ا لله لتكن أنوار في جلد السماء، لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين... لتنير الارض... فعمل ا لله النورين العظيمين، النور الاكبر لحكم النهار، والنور الاصغر لحكم الليل.

٤- يقول التكوين السومري: قامت آلهة انثى بعجن طين، خلقت منه الانسان الاول، وبعد ان عجنت بسائل الخصب (ابسووإنكي) المني المقدس، وان الانكي او الانسي عصى أوامر الهية، فأكل ثماراً محرمة، أصيب بسببها بمرض في واحد من ضلوعه، حتى اشرف على الهلاك. "لن أنظر اليك بعين الحياة حتى تموت" و لم ينقذه الا استخراج ضلعه المريضة، لتصنع منها زوجة له، هي (نن تي) او (ننتو) سيدة الضلع، وتعني أيضاً سيدة الحياة او التي تحيي او الوالدة، فالانسان بذلك خلق ذكراً وانثى معاً في ذات واحدة، ثم فصلا بعد ذلك.

يقول التكوين التوراتي: يوم خلق ا لله الانسان،على شبه ا لله عمله ذكر وانثى خلقه، وباركه، ودعا اسمه آدم يوم خلق.. وقال الرب ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأوقع الرب الاله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من اضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الاله الضلع التي اخذها من آدم امرأة.. ودعا ادم امرأته حواء، لأنها ام كل حي ثم يقول إن حواء الحية (وهي من حوى، وحياة، وحيا اي فرج)، وقد خدعت زوجها (اليه اشتياقها) فأكل معها من ثمرة المعرفة المحرمة.

٥- يقول التكوين البابلي: ان الدم هو سر النفس أو الحياة، لذلك كان لابد كي يوجد الانسان حياً، ان تخلط النفس الحياة مع الطين، وكان الدم عند الاقدمين هو سر الحياة، عندما كانوا يرون المرأة المتميزة بالقدرة على الولادة، تتميز بدورها بالدم الشهري، وان هذا الدم ينقطع عند الحمل فتصوروا انه يظل في الداخل ليعطي المولود حياته، وحتى يسلب التكوين البابلي المرأة هذا الحق البيولوجي، وينسبه للرجل قامت الالهة بذبح (كنجو) ليخلطوا دمه بالطين، ويخلقوا الانسان.

وفي التشريع التحريمي تقول التوراة: لكن احترز لا تأكل الدم، لان الدم هو النفس، فلا تأكل النفس مع الدم(تثنية -١٢)

٦ـ في الختم (المفترض انه سومري حسب تصنيف الآثاريين) رأينا الحية توعز للانثى الاولى بأكل ثمار التمر (ولا تنسى الثمر المحرم الذي أكله انكي، فتدعو زوجها لأكله، مما يؤدي الى انتهاء الخلود الفردي وبداية خلود النوع بالتناسل، وبخروج انكي او انسي وزوجته (نن تي)، من ارض الخلود دلمون، وكان الخلود يتمثل في نبتة لو أكلها الفاني خلد وفي ملحمة جلجامش علمنا ان هذه النبتة لا تنمو الا في أرض الخلود (دلمون) مقر الالهة الخالدة.

ويقول التكوين التوراتي: وغرس الرب الاله جنة في عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذي جبله.. وشجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر.. وأخذ الرب الاله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها وأوصى الرب الاله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها سوف تموت (ثم خلق له حواء) وكانت الحية احيل جميع الحيوانات البرية التي عملها الرب الاله، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم انه يوم تأكلان منه تتفتح اعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة ان الشجرة جيدة للأكل.. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فتفتحت أعينهما وعرفا أنهما عريانين، فخاطا اوراق تين وصنعا لأنفسهما مآرز، وقال الرب الاله هو ذا الانسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا للابد. فطرد الانسان، وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة.

٧ـ والغرض من خلق الانسان في التكوين السومري البابلي، وهو ان يحمل الانسان عناء عمل الالهة، بأن يزرع الارض ويعمل فيها ليحفظها.

وفي التكوين التوراتي اخذ الرب الاله آدم، ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها.

٨ـ وفي التكوين البـابلي: كـان مفترضـاً أن تتـم عمليـة الخلـق بالكلمـة الخالقة للالـه (مـردوخ) ومـع ذلـك كـان الخلـق يتـم دائمـاً بالصنعـة اليدويـة وكذلك في التكوين التوراتي.

٩ـ في التكويـن السـومري: وبعـد عنـاء عمليـة الخلـق، جلسـت الالهـة لتستريح. وفي التكوين البابلي، استوى مردوخ على عرشـه. أمـا في التكويـن التوراتي، عندما (فرغ ا لله في اليوم السابع من عمله الـذي عمـل، اسـتراح في اليوم السابع).

٢ ـ في نقد القدس كوصيد مقدس

حسب دراسة للباحث الفلسـطيني عبـد المجيـد حمـدان نشـرتها صـوت الوطـن،[٣٧] فـإن سـفر يشـوع، الاصحـاح العاشـر هـو أول مـــن أشــار الى أورشليم وذلك مرتين: الاولى من خلال الحديث عن الحلف الـذي بـادر اليـه ملكها اليبوسي ادوني صادق مع اربعة من ملوك المنطقة في حـبرون وبرمـوت ولخيش وعجلون لمحاربة اهالي جعبون الذين كانوا يقـاومون يشـوع بـن نـون والثانية حين انقلبت التحالفات، فاصطف أهالي جبعون مع يشوع ضد تحالف الملوك الخمس.

وهو ما يؤكد، ان القدس مدينــة يبوسـية كنعانيـة بدلالـة اسمهـا الـذي عرفت به وهو اورشليم. وتضيف الدراسة أن ذكر اروشليم او يبوس لم يظهر من جديد في التوراة الا في وقــت متـأخر وفي سـفر القضـاة الاصحـاح الاول والتاسع عشر، حيث جاء في الاصحاح الاول:

"وحارب بنو يهوذا اورشليم واخذوها وضربوها بحد السيف واشعلوا المدينة بالنار"(الاية ٨) لينتقلوا بعد ذلك لاحتلال الخليل (حبرون).

لكن الاصحاح التاسع عشر يعود ليقول لنا شيئاً آخر، وهـو أن يبـوس، اورشليم، ظلت مدينة يبوسية خالصة.

وبعد مرور اكثر من اربعة قرون على دخـول يشـوع فلسـطين، جـرت الاشارة الى اورشليم في سفر صموئيل الثاني، الاصحاح الخامس في حبرون ثم في اورشليم. والمهم هنا ان اورشليم التي اصبحت عاصمة لداود، لم تـأخذ أي طابع روحي خلال هذه الفترة.

سليمان هو الوحيد الـذي أعطاهـا مثـل هـذا الطـابع ولأسـباب ارضيـة خاصة تتعلق بحاجته الى تصفية خصومه وتسويغ ذلك روحياً.

ويحدد سفر الملوك الاول تاريخ انتقال المكانــة الروحيـة لأورشـليم بأنـه حدث بعد ٤٨٧ عاماً من تاريخ خروج بني اسرائيل من مصر. اذ بعـد ٤٨٠ عاماً بدأ سليمان بناء الهيكل، الذي صار يطلق عليه اسم بيت الرب، وبعد أن سكنه الرب إثر نزوله من فوق السحاب، وإثر اكتمال البناء ومراسيم الافتتاح التي استغرقت سبع سـنوات ونصـف: "وكـان في سـنة الاربـع مئـة والثمـانين لخروج بني اسرائيل من ارض مصر في السنة الرابعة لملك سليمان على اسرائيل في شهر زيو، وهو الشهر الثاني، انه بنى البيـت لـلرب،(الاصحـاح السـادس، الاية ١). في السنة الرابعة اسس بيت الرب في شـهر زيـو، وفي السـنة الحاديـة عشرة في شهر بول. وهو الشهر الثامن، أكمل البيت في جميع أموره وأحكامه فبناه في سبع سنين (الايتان ٧-٨). وفي الشهر السـابع مـن السـنة التاليـة نقـل سليمان تابوت العهد من مدينة داود الى الهيكل.

لكن وفاة سليمان فتحت ملف الصراع بين ملوك اسـرائيل مـن جديـد ودفعـت يربعـام الى بنـاء مدينـة جديـدة في شـكيم للاطاحـة بمكانـة اورشـليم الروحية . جاء في النسخة العبرانية من سفر التثنية "فإذا عبرتم الاردن فـانصبوا الحجارة التي انا اوصيكم في جبل عيبـال". وجـاء في السـامرية:[٣٨] "فـانصبوا الحجارة التي انا اوصيكم في جبل جرزيم."

وحسب سفر الملوك الاول، الاصحاح ٢١ فإن يربعام استبدل اورشليم بشكيم لأنه "إن صعد هذا الشعب ليقربوا ذبـائح في بيـت الـرب في اورشـليم يرجع قلب هذا الشعب الى سيدهم الى رحبعام ملك يهوذا ويقتلونني ويرجعوا

الى رحبعام ملك يهوذا." ولذلك سن ديناً جديداً، أو بالاصح أنه عاد الى دين أجداده "فاستشار الملك وعمل عجلي ذهب وقال لهم: كثير عليكم ان تصعدوا الى اورشليم، هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين اصعدوك من ارض مصر." وجعل من بيت ايل ودان أماكن روحية مقدسة، بنى معابد وصير عليها كهنة من غير بيت لاوي الذين أقصر الرب الكهنوتية عليهم، كما سبق وأشرنا، وصار بنو اسرائيل يحجون الى هذه الاماكن في الاعياد. ويقيمون صلواتهم ويرفعون المحرقات ويذبحون الذبائح.

و لم يظهر ملوك اسرائيل ويهوذا في حروبهم الداخلية المختلفة اي احترام للهيكل بل كانوا غالباً ما ينهبونه اثناء الاحتلال او الانسحاب.

جاء في الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الثاني ما يلي: "وأما أمصيا ملك يهوذا ابن يهواش بن اخزيا فأمسكه يهواش ملك اسرائيل في بيت شمس وجاء الى اورشليم وهدم سور اورشليم من باب افرايم الى باب الزاوية اربع مئة ذراع، واخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك والرهناء ورجع الى السامرة.

وحسب دراسة للدكتور عبد الوهاب المسيري[٣٩] فإن الفقه اليهودي لم يهتم على الاطلاق بحائط المبكى ولهذا لم يأت له ذكر في الكتابات الدينية.. ولكن يبدو انه وبتأثير فكر يهود المارانو الحلولي في القرن السادس عشر، وكذلك تحت التأثير الاسلامي عن المزارات وخاصة الكعبة تحول الحائط الى مزار واصبح الاستيلاء عليه فرضاً دينياً. ومثل ذلك موقف الحركة الصهيونية من القدس حتى فترة الاربعينات من هذا القرن.

فحسب عاموس، لم يطالب هرتزل في اي من كتاباته بأن تكون القدس عاصمة للدولة اليهودية بل فضّل اختيار موقع في الهضاب الغربية لجبل الكرمل. و لم يرد في يوميات بن غوريون كلمة واحدة عن القدس اثناء زيارته الاولى لفلسطين ١٩٠٦.

ويضيف عاموس ان العدد الاكبرمن زعماء اليهود كانوا حتى عام ١٩٤٧ على استعداد للتنازل عن القدس كليا مقابل قيام الدولة اليهودية.

٣ ـ نقد العرقية

٣ ـ ١ نقد نظرية الشعب المختار

يقول لوكاش: "إن طرح المعضلة بحدود بيولوجية يقتضي جوهرياً نفي كل تطور."(٤٠)

وفي الوقت الحاضر يفترض عدد من علماء البيولوجيا ان قوانين التطور ليست مثبتة في الجينات بصورة نهائية وصارمة، فبرغم الدور الكبير للبرنامج الوراثي فإنه لا يكفي لتحديد تسلسل الاحداث حتى في فترة التطور الجنيني.

ومن الاهمية بمكان مراعاة ان وظائف الانسان النفسية العليا لا تتكون الا في الوسط الاجتماعي . ومن المتعذر العثور على خصوصية بيولوجيا الانسان بالمقارنة مع الحيوان، انطلاقاً من المعايير الحيوية وحدها، بمعزل عن المعايير الاجتماعية الثقافية..(٤١)

وقد نوه ماركس، في "موضوعات عن فورباخ"، بأنه يتعذر ادراك ماهية الانسان في حال النظر اليه كفرد معزول، مجرد عن مجرى التاريخ، ويرتبط مع الأخرين بعرى محض طبيعية. وهنا أعطى التعريف الجديد لماهية الانسان: "ليست ماهية الانسان شيئاً مجرداً، ملازماً للفرد الواحد. فهي، في حقيقتها، جملة العلاقات الاجتماعية كافة."

ففي "موضوعات عن فورباخ" الشهيرة، التي وصفها انجلس بأنها أول وثيقة تتضمن "الارهاصات العبقرية للرؤية الجديدة"، كتب ماركس يقول: "ان النقيصة الرئيسية في المادية السابقة بأسرها ـ بما فيها مادية فورباخ ـ هي ان الشيء، الواقع، الحساسية لاتؤخذ فيها الا في شكل موضوع، او في شكل تأمل، لا في شكل نشاط بشري حسي، ممارسة.

ويقوم جوهر اكتشاف ماركس وانجلس للمستوى البشري الخاص، المحدد للنفسي، في أن الانسان ينظر اليه لا ككائن أرض مجرد، كفرد بيولوجي، ينتمي الى العالم الطبيعي فقط، بل باعتباره نتاجاً للتاريخ وذاتاً له.

ان الواحدية المادية الديالكتيكية في فهم جوهر الانسان بعيدة، على حد سواء، عن البيلجة المتطرفة أو عن الاجتماعية المبتذلة. فهي لا تتجاهل دور العوامل البيولوجية (الوراثية) في حياة الانسان، ولكنها لا تنظر اليها بمعزل عن تطور البشر الاجتماعي. فإن هذه العوامل نفسها "مؤنسنة" اذا صح التعبير.

ففي الجنين تكمن البيولوجيا البشرية بكل قدراتها وملكاتها، التي لا تتكشف وتتفتح الا في الوسط الاجتماعي الملائم "ففي الجينوتيب يحصل الجنين البشري ليس فقط على اسس لتسيير العمليات التشكيلية، معد سلفاً، بل على مقاطع من الاسسس "ما فوق المنظومية" لتطوره المقبل، أي الاسس الاجتماعية أيضاً، لأنها تكون قد لاقت، في جزء ما، "انعكاسها غير المباشر" عبر انتقاء الوحدات المعنية للمعلومات الوراثية".. (٤٢)

٢ـ٣ نقد النظريات السيكولوجية في الامة

ان النظريات السيكولوجية في الامة، في الماضي والحاضر على السواء، شكلت وتشكل، أرضية صالحة للعصبية القومية والشوفينية والعنصرية.

فعدد كبير من الباحثين يعلنون ان الامة ما هي غير مدركة "الشيء في ذاته". ومن ذلك..(٤٣) ان الفيلسوف الفرنسي البارز في عصر التنوير، شارل مونتسكيو، قد استخدم مفهوم "روح الشعب" وجعله رهنا بالوسط الجغرافي.

والفيلسوف الروسي الصوفي بردیایف: " الامة لا تحدد عقلانياً. ومن هنا تشبه فكرة الامة فكرة الكنيسة". وفي معرض الحديث عن الامة الروسية تحديدا يذهب بردیایف الى "أن الفكرة القومية الروسية تغذت بمشاعر الاختيار الالهي لروسيا."

وكتب الفيلسوف المثالي البرجوازي الفرنسي فوليه الكثير عن التفوق الروحي للشعوب الاوروبية، وخاصة الشعب الفرنسي، على الشعوب الاخرى. وزعم فوليه، الذي روج لفكرة "تعاون" العمل والرأسمال، أن الانشطار الاساسي للبشرية يتم حسب الامم، وانه يوجد حتى "منطق قومي خاص". وهو يرى انه في حين تكون بعض الشعوب الاوروبية (لا جميعها) مؤهلة للابداع، فإن الشعوب الاسيوية لا تملك الا المقدرة على الانتفاع بمنجزات الحضارة وتمثيلها. وثمة باحثون برجوازيون كثيرون، ينظرون الى الامة من زاوية عنصرية، ويتبنون (ومعهم العنصريون "العلميون" اليوم) موضوعة ليبون القائلة "ان الشيء الاكثر ثباتاً في كل عرق هو الاسس الوراثية لأفكاره." ويضيف كالتاختشان:

وثمة باحثون، يستندون الى وحدة التكوين النفسي كمؤشر للامة، المؤلفة من طبقات متناحرة، في الزعم بأن هذه الوحدة ليست وحدة مضمونة النفسية، بل وحدة شكل تجليها فقط، واحيانا تظهر حتى محاولات لإثبات لاطبقية التكوين النفسي برد تجليه الى الفيزيولوجيا. ولكن بالاستناد الى ارتباط التكوين النفسي بنشاط الجملة العصبية العليا، وبصورة ادق ـ الجملة الاشارية الثانية، إنما يؤكد، مرة اخرى، المشروطية الاجتماعية التاريخية للوظائف النفسسية العليا. فإن نفسية الانسان من طبيعة اجتماعية دوما، فلا يمكن لأي تفسيرات طبيعانية ان تكشف عن ماهيتها، ثم ان بيلجة ماهية الامة تجعلنا عزلاً في الكفاح ضد الخرافا ت العنصرية.

ولإثبات واقعية وحدة التكوين النفسي للامة تطرح أحياناً الموضوعة التالية: ان جملة الصفات المعنوية الروحية للامة تكون طبقية الطابع، أما تكوينها النفسي فلا، ولكن النفسية تندرج، هي الاخرى، في جملة الصفات المعنوية الروحية. فنفسية مختلف تجمعات الناس، مشاعرها وافكارها وتطلعاتها وأمزجتها وعاداتها وتقاليدها حتى واوهامها...الخ، تندرج في حياة المجتمع الروحية، ولذا فإن الملامح الروحية لهذه الجماعات أو تلك لا تنعكس في

أيديولوجيتها فقط، بل وفي سيكولوجيتها. ولتذليل هـذه هـذه الصعوبـة يعلـن البعض وحدة التكوين النفسـي شـكلاً لتجلـي النفسـية، لامضمونـاً لهـا، فهـم يعترفون بطبقية هذا المضمون. هنا يصادفنا فهم ميتـافيزيقي للشـكل علـى انـه شيء خارجي، مقحم على المضمون.

اما السيكولوجيون المثاليون المعـاصرون فينظـرون الي الدمـاغ علـى انـه عضو مولد للنفسسية البشرية، على أنه جهاز معطى منـذ البدايـة، ينطـوي في صورة جنينية على الملامح العريضة للعالم المدرك. واستنادا الى هذه المعطيـات "العلميـة" راح انصـار النزعـة العنصريـة والقوميـة الشـوفينية يسـبغون علـى الشعوب "صفات" و"قدرات" نفسية مختلفة. فالدماغ، على حد زعمهم، يبدو وكأنه يشكل، في حقيقة الامر، لوناً من المثالية الفيزيولوجية. ومن المعروف ان عالم الطبيعة الالماني ميولير، رائد المثالية الفيزيولوجية، قد صاغ "قانون الطاقـة الخاصة للحواس".

ولذا فإن المثاليين، اذ يعتبرون الادراك (القومي، مثـلا) ظـاهرة مسـتقلة محض نفسية، فإن السـيكولوجيا العلميـة لا تنفـي واقعيـة النفسـية، ولكنهـا لا تنسب اليها وجوداً منغلقاً على ذاته. وليس للنفسية استقلال مطلق، ولكـن في مجرى تكون الشخصية، كما يؤكد عالم النفس السوفيتي سمير نوف، "يستبدل الخارجي بالداخلي، ويكتسب هذا الداخلي استقلالية معينة."

وترى السيكولوجيا المادية ان الدور الحاسم في تشكل السلوك لا تلعبه الصفات الفطرية للجملة العصبية بحـد ذاتهـا، وانمـا علاقـات النـاس الواقعيـة، ظروف حياتهم وعملهم، تربيتهم وتعليمهم، وبتأثـير التأثـيرات الحياتيـة تتغـير الصفات الاولية الاصلية لنمط النشاط العصبي، وتحـدث تحـولات في ديناميـة سلوك الانسان تشكل صيغاً انتقالية من المزاج. وعليه فـإن ابـرز مـا في المـزاج هو جوانـب تعود الى استعدادات الجملة العصبيـة ومـن جوانـب تشـكلت مـن جراء تغير الجملة العصبية بتأثير ظروف الحياة، هو أمر أصعب بكثير مما يظن.

ان منظومة الروابط المؤقتة التي تظهر في حياة الانسان الاجتماعية، تـأتي وكأنها "تغطى" على مزاجه الطبيعي. فالجملة العصبيـة، برغـم كونهـا جهـازا طبيعيا، هـي مـن المرونـة بحيـث تتـأثر الى حـد كبـير بظـروف حيـاة الانسـان الاجتماعية.

وعلـى النقيـض مـن المثاليـة الفيزيولوجيـة يقـوم التفسـير المـادي لـدور الحواس في انها لا تملك "طاقة خاصة" بل هي ذات وظـائف خاصـة، متولـدة عن طبيعة المهيج .

ففي مؤلف "المادية ومذهب نقد التجربة" يفند لينين عـودة المـاخيين الى المطابقة البيركلية بـين الروحـي والمـادي عـبر تصويـر الاشـياء مجموعـات مـن الاحاسيس، كما وينتقد مذهب التوازي النفسي الفيزيائي.

وقد برهن لينين، في معرض الكشف عن تهافت التفسيرات غير العلميـة للنفسية البشرية، على هراء المزاعم، القائلة "ان المادية تقول بـأن الوعـي" أقـل "واقعية". كما ودحـض الفهـم المـادي المبتـذل للنفسـية بوصفهـا إفـرازاً مـن افرازات الدماغ او الحواس (المثالية الفيزيولوجيا) أو لونـاً خاصـاً مـن الطاقـة (النزعة الطاقوية)، وغيرها من ضروب الفهم المثالي والميتافيزيقي للنفسية.

تذهب نظرية الانعكـاس اللينينيـة الى ان العـالم الموضوعـي هـو المصـدر الوحيد لكافة احاسيس الناس وادراكـاتهم وتصوراتهـم ومفـاهيمهم، والنـاس متساوون من حيث توفر المقدمات البيولوجيـة والسـيكولوجية لعكـس العـالم الموضوعي. ويتمتع ابناء مختلـف الاعـراق والقوميـات بجملـة عصبيـة واحـدة، وبأعضاء واحدة لعكس العالم الخارجي عكساً صحيحاً الى هذا الحد او ذاك.

ولكن هذا لا يعني ان الناس كلهم يعكسـون ظواهـر العـالم الموضوعـي علـى نحـو واحـد، فالموضوعـة اللينينيـة: "الاحسـاس صـورة ذاتيـة للعـالم الموضوعي"ـ انما تؤكد من جهة علـى الوجـود الموضوعـي لكـل مـا ينعكـس، وتؤكد، من جهة أخرى على ان الصورة لاتتطابق مع الاصـل وهـي تكشـف عن الوحدة الديالكتيكية بين الموضـوع وصورتـه المشـروطة بـه، بـين الظـاهرة

وبين الجوانب الذاتية التي تسبغها ذات المعرفة عليها. وهنا ترتبط الجوانب الذاتية بحالة الجملة العصبية وبالتجربة، وبمعارف الانسان المعني، وتتوقف، والى درجة اكبر، على الانتماء الطبقي او القومي، الخ.

وكان لينين يرى لب نظرية الانعكاس كأساس لعملية المعرفة في القول " ان الاشياء موجودة خارجنا، وان ادراكاتنا وتصوراتنا صور لها، وان التحقق من هذه الصور، وفصل الصحيح منها عن الخاطىء، يتم بالممارسة. ويتوسط بين العالم الداخلي (الدماغ، الحواس، كل الجملة العصبية العليا لدى الانسان) والخارجي نشاط الناس الانتاجي، الاجتماعي التاريخي، وتبادل هذا النشاط فيما بينهم، تلك هي المشروطية الاجتماعية للنفسية."

٣ـ٣ نقد النظرية الفيزيولوجية

اشار لينين الى "ان (ارتباط) الفيزيولوجيا بالمثالية الفلسفية، وخاصة المنحى الكانطي، قد استغل فيما بعد، ولردح طويل من الزمن، ومن قبل الفلسفة الرجعية"، وهو يستغل الآن ايضا من قبل انصار العصبية العنصرية القومية، الذين يفسرون خصوصية الادراك بتميز الدم والنفسية لدى ابناء القوميات المختلفة.

وقد كتب لينين في معرض الكشف عن جذور مثل هذه التأويلات في الفيزيولوجيا المثالية: "ان اللون هو نتيجة تأثير الموضوع الفيزيائي على الشبكية، اي ان الاحساس هو نتيجة تأثير المادة على الحواس."

ويقول الاكاديمي فافيلوف في معرض تبيان سر كمال افعال العين وآليتها وقدرتها التخيرية على التمييز بين الالوان: "إن هذا كله هو حصيلة تكيف العين مع الضوء الشمس على الارض".

فمن المتعذر فهم العين بدون فهم الشمس، على العكس، فإنه تبعاً لصفات الشمس يمكن التدليل نظرياً، في الخطوط العامة العريضة، على خصوصيات العين،، وكيف يجب ان تكون، دون علم مسبق بها.

وكما يقول لينين: "إن الاحساس هو ارتباط الوعي المباشر حقاً بالعالم الخارجي، هو تحول طاقة المؤثر الخارجي الى ظاهرة للوعي" وقد لقيت هذه الموضوعة تأسيسها العلمي في نظرية المحللات، التي وضعها الاكا ديمي السوفييتي بافلوف..(٤٤)

فقد قال ان الحقيقة الاساسية لفيزيولوجيا المحللات هي ان كل جهاز أطرافي هو محول خاص للطاقة الخارجية المعنية الى عملية عصبية، وقد بينت نظرية بافلوف في المحللات ان ما يولد الاحاسيس ليس المتقبلات الاطرافية، انما الدماغ، الذي يشكل مع الحواس آلية موحدة لتحليل وتركيب التأثيرات الخارجية والداخلية، فيعكس العالم الموضوعي في صورة احاسيس وادراكات وافكار.

وبما ان هذه الالية كلها تتشكل وتتطور بتأثير العالم الموضوعي، وتتكيف باستمرار مع خصوصية المؤثر لكي تستطيع عكس هذا العالم عكساً تفاضلياً، فإن من الجلي ان صورة الموضوع المعكوس بكل سماتها (بما فيها السمات القومية) ستتحدد بالموضوع نفسه، بسماته، وهكذا فإن دحض العلم "المثالية الفيزيولوجية" ذو أهمية أيضاً من أجل تذليل فهم الخصوصية القومية بتميز السيكولوجية القومية.

وبفضل اعمال الفيزيولوجيين الروسيين وخاصة بافلوف تفهم وظيفة المحلل على انها جملة من الروابط المؤقتة المتكاملة، كنشاط معقد تكيفي له، يرمي الى تنفيذ مهمة سيكولوجية معينة،ويجري هذا التكيف المعقد في البيئة القومية ايضا .

وان الدماغ ككل، ولحاءه من حيث هو أكثر أجزاء الجملة العصبية العليا تطوراً، يمثلان ارفع مستويات تحليل الاشارات وتركيبها، وهما لا يولدان "صفات" الانسان و"قدراته" النفسية، وانما يتكيفان مع الموضوع (كالتاختشان).

٤-٣ افتقار اليهود للمقومات القومية

على الصعيد القومي، بالاضافة لافتقار اليهود الى شروط التشكل الاجتماعي القومي المتمحور على ذاته وفق قوانينه التاريخية الخاصة، وليس

بدلالة العـدو الخـارجي، الوهمـي ام الحقيقـي كمـا كتـب هرتـزل في تعريفـه للامة.. (٤٥)

ليس ثمة جذور لعناصر قومية يهودية واحدة، وليس ثمة اطار سياسي ـ اجتماعي استوعب عدة منابت قومية ودمجها في سيرورة قومية اساسية.

واذا اعتبرنا ان اللغة هي اهم العناصر القومية، فإن أكثر جماعـة بشـرية بدلت لغتها هي الجماعات اليهودية. ويذكر ايفانوف، في هذا الصدد:. (٤٦)

يمكن اعطاء صورة عن نسبية انغـلاق الاسـباط اليهوديـة، قبـل القـرون الوسطى وبطلان ادعاءات الصهاينة القائمة جزئياً علـى هـذا (الانغـلاق) مثـل (نقاوة الجنس اليهودي)، استنادا الى الامثال التالية :

يؤكد اولمستد انه مع الزمن توقف افـراد سبط بـابل عـن تـداول اللغـة اليهودية القديمة وانتقلوا الى اللغة الارامية.

وانقسم اليهود خـارج فلسـطين مـن حيـث اللغـة الى جمـاعتين كبـيرتي العدد الى جماعة تتكلـم اللغـة الاراميـة شـأن اليهـود في فلسـطين ذاتهـا، والى جماعة تتكلم اللغة اليونانية.

كما كتب سيسيل روت عن العصر الاغريقي.

كانت مصر في ذلك العهد مركزاً كبياً للحضارة اليونانية، و لم يستطيع اليهود ان يتفادوا تأثير هذا العامل، فتركوا لغة ابائهم وانتقلوا الى اللغة اليونانية وكانت الظاهرة العامة لذلك إبدال أسمائهم بأ سمـاء يونانيـة.. وهنـا وضعـت باللغة اليونانية مؤلفات تقلد الكتاب المقدس، وملحقات للكتاب المقدس تزخر بمفاهيم فلسفية محلية كما يؤكـد مؤلفـو (تـاريخ القـرون الوسـطى المؤلـف في كمبردج): "إن افراد السـبط اليهـودي الأكـثر نفـوذاً في اسبانيا، وهـم يهـود قرطبة، قد اتخذوا لباس ولغة وعادات العرب".

وبالاضافة الى ذلك، والأهم من ذلك هـو أن اليهـود وبسـبب الشـتات تشكلوا من جماعات عرقية متعددة، سامية وغير سامية.

فالهلال الخصب الذي عاش فيه اليهود فترات طويلة، عرف على طول تاريخه اختلاطات بين مختلف الاقوام، حيث كانت هذه المنطقة اهم منطقة تواصل ومرور للقوافل والجيوش من الصين وحتى اوروبا.

ولعل ابرز الامثلة على تعدد المنابت القومية لليهود مثال مملكة حمير العربية التي تهودت في فترة ازدهارها التجاري، واشتداد الصراع الفارسي – الرومي - حولها فكان تهودها تعبيراً عن وظيفتها التجارية، من جهة، وبمثابة خيار ايديولوجي ثالث بين المسيحية والزرادشتية من جهة اخرى.

كما يعود اليهود الى منابت غربية غير سامية، ابرزها الخزر وكذلك الانجليز.

ففي انكلترا، "جلب الاحتكار الربوي لليهود ثروات ضخمة لهم مما دفع بعض المسيحيين للتهود، من اجل الاسهام في الاحتكار اليهودي للقروض".[٤٧]

اما الخزر، الذين عرفوا ولأول مرة، من خلال الرسائل المتبادلة بين ملك الخزر والوزير اليهودي في اسبانيا الاسلامية حسداي بن شابروت، فيعودون كما يبدو الى اصل تركي، وكانوا قبائل رعاة يتحركون جنوب روسيا،وبين البحر الاسود وبحر قزوين ومن القوقاز حتى اراض المغول.

وقد تهودوا في زمن ملكهم بولان عام ٧٥٠م بعد معارك واسعة مع المسلمين والامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطية) وكذلك مع الروس والمغول، فلما هزموا امام جيرانهم أمراء كييف، ثم أمام الزحف المغولي الذي أجهز عليهم، تفرقوا في عموم انحاء اوروبا وشكلوا القاعدة الاجتماعية لما عرف لاحقاً بالمسألة اليهودية.

أما التسمية نفسها، فمن المرجح انها مشتقة من الاصل التركي "جاز" بمعنى "يتجول" اي يعني "بدوي" ببساطة.

ويؤكد المؤرخ الاصطخري،[٤٨] على تنوع القبائل الخزرية، فيقول: "الخزر صنفان: الاول اطلق عليه كاراخازر، ويعني الخزر السود وهم ذو بشرة

داكنة تميل للسواد، وصنف اخر ابيض اطلق عليهم الشخرز، وهؤلاء يرجعون الى قبائل اخرى، كانت تسمى بـ "الاكاترير" ومنها اشتقت لفظة الشخرز.

واما الدكتور ماجد شدود، فيقول: "ان الخزر يرجعون بأصلهم الى قبائل تركية كانت تسكن أواسط اسيا، وشكلت هذه المنطقة عبر مراحل تاريخية، مصدراً للعديد من الهجرات المختلفة الى مناطق واتجاهات متفرقة، ويتابع أيضاً فيقول: "هاجرت القبائل التي اطلق عليها فيما بعد تسمية "الخزر" من وسط اسيا في القرن الاول الميلادي، وسكنت مناطق في شرق اوروبا، ثم استقرت فيما بعد في المنطقة الواقعة شمال بحر قزوين والبحر الاسود.

كما ان هناك الكثير من القبائل جابت المنطقة، واستوطنت فيها في نفس الفترة، وقد أكد على ذلك الكثير من المؤرخين ومن هذه القبائل: البورتا- السابير- البوجير - الغز- الكومان - الكبشاك - المجر- العليفا- الـريتور ــ الساراجير وغيرها."

وهكذا فإن الخزر ودولتهم، كانوا مزيجاً من القبائل، سواء التي كانت تجوب المنطقة وتتجول فيها. أما [٤٩] الظروف التي دفعتهم للتهود، فهي موقعهم بين الامبراطوريتين الاسلامية والبيزنطية، وانسجام بنيتهم الرعوية التجارية الواقعة على ملتقى طرق التجارة العالمية مع اليهودية التي وصلتهم عن طريق بقايا يهود السبي في بابل.

وعند انهيارهم التام عام ١٢٤٥ لم يتركوا أي اثر يذكر يشي بامبراطورية متحضرة.

يقول المؤرخ السوفييتي ارتامونوف صاحب كتاب (تاريخ الخزر)[٥٠] "تحللت مملكة الخزر وتهاوت الى أجزاء، تداخلت اغلبيتها في الشعوب الاخرى المتصلة بها، اما الأقلية التي استقرت في - اتل ــ فقد فقدت قوميتها وتحولت الى طبقة طفيلية ذات صبغة يهودية.

و لم تبدأ الهجرات الخزرية بعد انهيار وسقوط مملكتهم، وانما تعود هذه الهجرات قبل سقوط دولة الخزر وبعدها، بدليل هجرة العديد من القبائل

الخزرية، قبل سقوط دولة الخزر بفترة طويلة، اذ انها هاجرت الى هنغاريا والتي تعرف باسم (الكابار)، بالاضافة لدعوة الدوق الهنغاري "تاكسوني" لاستقبال موجة اخرى من المهاجرين الخزر للاستيطان في وطنه، الذين لعبوا دوراً رئيسياً في تاريخ هنغاريا القديم، ولكنه تم الحد من نفوذ يهود الخزر، بعد أن أصبحت هنغاريا تدين بالعقيدة الكاثوليكية الرومانية، في بداية القرن الحادي عشر الميلادي.

كما حدثت هجرات ليهود الخزر الى هنغاريا في القرن الثالث عشر ميلادي، هرباً من بطش المغول. وفي القرن الرابع عشر اصيبوا بالطاعون، كما قامت هجرات من بولندا الى لتوانيا، بسبب الاندماج وهرباً من المغول والطاعون ومن بولندا ولتوانيا الى روسيا الامبراطورية، بسبب التقسيم في القرن الثامن عشر، وكذلك الهجرة اليهودية الغزيرة من بولندا الى الغرب، في القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين. ويقول المؤرخ البولندي آدم فيتولاني: "يوافق الباحثون البولنديون على ان اليهود المهاجرين من دولة الخزر ومن روسيا، هم الذين اسسوا هذه المجتمعات الاقدم، بينما لم يبدأ يهود جنوبي وغربي اوروبا في الوصول والاستقرار الا فيما بعد، كما يوافقون على ان نسبة معينة على الاقل من السكان اليهود، تستمد جذورها من الشرق، من بلاد الخزر ثم مؤخرا من روسيا الكييفيه.

هذا وقد شجعت المملكة البولندية منذ البداية، هجرة اليهود اليها بالاضافة الى الارمن والجرمان، وسمحت لهم حق تملك المعابد، والمدارس، والمحاكم الخاصة، وحيازة الاراضي والعمل في التجارة وكافة الاعما ل، بل كان لهم برلمان خاص، خلال حكم الملك "ستيفن باثوري" (١٥٧٥ ـ ١٥٨٦). كما هاجر اليهود الخزر بأغلبيتهم الى بولندا ولتوانيا وهنغاريا والبلقان، وأسسوا المجتمع اليهودي الشرقي، وشكل الغالبية الساحقة ليهود العالم. ويلاحظ انه في كل من اوكرانيا وبولندا، يوجد كثير من المواقع القديمة، مشتقة اسماؤها من كلمة "خزر" او "يهود" وكذلك في جبال

"الكربات وتارتا"، وفي مقاطعات النمسا الشرقية، وبقيت مجموعات في القرم والقوقاز، كونت مقاطعات يهودية معزولة ظلت حتى اليوم..(٥١)

٣ ـ٥ نقد الصهيونية من الداخل

يمكن تصنيف نقاد الصهيونية هؤلاء الى ثلاث مدارس ايديولوجية لا تختلف الا من حيث الاسلوب والتحليل في حين ان هدفها كلها واحد وهو نقد الصهيونية من حيث الايديولوجية والممارسة على السواء.

١ـ المدرسة الاشتراكية الماركسية: من أهم اعضاء هذه المدرسة عدد من المفكرين اليهود مثل ابراهام ليون واسحق دويتشر ومكسيم رودنسون، وبينهم كذلك مجموعة من الماركسيين اليهود الاميركيين مثل هايمان ليومر وجون روتشلد ولاري لوكوود. وظهر أيضاً من أعضاء هذه المدرسة الفكرية في الآونة الاخيرة عدد من الماركسيين الاسرائيليين مثل آري بوبر وحاييم هانغي واكيفا اور وبيتر بوش..(٥٢)

ويصدر الرفض الاشتراكي/ اليهودي للصهيونية عن تصور ان اليهود هم اقلية دينية، وان ما يسري على كل الاقليات يسري عليهم، وان حل المسألة اليهودية يكون عن طريق حل المشاكل الاجتماعية والطبقية للمجتمع كله. وقد كان هذا هو الحل الأكثر شيوعاً بين صفوف الشباب اليهودي في روسيا وبولندا، وبين صفوف العمال اليهود، الامر الذي جعل الوجود اليهودي في صفوف الحركات الثورية في شرق اوروبا وروسيا أمراً ملحوظاً.

(وقد افزع هذا اثرياء اليهود في الغرب، امثال روتشيلد، فسارعوا بتمويل الحركة الصهيونية ليحولوا الشباب والعمال عن طريق الثورة).

والاشتراكيون اليهود ينظرون الى الصهيونية على انها حركة ثورة مضادة، اشتركت مع القوى الاستعمارية من اجل السيطرة على العالم العربي، ووضع أسفين بين الثوريين اليهود وبين الحركة الثورية العالمية، وكان كثير من

اليساريين اليهود يدركون، تمام الادراك، الدور الرجعي الذي لعبته الصهيونية في التحالف مع الامبريالية، وفي تحويل الشباب عن المنظمات الثورية.

وقد ظل عداء الاشتراكيين اليهود للحركة الصهيونية مستمراً، وان كان التيار قد خمد بعض الشيء، في الاربعينات والخمسينات بعد ظهور دولة اسرائيل، لكنه بدأ في الظهور مرة اخرى في الغرب، خصوصاً بعد ان ظهرت، بوضوح، الطبيعة الاستعمارية للدولة الصهيونية. ويلاحظ أن قطاعات كثيرة من اليسار الجديد في الغرب تعادي اسرائيل، على الرغم من (او بسبب) انخراط عدد كبير من الشباب اليهودي، الساخط على قيم المجتمع الرأسمالي الاستهلاكي، الذي تمثله الدولة الصهيونية في العالم الثالث، في صفوفه.

وقد انضم الى صفوف هذا التيار ـ عبر السنين ـ عدد كبير من المفكرين اليهود البارزين، مثل روزا لوكسمبرج وليون تروتسكي واليا اهرنبورج وكارل كاوتسكي. وفي السنوات الاخيرة ضمت القائمة ماكسيم رودنسون وروجيه جارودي واسحق دويتشر ونعوم تشومسكي. ولا يزال عدد كبير من المنظمات اليسارية في اوروبا والولايات المتحدة، والتي تضم في صفوفها اعداد كبيرة من اليهود تنتهج موقفاً مناهضاً للصهيونية والاستعمار.[٥٣]

٢ـ المدرسة الدينية ـ الانسانية:ـــ ويعتبر آحاد هعام مؤسسها البارز، وهي تضم كذلك كلاً من ويليام زوكرمان والمر بيرغر ونورتون ميزفنسكي، بالاضافة الى قطاع من اليهود المتدينين الاعضاء في منظمة تعرف باسم منظمة ناتوري كارتا.

ويعد ناثان بيرنباوم ـ الذي صاغ اصطلاح "الصهيونية" بمعناها السياسي الحديث ـ مثالاً خاصاً للمواجهة بين الصهيونية واليهودية. وكان بيرنباوم، في وقت ما، أحد القادة الصهاينة، ففي عام ١٨٨٥ أسس وحرر أول جريدة صهيونية في المانيا، وفي عام ١٨٩٣ نشر كتيباً ينادي فيه بإيجاد حل للمسألة اليهودية يطابق الخطوط الصهيونية، وحضر أيضاً أول مؤتمر صهيوني في عام ١٨٩٧، ولكنه استقال بعد عام من المنظمة الصهيونية العالمية، لإدراكه الخطر

الكامن في الرفض الصهيوني ليهود الشتات، ولذا أصبح من دعاة قومية الشتات. وفي عام ١٩٠٨ كانت له يد في انعقاد مؤتمر حول موضوع اليديشية، حضره كبار كتاب هذه اللغة، ونادى المؤتمر بأن تكون هذه اللغة هي لغة اليهود القومية. وبعد الحرب العالمية الاولى طرأت على آرائه تغيرات عميقة، وأعلن ارتداده عما وصفه بالالحاد واعتنق وجهة نظر ارثوذكسية، واستمر بقية حياته واحد من اكبر اليهود المناوئين للصهيونية.(٥٤)

٣- مدرسة التعايش الثنائي القومية: من أوائل مؤسسي هذه المدرسة الفكرية كل من جودا ماغنس ومارتن بوبر والبرت اينشتاين. وظهر منهم في الاونة الاخيرة عدد من اليهود الاميركيين مثل ناعوم شومسكي وآي. اشف ستون وبول جاكوبس. وانضم الى هذه المدرسة كذلك عدد من المفكرين الاسرائيليين مثل اموس كينان وآري الياف ومانتياهو بيليد.(٥٥) الذين يرون ان اليهود يكونون اقلية قومية، ولكنها أقلية تكونت في الشتات، ولذلك فحل المسألة اليهودية يكون من خلال تقبل هذه الحقيقة الاساسية. وقد أشرنا من قبل لسمون دوفنوف بوصفه فيلسوف هذه الحركة (غير المنظمة)، ويجب التنويه هنا بأن ثمة مقابلاً قديماً يسارياً لتصور دوفنوف الليبرالي، هو حزب البوند (اختصار: تحالف العمال اليهود في روسيا وبولندا وليتوانيا، وهو حزب اشتراكي يهودي تأسس في بولندا عام ١٨٩٧)، رفض الادعاء الصهيوني القائل بأن الدولة اليهودية هي الحل الوحيد وا لحتمي لمشاكل اليهود. غير ان اعضاء الحزب لم يكونوا من دعاة الاندماج الكامل، فقد رأوا ان الاضطهاد الذي يحيق بالعامل اليهودي ليس سببه وضعه الطبقي فحسب، بل انتماؤه العرقي والديني ايضا . وقد خلصوا من ذلك الى أنه من واجب العمال اليهود دخول الصراع الطبقي كأعضاء في طبقة اجتماعية وأيضا كجماعة قومية، بمعنى ان حزب البوند كان له هدف بروليتاري، واخر قومي (ليس صهيونياً بالضرورة)، ولقد عارض البوند الصهيونية وعدّوها حركة برجوازية، ورأى في انشاء دولة صهيونية في فلسطين ضرباً من التفكير الطوباوي، لانه من غير

الممكن ان تستوعب كل يهود العالم، كما أنها تفقد يهود العالم الحق في المطالبة بحقوقهم ال اقتصادية والاجتماعية حيثما وجدوا، بالاضافة الى أن انشاء هذه الدولة يجعل الصراع بين العرب واليهود أبدياً، ويجعل وجودها وبقاءها مرهوناً برضاء يهود الغرب. وقد اتهم البوند الصهيونية العمالية بالتعاون مع البرجوازية التي تريد انشاء دولة صهيونية لايجاد اسواق لبضائعها واستثماراتها. وكان البوند يظهر معارضته للتراث اليهودي، فقد انتقد تحريم العمل في يوم السبت، ولكنه مع هذا قام بالدفاع عن اسلوب حياة اليهود في شرق اوروبا ضد التجريدات والتخريجات الصهيونية، فاعترف باليديشية كلغة قومية لليهود، دون العبرية (وذلك لعدم فهم معظم اليهود لكل من العبرية والروسية). وقد استخدم البوند هذه اللغة في دعايته بين العمال اليهود. كما طالب الحزب، عام ١٩٠٥، بالحكم الذاتي لليهودي في الناحية الثقافية. ودعا الى تنمية الشخصية اليهودية في الدياسبورا. وقد نادى البوند، في ذلك الوقت، بأنه يجب الاستيلاء على سلطة الدولة في المجالات الثقافية، على ان تسلم للأقليات ذاتها.[٥٦]

٤- اصوات جديدة، ابرزها اسرائيل شاحاك.

٤ - في نقد الالفية اليهودية.

اذا كان التاريخ عند اليهود سلسلة من التجليات الالهية السلبية والايجابية، وحالات للعود الدوري تؤكدان أن الكارثة لا تعني النهاية بل بداية جديدة، فذلك من أجل أن يتيسر للعبرانيين "تحمل عبء التاريخ" أي تحمل الهزائم العسكرية والقهر السياسي، فراحوا يفسرون الاحداث المعاصرة لهم تفسيرا يستند الى اسطورة خلق الكون البطولية والموغلة في القدم. وبالطبع، تقضي الاسطورة إنتصار التنين إنتصاراً مؤقتا، لكنها تؤكد، مقتل التنين، من قبل ملك - مسيح.

هكذا منح خيالهم ملوك الوثنيين ملامح التنين، كما ورد وصف لبومبي في مزامير سليمان (١٩: ٢٩) وكذلك تحدث ارميا عن نبوخد نصر(٥١: ٣٤) وجاء في وصية اشير ان المسيح قتل الثعبان تحت الماء.[٥٧]

اما التاريخ عند المسيحيين فينبعث بواسطة كل مؤمن بمفرده. يقول القديس اوغسطين: "لا أحد يستطيع معرفة اللحظة التي يقرر فيها ا لله وضع حد للتاريخ، فالمدينة الابدية الوحيدة هي مدينة ا لله."

فالمسيح لم يمت من اجل خطايانا الا مرة واحدة، فالموت ليس حدثاً قابلاً للتكرار.[٥٨]

ولا يعبر هذا الخلاف بينهما عن دواعي ايديولوجية وحسب بل هو تعبير عن نفي حقبة اجتماعية لحقبة اخرى محمولاً بتصورات ايديولوجية عنوانها الألفية.

فليس نفي المسيحية للالفية مجرد تباين آخر بينهما بل نفي فلسفة العمل (قايين المزارع ثم الرأسمالي) لفلسفة حقبة آفلة هي حقبة المشاعية الرعوية حقبة هابيل وامتداده الربوي . هكذا، اخذت فلسفة العمل المسيحية فكرة الزمان الدائري المحدود وإلغاء العود الابدي او فكرة التقدم اللامتناهي عند ليبنتز فيما أخذت فلسفة الرعي ـ المرابي اليهودية فكرة الزمان التكراري معبراً عنها بالالفية.[٥٩]

أما ما كتب عن الالفية المسيحية، فهو استثنائي ويتصل بالنشاطات التي خصصها التلاميذ للدعوة في اوساط اليهود بوصفهم خرافاً ضالة (متى١٠: ٥ـ١).

كما ان الألفية المشار اليها في متى ولوقا هي ألفية مختلفة عن ألفية العهد القديم، وتتعامل مع اسرائيل كشهادة قربانية للانبعاث المسيحي وتتجاوز القراءات المسيحية الرمزية للعهد القديم واليهودية الى ألفية الشهادة القربانية الى نفيها بالمطلق.

فمجيء المسيح يعني نهاية الناموس (الشريعة) وبداية النعمة، اي نهاية اليهودية وبداية المسيحية.

في روميه (٦: ٤) لن تسودكم الخطيئة لانكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة.

وفي انجيل يوحنا (١: ١٧) الناموس بموسى اعطي والنعمة والحق ف يسوع المسيح صارا.

وفي رسالة بولس الى اهل غلاطية انكم ان اختتنتم فلن ينفعكم المسيح شيئا اما نحن فمن الروح وبالايمان ننتظر البر المرتجي.

وبعد ان اصبحت المسيحية الدين الرسمي لروما شجبت العقيدة الالفية واعتبرت هرطقة. وبانتصار الكنيسة تحققت ملكوت السماء على الارض وتحقق دمار العالم القديم.[٦٠]

و لم يبقى من العهد القديم الا ما يخدم القراءة المسيحية الرمزية لهذا العهد، من نمط اعتبار الخروج والدخول في ارض هو الخروج من العماء والدخول في الحياة ومن نمط اعتبار الهيكل الموعود هيكل الناس وليس هيكل سليمان، واعتبار الارض الموعودة حقل تجربة روحية حسب قول بولس:[٦١]

آباؤكم لم يدخلوا الموعد، اي ملكوت الله.

وكذلك إعتبار المسيح ملكاً روحياً ومملكته هي مملكة الله. وليس ملكاً دنيوياً، مملكته مملكة داود.

وهو ما يفسر دخول المسيح اورشليم راكباً على حمار صغير ليظهر تواضعه، ليس كملك كما أراد اليهود، وكذلك يوم دخوله عيد فصح اليهود ليظهر الغاء القربان الحيواني واستبداله بالقربان البشري الذي هو المسيح نفسه.

وقد غاب عن مهندسي وضع فكرة البعث الاسرائيلي في النطاق الالفي المسيحي، انه حيث تريد الصهيونية تحويل المسيح الى يهودي (ملك

اليهود) فإن الالفية تتحدث عن نفي المشروع الاسرائيلي برمته، حيث ينتهي التاريخ الهيغلي المسيحي بعيداً عن اسوار اريحا وخارج الذاكرة المكابية.

ان الغائية في الالفية كما في الهيغلية كما في فكرة نهاية التاريخ، فكرة ذوبان لا تستدعي نوح الا لتنفيه على البر من جديد في رحلة الخطيئة الدائمة ولا تستدعي اسرائيل كمتعين الا لتنفيها.

اما بشأن الشق الآخر من التوليفية الصهيونية التي ربطت بين تأبيد اسرائيل وتأبيد الرأسمالية، فلا بد من توضيح بعض الالتباسات بشأن هذه الفكرة ومساجلات ماركس مع بوير بصددها والتي حاول اليسار الصهيوني الاتكاء عليها لصبغ القلنسوة اليهودية باللون الاحمر.

فعندما قال ماركس (ان اليهودية لا تبلغ ذروتها الا مع اكتمال المجتمع البرجوازي) فلم يكن يعني في ضوء منهجه العام ان البرجوازية تحقق ذاتها في اليهودية فتصبح اليهودية حسب (بروتوكولات حكماء صهيون) ويصبح هيكل سليمان كعبة الامبريالية العالمية الاولى، بل ان اليهودية تحقق ذاتها في البرجوازية العالمية لتذوب وتصبح مسيحية ولا يصبح لمشروعها الخاص اي معنى.

ان التعين، هنا، تعين للعلاقات البرجوازية وليس لايدولوجيا ما قبل رأسمالية كما تحاول الصهيونية تطويع هيغل لتصوراتها. فالترتيب الهيلغي الذي يتحدث عن قيام الدولة البرجوازية المطلقة ذات الروح البونابرتية يحتاج الى بنى وعلاقات برجوازية في التعين وليس الى حاخامات تجاوزهم الغرب في القرون الوسطى.

هوامش الفصل السادس

١ ـ القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص٩٩.
٢ ـ شفيق مقار، قراءة سياسية للتوراة، دار الريس، لندن، ١٩٩١، ص١١٨/١١٩.
٣ ـ مقار، المصدر السابق، ص١٢١.
٤ ـ القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص١٢٢/١٢٣.
٥ ـ القمني، اسرائيل، مصدر سابق، ص٢٤.
٦ ـ القمني، المصدر السابق، ص٢٤.
٧ ـ المصدر السابق، ص٢٤.
٨ ـ المصدر السابق، ص٢٥.
٩ ـ المصدر السابق، ص١٩.
١٠ ـ مقار، مصدر سابق، ص٣٨٠/٣٨٥.
١١ ـ القمني، اسرائيل، مصدر سابق، ص١٩/٢٠.
١٢ ـ لوكاتش، تحطيم العقل، مصدر سابق، الجزء الرابع، ص٧٤.
١٣ ـ موريس بوكاي، الكتب المقدسة، دار الافكار، بيروت، ١٩٩١، ص٤١/٤٢.
١٤ ـ بوكاي، المصدر السابق، ص٥٢/٥٣.
١٥ ـ مفيد عرنوق، التوراة والتراث السوري، دار النضال للطباعة، بيروت، ١٩٨٦، ص٩٥/٩٧.
١٦ ـ فرج الله صالح ذيب، جريدة الرأي الاردنية، ١٥/١/١٩٩٥.
١٧ ـ فرويد، موسى والتوحيد، مصدر سابق، ص٨/٩.
١٨ ـ احمد سوسه، العرب واليهود عبر التاريخ، مصدر سابق، ص١٥٥.
١٩ ـ القمني، اسرائيل، مصدر سابق، ص٣٨.
٢٠ ـ القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص١٥٠.
٢١ ـ مقار، مصدر سابق، ص١٢١.
٢٢ ـ القمني، مصدر سابق، ص١٣٧/١٣٨.

٢٣ ـ القمني، مصدر سابق، ص١١٨.
٢٤ ـ المصدر السابق، ص١٣٧.
٢٥ ـ هالة عطية، سومر، دمشق، ١٣/١/١٩٩٢.
٢٦ ـ هالة عطية ، المصدر السابق.
٢٧ ـ مقار، مصدر سابق، ص١٨٨/١٩٣.
٢٨ ـ عرنوق، مصدر سابق، ص١٤٤.
٢٩ ـ المصدر السابق، ص١٢٢/١٢٣.
٣٠ ـ تقي الدين الدباغ، الفكر الديني القديم، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٩٢، ص١١٧.
٣١ ـ مقار، مصدر سابق، ص٢١٩.
٣٢ ـ مقار، مصدر سابق، ص٢١٦/٢١٨.
٣٣ ـ القمني، اسرائيل، مصدر سابق، ص٨٢.
٣٤ ـ مقار، مصدر سابق، ص١٣٤.
٣٥ ـ جودت السعد، الشخصية اليهودية عبر التاريخ، المؤسسة العربية، ١٩٨٤، ص٤٧.
٣٦ ـ القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص١٤٦/١٢٦/١٤٧/١٤٩.
٣٧ ـ عبدالمجيد حمدان، صوت الوطن، مصدر سابق.
٣٨ ـ مصطفى محمود، التوراة، دار المعارف، القاهرة، ص٩٨.
٣٩ ـ المسيري، اجريدة الحياة اللندنية، ٦/١٢/١٩٩٤.
٤٠ ـ لوكاتش، تحطيم العقل، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص٧٦.
٤١ ـ كالتاخنتشان، مصدر سابق، ص١٧/١٨.
٤٢ ـ المصدر السابق، ص١٣٢/١٣٣.
٤٣ ـ المصدر السابق، ص١١١/١١٧/١١٥٥/١٤٣/١٥٢/١٣٣.
٤٤ ـ المصدر السابق، ص١٤٦/١٤٧.
٤٥ ـ ايفانوف، مصدر سابق، ص٤٨.
٤٦ ـ المصدر السابق، ص٢٠.
٤٧ ـ ليون، مصدر سابق، ص٥٩.
٤٨ ـ حكمت بلعاوي، الكاتب الفلسطيني، عدد٢٢/١٩٩١.
٤٩ ـ المصدر السابق.
٥٠ ـ المصدر السابق.
٥١ ـ المصدر السابق.

٥٢ ـ حاتم الحسيني، مصدر سابق، ص٢٢٧.
٥٣ ـ المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، مصدر سابق، ص٦٣.
٥٤ ـ المصدر السابق، ص٦٦.
٥٥ ـ الحسيني، مصدر سابق، ص٢٢٧.
٥٦ ـ المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، مصدر سابق، ص٦٤.
٥٧ ـ الياد، اسطورة العودة، مصدر سابق، ص٦٩.
٥٨ ـ الياد، المصدر السابق، ص٢٠٦/٢١٠.
٥٩ ـ الياد، المصدر السابق، ص٢١٣.
٦٠ ـ الياد، مظاهر الاسطورة، مصدر سابق، ص٨٦.
٦١ ـ اليازجي، رد على التوراة، ص١٦٧/١٥٢/١١٧/١١٨.

الفصل السابع

الخاص اليهودي .. العام العالمي

مسعدة كحتمية ـ الاندماج كضرورة

عندما ألقى المركب باتريه بمراسيه في ميناء حيفا في ١٩٤٠/١١/٢٥ ورفضت القوات البريطانية السماح لركابه اليهود بمغادرته، حيث كانت بريطانيا مشغولة عن ذلك بتكتيك الخداع في المنطقة خلال الحرب الثانية، وعندما اتخذت القوى الصهيونية قراراً بنسف المركب مع ركابه الـ ٢٥٢، فإن حدوث الانفجار في (باتريه) لم يكن عملاً شكلياً، كما كتب جون وداود كيشي، و لم يكن سراً على أحد أن (الهاغانا)، هي التي نظمت هذا الانفجار.

وكما ينوه الكاتبان ـ لاقت رواجاً كبيراً الاسطورة القائلة" "أن المهاجرين هم الذين نسفوا المركب..."كما يذكر ايفانوف[1]

وفيما عدا بعض الأسباب المموهة الكامنة وراء تحقيق هذا الفعل الوحشي، كان الشيء الجلي هو ان الصهيونيين، قبل ان يقدموا على نسف (باتريه) مع ركابها، أعدوا اسطورة لم يسبق لها مثيل عن الانتحار الجماعي لاولئك الذين (فضلوا الموت على فراق الوطن)، ولكن حادثة باتريه ورمزها الماضوي البعيد، الذي مثلته الرواية الصهيونية عن مسعدة لم تجعل الخاص اليهودي ينتج بنهاياته المتقطعة عبر التاريخ انبعاثات متراكمة للفنيق اليهودي بل ظل يبدو في كل مرة كبروق يهودية في سماء الاخرين، فالموت في مسعدة كان انبعاثاً لروما وليس لأورشليم، وخراب الهيكل كان بعثاً لـ تيطس في التاريخ، والموت في باتريه

١٩٤٠ لم يكن بعثاً لاسرائيل ١٩٤٨، فالاخيرة ليست الا باتريه الثانية التي تنتظر الانفجار الكبير، ليس على يد ضفادع الهاغانا من خارج الميناء فقط، بل من داخل السفينة أيضاً، حيث كل خاص يهودي، بما هو خاص القانون الامبريالي يفتح من آفاق الموت حوله أكثر بكثير من آفاق الحياة.

فاليهود إما أن يكونوا داخل التاريخ العالمي من خلال الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها أو أن يكونوا خارج هذا التاريخ من خلال أوهام الجزيرة المحاصرة كمتراس موت أخير في خدمة السيد العالمي المتبدل بين عقود واخرى.

وفي قراءة اولى للمشروع الصهيوني، كما هو في حيز التطبيق يحاول الاسرائيليون عبثاً إنتاج أنفسهم كدولة ومجتمع، باستحضار مصطنع لعناصر الدولة والمجتمع حيث ليس بمقدور حالة خارجية جبرية إنتاج هذه العناصر كقوانين داخلية.

فالخارج، كقانون عام امبريالي، يظل يعيد إنتاج خاصه، بما ينسجم مع المنطق الداخلي لهذا العام الذي يبدد كل محاولة لانتاج الخاص لمنطقه الداخلي، كمجتمع متمحور على ذاته، فيظل المجتمع الطرفي الاسبارطي في الحالة الاسرائيلية، حالة خارجية بالنسبة لنفسه تتجلى في حالة من المجاميع والتكسيرات الاجتماعية التي تفتقد الى الناظم الداخلي الاجتماعي الخاص كما تتجلى على الصعيد السياسي في الطابع الفاشي الخارجي للديموقراطية الداخلية وفي التناقض بين محاولة انتاج الشروط السياسية الخاصة في ظل القانون العام الامبريالي وحاجاته الاقليمية وبين اصطدام هذه المحاولة مع انتاج شروط العداء الذاتية والموضوعية في المحيط العربي.

هكذا فإن كل حل يهودي خارج الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها هو حل السيد العالمي وليس حل اليهودي، فاليهودي لا يمكن ان يعبر عن نفسه في حالة خاصة الا في اطار قانون السيد العالمي.

ومثلما عبر اليهود عن مثل هذه الحالة داخل الشرق وداخل الغرب الاقطاعي في الماضي فإن التجربة الاسرائيلية تؤكد هذا الاستنتاج في كل

المجالات التي من شأنها ان تؤشر على القدرة او عدم القدرة على صياغة قانون خاص اجتماعي - سياسي - ايديولوجي متمحور على ذاته،حيث نرى أن التجربة الاسرائيلية في المجالات المختلفة تؤكد ان اسرائيل لا يمكن أن تنتج لليهود تجربة خاصة خارج معطيات ومقتضيات وحاجات المركز الامبريالي العالمي في المجالات التي تشكل اي كيان:

١- في المجال الاجتماعي، حيث يبرز التكوين اللاقومي الخاص.

٢- في المجال الايديولوجي، حيث تبرز الايدويولوجيا الطائفية كأيديولوجيا للوظيفة الكولونيالية.

٣- في المجال السياسي، حيث تبرز اسرائيل كمشروع غير قابل للتعايش مع المحيط انطلاقاً من موقعه داخل الاعتبارات الامبريالية في الشرق.

أولاً: في المجال الاجتماعي، التكوين اللاقومي :

مع الاعتراف بوجود تعارضات اجتماعية وسياسية وايديولوجية داخل الكيان، إلا أن هذه التعارضات ليست أكثر من تجليات أو مظاهر ثانوية محتومة للتناقض الاساسي الخارجي المؤدلج على مقاييس الكانطية والتيار الحيوي - العرقي القائم على وحدة الداخل العضوي مقابل العالم الموضوعي الخارجي.

فلم يتم تطور الكيان والمجتمع الصهيوني وفق قوانين الصراع الاجتماعي الداخلي وعلى اساس حركة توليد فائض قيمة داخلي بل على أساس موقع الكيان في الاعتبارات السياسية الامريكية للمنطقة وعلى هامش حركة توليد فائض القيمة للمصالح والوجود الامريكي في المنطقة.

فهنا جرى كل شيء بالمقلوب، القوى السياسية تشكل المجتمع، واتحاد العمال (الهستدروت بشكل الطبقة).

يقول بول فندلي[٢]: "على الرغم من المجهود الكبير الذي بذلته الولايات المتحدة خلال الثمانينات لاصلاح اشتراكية اسرائيل فقد بقي ما يزيد على ٦٠٪ من النشاط الاقتصادي الاسرائيلي معتمداً على الدعم المالي وما يتصل بذلك من الانفاق الحكومي. وقد توصل بنك الاستيراد والتصدير الى الاستنتاج

نفسه اذ ورد في دراسة له عام ١٩٩١ ان اسرائيل قاومت إجراء الاصلاحات واستخدمت الديون عوضاً عن ذلك (لتمويل نفقات دفاعية كبيرة، ونظام إنعاش اجتماعي واسع النطاق، ومستوى معيشة مرتفع نسبيا .. واذا ازدادت قيمة القروض الجديدة زيادة حادة .. فمن المحتمل ان تواجه الولايات المتحدة في نهاية العقد، وضعا تفوق فيه دفعات تسديد الديون المجدولة فيمة القروض بهذا تصبح الحكومة الاميركية مستوردة لرأس المال من اسرائيل.

وفي الوقت نفسه تقريباً قامت دائرة الابحاث التابعة للكونجرس باصدار تقرير خاص خلص الى (ان اسرائيل لا تتمتع بالاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية وتعتمد على المساعدات الخارجية والاقتراض للمحافظة على اقتصادها) المثقل بشركات حكومية خاسرة وبيروقراطية حكومية ضخمة ومعونات مالية ضخمة تقدم الى الصناعيين من دافع الضرائب وتحديد صارم لاسعار المواد الاستهلاكية، وتعرفات وغيرها من القيود على حرية التجارة وضوابط على القطع الاجنبي، وهيمنة الحكومة على أسواق رأس المال، وامتلاكها ٩٣٪ من اراضي اسرائيل."

ويضيف فندلي مستغربا : "كيف تقوم الولايات المتحدة راعية الاقتصاد الحر بتقديم مساعدات غير مشروطة لبلد يخضع اقتصاده لسيطرة مركزية ولنفوذ غير عادي لاتحاد العمال فيه (الهستدروت) الذي يسيطر على العديد من المشاريع والشركات والمؤسسات الاقتصادية.

ويتابع الفرد ليلنتال[٣] تعليق احد الامريكيين على الدعم الامريكي لاسرائيل ويرى معه انه من الافضل بكثير للولايات المتحدة ان تنقل جميع الاسرائيليين الى مدينة نيويورك، فذلك أرخص من جهة، ويوفر لإسر ائيل الحدود الامنة، من جهة اخرى. وقد فات فندلي ان الهستدروت ليس مجرد اتحاد عمال او مؤسسة تعاونية، بل هو كما قال بن غوريون: "أابرز تعبير عن اسرائيل".[٤]

كما ان الاقتصاد الاسرائيلي في صورته التي ادهشت فندلي وليلنتال هو القادر وحده على توفير[٥] الشروط الاجتماعية الداخلية للوظيفة السياسية

الخارجية وتفسير تدفق ٥٣ بليون دولار امريكي الى اسرائيل بين الاعـوام ١٩٤٨ و١٩٩١. و٢١٪ مـن اجمـالي المسـاعدات الامريكيـة الخارجيـة لعـام ١٩٩٥[٦]. فإلغاء الاقتصـاد المخطـط وتقليـص المسـاعدات والمعونـات الخارجيـة يعـني تبديـد شروطها الداخلية وتحطيم الدولة كرافعة اساسية للمشروع الامبريالي.

ان دور اسرائيل داخل المنظومة الامبريالية معادل لدور القـوى والفئـات الاجتماعية التي تقوم الطبقة السائدة بعزلها واعدادها وفق أطر أثنيـة أو طائفيـة أو عرقية لاستخدامها كمطرقـة ضـد الطبقـات الاخـرى، انهـا بمثابـة المثقـف التقليدي، حسب غرامشي، او الممثل والوكيـل السياسـي للامبرياليـة، بدلالـة كل قواها داخل الكيـان، بينمـا القـوى الاجتماعيـة الـتي تلعـب دور الوكيـل السياسي في البلدان الاخرى، تفتقر الى هذه الوحدة الجمعية، حيـث المطلـوب تحطيمها في هذه البلدان وليس تماسكها.

وبلغة الاقام، فإن الاموال والمساعدات والمعونات والقـروض الامبرياليـة لاسـرائيل لا تتخـذ الوضـع التقليـدي للاسـتثمارات الامبرياليـة في البلـدان الاخـرى، بـل تتخـذ مـن اسـرائيل اسـتثماراً سياسـياً لخدمـة الاسـتثمارات الاقتصادية والتصورات السياسية المرافقة في المحيط الاقليمي.

وبدون هذا الفهم ليس ثمة ما يبرر كل هذا التدفق الرأسمالي العالمي على بلد يحكمه الهستدروت والبيروقراطية الحكومية.

جاء في كتاب (الرأسمال العالمي وتكون الاقتصاد الإسرائيلي)[٧]:

ان رؤوس الاموال الخارجيـة قـد امنـت في فـترة ١٩٥٠ـ١٩٦٧ نسبة ٩٢,٧٪ من مجمل ما تم استثماره سنويا في جميع قطاعات وفـروع الاقتصـاد الاسرائيلي، وفي فترة ١٩٦٨-١٩٧٤ نسبة ٨١,٤٪ مـن مجمـل الاسـتثمارات وبشـكل عـام خـلال فـترة ١٩٥٠ـ١٩٧٤ أمنـت رؤوس الامـوال الخارجيـة ٨٦,١٪ من مجمل الاستثمارات.

وتعطينا هذه النسبة المرتفعة جداً فكرة عن مدى ارتباط النمو السريع الـذي حققه الناتج القومي الاسرائيلي منذ انشاء دولة الكيان الصهيونـي بالرسـاميل الـتي

امنتها المؤسسات الصهيونية وحكومتا المانيا الغربية والولايات المتحدة الامريكية والاحتكارات الدولية الكبرى التي وظفت أموالها في الشركات الاسرائيلية او اقرضت البنوك الاسرائيلية او اشترت السندات الصادرة عن حكومة اسرائيل.

وهو الدليل على ان الرساميل الاجنبية هي التي تشكل اساس الاقتصاد الاسرائيلي، وبدونها لا يمكن ان يكون هناك ما يدعي بالاقتصاد الاسرائيلي.

فلم يستطيع الادخار الداخلي للافراد والمؤسسات في الكيان الصهيوني ورغم مرور كل هذه العقود على اقامته ان يؤمن سوى ١٣,٩٪من مجمل الاستثمارات. فلولا رؤوس الاموال الخارجية المتدفقة لاضطر هذا الكيان الصهيوني الى احد الحلين:

- إما النمو البطيء جداً في الناتج القومي.

- وإما زيادة قسرية لنسبة الادخار الداخلي عبر الحد من الاستهلاك، أي ابقاء مستوى المعيشة متدن نسبياً من اجل تخصيص المزيد من الموارد الداخلية المتاحة للاستثمار (وفي هذه الحالة لن تكون هنالك هجرة ولا استقرار اقتصادي ولا مستوى مرتفع للمعيشة، الامر الذي لا يتناسب مع ما تتطلبه الوظيفة المناطة بالكيان الصهيوني في المنطقة اذ يصبح عامل طرد وليس عامل جذب للقوى البشرية التي هي أساس الالة العسكر ية والسياسة في هذا الكيان.

فكان لا بد من استمرار التدفق المماثل لرؤوس الاموال الخارجية للمحافظة على هذا الكيان ليستطيع القيام بمهمته. ان هذا التدفق الهائل لرؤوس الاموال الخارجية هو وحده الذي سمح في آن واحد بتخصيص مبالغ ضخمة للاستثمارات الجديدة وتأمين مستوى واستهلاك فردي يرتفع باستمرار (اكثر من ٥٪ سنويا منذ عام ١٩٥٠).

ان تطور علاقات الانتاج والقوى المنتجة وبالتالي تطور المستوى المعيشي في اسرائيل يتحدد في ضوء المساعدات الامريكية والوظيفية العدوانية الاسرائيلية داخل المنطقة، وبالتالي فإن الذي يتكون في فلسطين ليس أمة بل قاعدة عسكرية عدوانية تابعة.

فرب اسرائيل هو رب الجند، وجنرالات اسرائيل يسيطرون على الحياة السياسية والاقتصادية معا (من الجنرالات الاحياء والاموات المعروفين على الصعيد السياسي: يادين ـ دايان ـ رابين ـ بارليف ـ غولدـ اتيان ـ وغير هم، ومن الجنرالات المعروفة على الصعيد الاقتصادي: تورـ لاسكوف ـ ماكليف ـ مائير عميت).

و لم يأت ذلك بمحض الصدفة بل كان النتاج الطبيعي للتكوين الاجتماعي الاسبارطي الاسرائيلي بمجمله.

يقول الدكتور صبري حلاوة: ان اعتماد نظم ومفاهيم اقتصاد الحرب في هذه النظم، يتبع أساساً من حالة الحرب المستمرة بينها وبين السكان الأصليين والوسط الاقليمي المحيط لتثبيت وجودها عن طريق فرض الامر الواقع بالقوة وتحقيق اهدافها في استمرار التوسع الاقليمي.

والحرب لا ترتبط بدوائر معينة في مجتمع المستوطنين أو بفئات متطرفة من بينهم كما يتوهم البعض بحيث يمكن تغيير تلك السياسة بتغير هذه الدوائر والفئات بل هي موقف كلي ينبع من طبيعة الوجود الاستيطاني ذاته ويعبر عن جوهره وشروط استمراره.

هكذا، فالذي نراه في اسرائيل ليس حركة صراع اجتماعي للاكثرية الاجتماعية المقهورة اليهودية العربية ضد الاقلية البرجوازية اليهودية الحاكمة، بل حركة صراع بين الأقلية العربية في فلسطين وبين الأكثرية اليهودية بمختلف طبقاتها.

فالصراع لا يجري بين نقيضين داخل مجتمع واحد، بل بين مجتمعين لكل منهما وحدته الخاصة. فالوعي الطبقي يتنحى امام الوعي الاستيطاني، والتناقض الاساسي هنا هو تناقض خارجي حيث علاقة الجماعة الاستيطانية بالشعب الفلسطيني ليست علاقة سيطرة واستغلال لطبقة منه بل علاقة إخضاع للشعب الفلسطيني كله. والصراع على الارض لا يجري من اجل استخدامها كوسيلة انتاج او كسلعة تخضع لحق التملك البرجوازي، بل كوطن لإقامة مجتمع اصطناعي خاص منفصل عليها.

١ - في المجال السياسي: تكوين اللاتسوية

ليس من قبيل المصادفة، نجاح المشروع الصهيوني في وظيفتـه الامبرياليـة الخارجية أكثر من نجاحه في استكمال شروطه الداخلية.

وهو لذلك، وبسبب من تكوينه الخـارجي الوظيفـي العدوانـي، كحالـة من الحالات الجغرافيا السياسية للصراع الدولي والاقليمي، تكويـن لا تسـوية، ليس في بعده التقليدي، الثابت، بل وفي بعده الجديد، كما عكسته التطـورات الدولية والاقليمية الاخيرة.

ويعود البعد الاول الى أزمة التكامل بين تهويد الارض وتهويد الشعب، وبين رقعة الاستيطان ورقعة الهيمنة.

ان التخلي عن تهويد الارض لصالح تهويد الشعب (النقاء العرقي) كمـا يطالب المعراخ او العكـس كمـا يطـالب الليكـود مسـألة مسـتحيلة في الفكـر الصهيوني، ولا يستطيع أي حزب صهيوني أن يجيب عليهـا، كمـا أن الجمـع بينهما صعب جداً في ظل صمود الشعب الفلسطيني على أرضـه، مـن جهـة، وفي ظل تزايد موجات المهاجرين اليهود، من جهة ثانية وما تطلقه تعارضـات القوى الصهيونية الرئيسية حول فكرة المسارين المقترحين لعملية التسوية .

اما البعد الثاني، فيتصـل بـالتطورات الدوليـة والاقليميـة، حيـث مـن المهـم بمكان ملاحظة انه اذا كانت اسـرائيل قـد فقـدت جانبـاً مـن اهميتهـا الخارجيـة، الأمنيـة، في ضـوء الانهيـار السـوفياتي والحضـور الامريكـي المباشـر في الشـرق والخليج، فإن ذلك مدعاة اسرائيلية لهدفين مترابطين شديدي الصلة بحاجة اسرائيل الى عملية فـك طويلـة لعمـوم المنطقـة واعـادة تركيبهـا وفـق التكيـف الاسـرائيلي المنشود امريكياً، وهما:

الاول: حاجة اسرائيل الى تعويض ما فقدته خارجيـاً مـن خـلال المزيـد من الخطوات في الداخل، على طريق استكمال الكيان لشروطه الخاصة بما في ذلك رفع قدراته الذاتية.

الثاني: حاجة اسرائيل الى إعادة انتاج نفسها، عبر مثل هذه الخطـوات، كمركز اقليمي للهيمنة السياسية الاقتصادية على كل المنطقة.

ان مجمل ما سبق هـو الـذي يجعـل اسـرائيل،كمـا بقيـة الاطـراف المأزومـة الأخرى، مستعدة للتعاطي مع مناخات التسوية كمناخات فك للأطـراف العربيـة وليس كعملية تركيب لتسوية شاملة. فالتعاطي مع مناخات الفك فقط، هو الذي يساعد اسرائيل على تكييف نفسها مع الوضـع الـدولي الجديـد، وعلـى امتصـاص أزمتها بأقل الخسائر الممكنة وتصدير خطرها الى الاردن، من خلال تحويل المعضلة الديموغرافية الفلسطينية تدريجياً من أزمة اسرائيلية الى أزمة اردنية.

٢ ـ في المجال الايديولوجي: ايديولوجيا الكولونيالية

عندما يوصف الفكر الصهيوني بإنه فكـر انعـزالي انتحـاري، مركـب على علاقة عدائية موضوعية بالمحيط، فلإن الايديولوجيا الوحيدة الـتي تلائـم الجيتو الاسرائيلي الجديد في الشرق، هي ايديولوجيا العهد القديم، تماماً كما كان الجيتو اليهودي القديم داخل اوروبا الاقطاعية يعبر عن عدائيته للمحيط من خلال الاصلاح الديني الذي أعاد الاعتبـار للعهـد القديـم كأيديولوجيـا للمال.

يقول اسرائيل شاحاك: "يعيش المواطن في اسرائيل داخـل شـبكة كثيفـة من الرموز والاسـاطير، الـتي نسـجها الصهاينـة مـن الـتراث الديـني اليهـودي، واعطوها مضمونا "قومياً".

١ـ فعلم بلاده أبيض وأزرق، لون "الطاليت" (شـال الصـلاة اليهـودي) تتوسطه نجمة داوود، وهي رمز قبالي، ويتحدث نشـيده القومـي عـن "عـودة" الى وطنه تذكر المرء بالعودة في العصر الماشيحاني.

٢ـ اسم الدولة (اسرائيل) واسـم الارض (ارتـس اسـرائيل) وهـي كلهـا تسميات دينية قومية في الوقت ذاته، والبرلمان الذي يجتمـع فيـه ممثلـو"الشـعب

اليهودي" في اسرائيل يسمى (الكنيست) او مكان الاجتماع، وهو اسم يذكر المرء بالمعبد اليهودي، الذي يطلق عليه (بيه هاكنيست).

٣ـ بالاستناد الى سفر التثنية ينتمي قانون الزواج الاسرائيلي الى قوانين وتقاليد القرون الوسطى فلا يحق لليهود ان يتزوجوا من غير اليهود ولا يعترف بالزيجات المدنية التي تتم خارج اسرائيل.

٤ـ يعتبر قانون الجنسية الاسرائيلي الذي اقر عام ١٩٥٢ كل يهودي يدخل اسرائيل مواطناً إسرائيلياً فيما يترتب على العربي الذي يقيم في فلسطين منذ عشرات السنين ان يثبت ذلك.

٥ـ إن أكثر الاراضي في اسرائيل هي إما ملك للصندوق الوطني اليهودي او خاضعة لادارته.

ولهذه الايديولوجيا التوراتية العدوانية التي تنطوي على المفارقة في وظيفتها العدوانية الرأسمالية، مسوغاتها الفكرية التي تحتاجها اسرائيل خلال انتاج شروط وظيفتها الداخلية والخارجية على حد سواء.

فمن جهة الشروط الداخلية، عندما يتحدث بول فندلي عن أن اسرائيل ليست دولة علمانية بل دولة طائفية تعامل المسلمين والمسيحيين داخلها كمواطنين من الدرجة الثانية، بالاضافة الى ان القانون القضائي للمحاكم الحاخامية المعمول به منذ العام ١٩٥٣ يخضع كل المقيمين لسلطة تلك المحاكم في مجال العلاقات الاهلية الاجتماعية، فليس ذلك لأن اسرائيل دولة اليهود الدينية، بل لأن ذلك من ضروراتها كدولة الغرب السياسية ـ البوليسية ازاء المنطقة.

ان لا علمانية اسرائيل والاستراتيجية العبرية عن تكامل الارض والشعب تحقق للمركز الرأسمالي حالة مسعده واعادة انتاج الوعي اليهودي على هذا الاساس، حيث يصبح وعي مسعدة، ارتباطا بكانط (الشيء في ذاته) والداروينية الاجتماعية في بعدها العرقي ـ الحيوي الذي يقدم اسرائيل كوحدة داخلية عضوية في مواجهة الخارج، يصبح الشرط الضروري لإنتاج هذا الوعي كوعي إمبريالي يربط أمن القلعة من الداخل بأمن الدوا ئر الامبريالية وراء البحار.

اما على الصعيد الخارجي، فليست الايديولوجيا الطائفية ايديولوجيا دينية ما قبل رأسمالية بل ايديولوجيا الكولونيالية، فالطائفية كما يقول مهدي عامل ترد الى المرحلة الرأسمالية وليس الى المرحلة ما قبل الرأسمالية، وهي ايديولوجيا الطبقة المسيطرة في العلاقات الرأسمالية في بعدها الامبريالي العام وفي بعدها الخاص.

ويضيف عامل(٨): "ان التحليل المادي للطائفية كظاهرة اجتماعية يقتضي القول بأن جذورها هي جذور مادية، بمعنى أنها تمتد في القاعدة المادية للبنية الاجتماعية القائمة في حاضرها الراهن لا في القاعدة المادية لبنية اجتماعية سابقة، اي بالية، ولا وجود لأي ظاهرة من الظاهرات الاجتماعية الا في البنية القائمة". لذلك يرفض تاريخية الظاهرة الطائفية بإرجاعها الى انماط الانتاج السابقة على الرأسمالية ويرى أن منهج التحليل المادي يقضي، في معالجة المسألة الطائفية، برد هذه المسألة الى جذورها المادية التي تكمن في القاعدة المادية للبنية الاجتماعية القائمة، اي في بنية علاقات الانتاج الكولونيالية.

فتتضح دولة الايديولوجيا الطائفية كما يقول مسعود ظاهر في متابعة مهدي عامل كدولة طبقية أُنبتت على شكل طائفي لأنه شكلها البرجوازي الملائم للسلم الاجتماعي الطائفي الداخلي الذي يضبط موقعها الخارجي، وهي التي تؤمن لفئات الطبقة المسيطرة تماسكها الطبقي في وحدة تحالفها البرجوازي الداخلي على قاعدة علاقتها التبعية بالامبريالية ووظيفتها الاقليمية، اي بما يجعل الوحدة الداخلية في اطار التعددية القائمة على التضامن العرقي ايديولوجيا، هي الرافعة الضروية لتحقيق الاهداف السياسية الخارجية وتسويغها داخلياً، فيصبح من المفهوم لماذا تعتبر اسرائيل نموذجاً فريداً للدولة كمفهوم ايديولوجي، يغرف من نيتشه وروزنبرغ اللذين يحيلان الدولة كمشروع ايديولوجي الى روابط لا عقلانية، قبلية، ماضوية، بيولوجية، تقدم الدولة كمتعين مغلق يستعاد حسب كمون أو تجلي الرغبة او الارادة وليس حسب القوانين الموضوعية الخاصة داخل سيرورة مفتوحة على التاريخ.

٣ ـ العام الديموقراطي، عام المواطن العالمي:

كان الاندماج اليهـودي في المجتمعـات الـتي يعيشـون فيهـا ممكنـاً، وقـد عـبرت حركـة الهسـكالا اليهوديـة الـتي توافقـت مـع حركـة النهضـة القوميـة البرجوازية عن ذلك عندما اخذت الوظيفة التجاريـة لليهـود بالتلاشـي غـرب أوروبا مما يشير الى أن الاندماج أو عدمه لا يتعلق بمزاج سيكولوجي أو تحصن قومي داخلي، بقدر ما يتعلق بالشروط الاجتماعيـة الـتي تعيـد انتـاج الوظيفـة اليهودية او تدمرها.

وهو ما يجيب أيضاً على اسـباب عـدم الاندمـاج في الاتحـاد السـوفياتي السابق وبلدان اوروبا الشرقية، حيث يرد رويتشر أسـباب عـدم الاندمـاج الى عدم استقرار الاشتراكية كنظام اجتمـاعي والى الهزات الكـبرى الـتي رافقـت ثورة اكتوبر والحرب الاهلية ثـم حـروب التدخـل وتدمـير الريـف السـوفياتي والظروف التي خلقتها الحرب الثانية داخل الاتحاد السوفياتي وجعلـت اليهـود في حالـة انتقاليـة ومكنتهـم خـلال هـذه الهزات مـن اعـاد ة انتـاج وظيفتهـم التجارية الربوية التاريخية.

يقـول دويتشـر[٩]: "اذا كـانت ثـورة اكتوبـر قـد حلـت مشـكلة التميـيز السياسي ضد اليهود، فإن الاجـراءات الاجتماعيـة للثـورة أثـارت مخـاوفهم، فهـم أقـرب الى البرجوازيـة الصغـيرة المدينيـة، الـتي لم تخـف عواطفهـا إزاء البونـد، وفي أحسن الاحوال إزاء بوعالي تسيون. كما أن الحرب الثانية أيقظت كل موروثهم التجاري ـ الربوي بسبب الآثار الـتي ترتبـت علـى نقـل سـتالين مليونـين ونصـف يهودي من المناطق المحتلة في روسيا بهدف انقاذهم من الابادة الهتلرية، الى المنـاطق الداخلية، حيث كان عليهم حتى يكسبوا قوتهم ان يستعيدوا دورهم في الاسـواق السوداء والسمسرة.

ان الاندماج هو الحل الحقيقي للمسألة اليهودية، حيث ليس لليهودي أي حل خاص خارج الحل العالمي الذي ينفي الوظيفة الخاصة، ولا يستدعي اي شكل من اشكال الجيتو القديم التجاري الحرفي او الجديد، العسكري. ولا ينبع ذلك من موقف خاص من اليهود، بل من الموقع الخاص الذي احتله اليهود في التاريخ، حتى أصبح من الصعب التناقض بين الاله العالمي والاله اليهودي الا بذوبان الثاني في الاول،كما يقول سبينوزا متماهياً مع قول ماركس: " ان التنظيم الاجتماعي الذي يلغي الشروط الضرورية للمتاجرة يجعل وجود اليهودي مستحيلاً". ومع قول ابراهام ليون: "إان تحرير اليهود انما يتم من خلال القضاء على النظام الرأسمالي العالمي."

ان قيام الدولة اليهودية، عقّد المسألة اليهودية و لم يحلها، وحولها من قضية لاسامية غربية ضد اليهود الى قضية لاسامية يهودية ضد العرب، حتى أن كثيرين اعتبروا قرار هيئة الامم المتحدة رقم ٣٣٧٩ لسنة ١٩٧٥ الذي اعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال العرقية مماثلاً لحكم محكمة نورمبرغ الدولية بالنسبة للنازية.

و لم تصبح اسرائيل طريقاً للسلام ولا نهاية للتاريخ في المنطقة، بل طريقاً للحرب وصليباً جديداً لليهود أنفسهم.

هوامش الفصل السابع

١ - ايفانوف، مصدر سابق، ص ٩٥.

٢ - فندلي، الخداع، الدستور الاردنية، ١٩٩٣/٣/٢٢.

٣ - لينتتال، مصدر سابق، ص ٥٢٣.

٤ - المسيري، الايديولوجيا الصهيونية، مصدر سابق، ص ١٥١.

٥ - فندلي، مصدر سابق،

٦ - جريدة الرأي ، عمان، ١٩٩٥/٥/٧.

٧ - مؤسسة الارض، الرأسمال العالمي وتكوين الاقتصاد العالمي، دمشق، ١٩٨١، ص ١٨/١٧.

٨ - مهدي عامل، في الدولة الطائفية، دار الفارابي، بيروت، ص ١٤١/١٤٠.

٩ - اسحق دويتشر، اليهودي اللايهودي، المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٧١، ص ٥٧/٤٨.

الفهرست

هذا الكتاب

هذه الدراسة تحاول اعادة انتاج قراءة ماركس - ابراهام ليون حول اليهودية بإضاءات جديدة تحاول توظيف ما كتب حول اليهودية والصهيونية وخاصة كتابات سيد القمني وشفيق مقار ومارسيا الياد وفرويد، والمسيري وهابرماس، ومن ثم متابعة الدورة اليهودية المغلقة بوصفها دورة أبعد عن الارض، اقرب الى الشتات والتجوال الابدي، وبالتالي أبعد عن الارض الموعودة، أقرب الى صرات الذهب الربوية ثم الى درع المحارب في خدمة الغرب.

ان الدورة الصهيونية التي تبدأ بالراعي الشرقي ثم التاجر - المرابي، ثم المحارب الغربي لا تتوقف لحظة تاريخية واحدة فوق الارض، أية ارض.

فبالرغم من ايديولوجيا الارض الموعودة وترميم المستنقعات للاستيطان، فقد انهارت كل مشاريع الاستقرار اليهودي في كيان يهودي خاص. سرعان ما يصطدم بالقانون التاريخي لاستمرار اليهود كيهود داخل التاريخ.

ولعل الوضع الراهن لاسرائيل الغربية الحالية أبرز مثال على ذلك، حيث يبدو العكس تماماً.

فما ان استقر اليهود في دولة شرق المتوسط بدعم الغرب ولخدمته، حتى اكتشفوا انهم امام خيارين لا ثالث لهما: الاستمرار كجغرافيا شرقية محاصرة داخل تاريخ الغرب وإما التخلي عن دولة الجغرافيا والاندماج في تاريخ الشرق كجماعة اثنية.